يجب أن يقرأ هذا الكتاب كل من يهتمون بقدرة البشر وكيفية تغلبهم على المحن. إن ياسمين إحدى أشجع الشخصيات في عصرنا، إنها قدوة مشرقة لنا جميعًا.

إيان هرسي عليّ، مؤلفة كتاب "كافرة"

سافرة

كيف يمكّن الليبراليون الغربيون الأصولية والتشدد الإسلامي



ياسمين محمد

ترجمة مترجم متطوع ولؤي عشري

مراجعة تامة للترجمة والصياغة: لؤي عشري

العنوان الأصلي للكتاب:

Unveiled: how western liberals empower radical Islam, by Yasmine Mohammed

عنوان الترجمة العربية: سافرة- كيف يمكن الليبراليون الغربيون الأصولية والتشدد الإسلامي

ترجمة مترجم متطوع ولؤي عشري
مراجعة تامة للترجمة والصياغة: لؤي عشري

يجب أن يقرأ هذا الكتاب كل من يهتمون بقدرة البشر وكيفية تغلبهم على المحن. إن ياسمين إحدى أشجع الشخصيات في عصرنا، إنها قدوة مشرقة لنا جميعًا.

إيان هرسي عليّ، مؤلفة كتاب " كافرة"

يفشل العديد منا في فهم أن الضحايا الرئيسيين للقسوة الهائلة التي لا توصَف التي يؤدي إليها الالتزام المتشدد المتحمس بالإسلام (دون ذكر التسلط و الهوس بالتحكم الذي يهيمن حتى على أصغر تفاصيل الحياة اليومية) هم المسلمون أنفسهم، وخاصةً النساءَ. كتاب ياسمين محمد المحرك للمشاعر والمُدْمِي للقلب و المكتوب بجمالية يوضح هذا بطريقة يجب أن تكون قادرة أخيرا على تغيير رأي حتى أشد العقول تضلُّلًا من المدافعين عن الإسلام في وسطنا وبيئتنا الليبرالية حسنة النية"

ريتشارد دوكينز، مؤلف كتاب وهم الاله.

ترث النساء و المفكرون الأحرار في المجتمعات المسلمة التقليدية عبئًا مضاعفًا. فاذا أرادوا العيش في العالم الحديث فعليهم ليس فقط مواجهة الثيوقراطيين (المتعصبين دينيًا) في منازلهم ومدارسهم، بل وأيضًا الكثيرَ من الليبراليين العلمانيين بعدم مبالاتهم وبنفاقهم وتقواهم الزائفة وهلوساتهم بخصوص العنصرية الذين يضيفون حجابًا آخر على معاناتهم. تقبل ياسمين محمد في كتابها "سافرة" هذا التحدي بكل ما في العالم من شجاعة مكذبة الفكرة الخطيرة القائة بأن نقد الإسلام ضرب من ضروب التعصب. فلتلهمك شجاعتها وحكمتها"

سام هارِسْ، مؤلف كتاب نهاية المعتقد

تمثل القصص الحقيقية الشخصية شهادات قوية. قصة ياسمين تحرك المشاعر بعمق وقد تصيب المرأ بالاكتئاب أحيانا لكنها أيضا مليئة بالأمل في ما يمكن أن يكون، بدلًا من الرضا بالواقع وبما هو كائن، وهي ليست قصة استثنائية. إن النساء اللواتي تركن الإسلام هن على الأرجح أكثر الأقليات تعرضًا للاضطهاد في العالم. أتحادكم أن تذكروا خيارا شخصيا آخر قد يقود الى العنف من أجل الشرف بالاضافة الى الإعدام من قبل حشود العامة في دول نعتبرها حليفةً لنا. ليس لمن يسمي نفسَه ليبراليًا أن يدعي الليبرالية إذا تجاهل هذه الأقليات داخل الأقليات. و على المسلمين في شتى أصقاع العالم أن يدركوا هذا الاستبداد والسلطوية التي تقبع بينهم. أرجو أن تستطيع قصة ياسمين الشخصية والشجاعة المساهمةَ في خلق هذا الوعي اللازم بشدة"

ماجد نواز، مؤلف كتاب الراديكالي

إن ياسمين محمد امرأة شجاعة جدا وقدوة رائعة لكل النساء اللاتي واجهن ويواجهنَ العنف تحت غطاء الدين أو الثقافة. قصة ياسمين مأساوية وآسرة في نفس الوقت. فقد تحملت أشياء لا ينبغي أن يتعرض لها إنسان. قصتها أيضًا من قصص الشجاعة والعزيمة لأنه "لا مبرر للتعنيف والإساءة".

راحيل رازا، مؤلفة كتاب جهادهم ليس جهادي.

جدول المحتويات

إهداء

لذكرى تيفرز

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى كل إنسان يحسُّ أنه مسحوق تحت الضغط الهائل والتهديدات المرعبة للإسلام. أرجو أن تساعدك قصتي وتلهمك لكي تنتزع حريتك وتبسط جناحيك الرائعين.

هذا الكتاب أيضا مهدى إلى من يشعرون أنهم ملزَمون بتشويه صورة كل المسلمين وشيطنتهم. آمَلُ أن ترَوْا أننا كلنا بشر وأننا كلنا لدينا شياطيننا لنحاربها.

هذا الكتاب لكل من يرى أن عليه واجبًا للدفاع عن الإسلام ضد التمحيص والنقد. آمَلُ أن تفهم أنك كلما تمنع النقد فإنكَ تمنع النور من أن يشع على الملايين من الناس حبيسي الظلام.

و أخيرًا وليس آخرًا، أهدي هذا الكتاب الى زملائي في الكفاح. الى المسلمين السابقين ورفاقي الملحدين، رفاقي المفكرين الأحرار، ورفاقي المشاغبين مثلي.

مقدمة

بقليم ريك فابرو

رن هاتفي يومَ الـ١٧ من شهر يوليو سنة ٢٠١٨ في الساعة ١١:٢٦ صباحًا. إني لا أتذكر أي رنة تترافق وتدل على أي تطبيق على هاتفي ولذلك أخذت أقلب عبر الإيميل وفيسبوك وتويتر وألعاب الكلمات التي ألعبها مع أصدقائي، إلى أن عثرت أخيراً على الرسالة النصية وفتحتها.

"مرحبًا سيد/ فابرو. لقد كنتُ إحدى طالباتك في الصف الثامن بمادة المسرح سنة ١٩٨٩/١٩٨٨... لست متأكدة أنكَ تتذكرني..."

خفق قلبي عند قراءتي للرسالة ووشَّحَت العبرات خدَّيَّ بصمت.

"ياسمين، إني لست فحسب أتذكرك، بل لقد فكرت فيكِ مراتٍ كثيرةً جدًّا على مر الثلاثين سنة الماضية!"

خطرَتْ لي مرة أخرى بوضوح شديد ذكرايَ عن تلك الفتاة الشجاعة ذات الـ ١٣ سنة التي جلست قبالتي في مكتبي تصف البشاعات التي ارتُكِبَتْ ضدها والتي تتحدى قدرة المرإ على التصديق بأن إنسانًا يمكن أن يكون بمثل هذه الوحشية تجاه غيره، ناهيك عن إنسان فتاة عديمة الحيلة ووديعة غير مؤذية. كانت مصممة على أن ترفع أمرها الى السلطات لعلها تنقذها من العذاب الذي تعيشه في بيتها المروِّع البيغض.

تدخلت السلطات وما رأيتُها مرة ثانية. افترضت أنهم أودعوها ملاذًا آمنًا و أن كل شيء صار في النهاية على ما يرام. في نهاية العام انتقلتُ إلى مدرسة أخرى وكنتُ أتساءلُ عن مآل[1] ياسمين.

"أردت فقط أن أشكرك. الأمور لم تسر على ما يرام لأن القاضي حكم بأن عنف عائلتي ضدي ي يدخل تحت طائلة "الحريات الثقافية" ".

كاد قلبي يتوقف عن الخفقان. حينئذاكٍ بدلًا من أن أتساءل عن تطورات حياتها خلال الثلاثين سنة الماضية، صرت مسكونًا بأسئلة تلح عليَّ. اتفقنا على اللقاء. تعانقنا. تحدثنا وبكينا. وطلبت مني أن أقرأ مسودة هذا الكتاب.

كتاب "سافرة" يحكي القصة الشيقة كاملة، ويجيب عن الأسئلة. كل من سلطة العائلة، سلطة الدولة، سلطة الدين والثقافة، كلها حاولت فرض سلطتها عليها. إنها تحكي في هذا الكتاب كيف أن إرادتها وشجاعتها انتصرنا رغم لحظات ضعفها وشعورها بالهزيمة لكي تنتصر في النهاية.

هذا الكتاب ليس مهمًّا فقط بسبب القصة الشخصية الآسرة التي يرويها بل أيضًا لأن القصة ليست بفريدة من نوعها. "ياس" صوت يجب أن يبلغ كل الناس الذين يرزحون تحت قمع سلطات تمنع وتعيق فرصتهم في حياة حرة.

ريك فابرو

[1] المآل: المصير

كنت أجد أنه من المستحيل أنْ أحدِّث أي أحدٍ حول مشاكلي. لم أكن قادرة على مواجهة الإحراج،

وعلى أي حال فإنني لا أملك الشجاعة. كل شجاعتي سُلِبَتْ مني في طفولتي. لكن الآن وفجأة
أجد في نفسي رغبة شديدة في أن أحدث شخصًا بكل شيء"
روالد داهل، ماتيلدا

تمهيد

نشأتي كمسلمة ينبغي ألا تكون أكثر من ذكرى بعيدة. فقد تركت ذلك العالم سنة ٢٠٠٤. لكن العالم المؤلم المسبب للصدمات الذي ترعرعت فيه حدد معالم شخصيتي. إنه في عظامي ويجري في عروقي مجرى الدم ولا أجد منه مهربًا. ظننت أنني يمكنني الهروب منه وأن أبدأ حياتي من جديد وأعيد نحت ذاتي وأن أعيش حياتي كما أريد. لكني اكتشفت أن لا مهرب لي من نفسي. لا سلطان لي على الصلات التي تسكن ذهني وردات الفعل العنيفة العميقة التي يصدرها جسدي. ليس لي أي تحكم في أيٍّ من ذلكَ، ولا أستطيع أن أعيد نحت أو بناء ذاتي من الصفر. قد أظن أني تغلبت على كل شيء وأني سوف أستطيع أن أعيش حياة "طبيعية". لكن ما أن أسترخي قليلًا حتى تطل إحدى الذكريات القبيحة الهاجعة برأسها.

التربة التي أنبتتني والماء الذي رواني كلاهما كانا مسمَّمينِ بالخداع و الخوف والأكاذيب والخيانة والغضب والحزن والكثير الكثير من التعنيف. ولإنْ بدَوْتُ شجرة ملؤها الحياة والصحة من الخارج، إلا أن الحقيقة تكمن في جذوري. أتمكن من مخاتلة كل من يحيط بي، وحتى الأصدقاء الذين عرفتهم لسنين ليس لديهم فكرة عن الحقيقة. إذ يقولون أشياء مثل: "لكنك تبدين عادية للغاية" و "كيف أنكِ سليمة نفسيًّا وعصبيًّا؟" و "ما كنت لأَحْزِرَ[١]!".

حتى زوجي يعجز عن التوفيق بين قصص هذه الفتاة التي تختلف حياتها عن حياته للغاية، مع هذه المرأة التي يحبها. لقد التقينا بعد بضع سنوات من قطعي الصلاتِ بعائلتي. لم أكن قد شفيت بعد بأي حال من الأحوال، بيد أنني كنتُ قد تعلمتُ كيف أبتلع آلامي. لم تكن لدي طريقة للتعبير عن تلك الآلام. لم يكن أحد ليفهم. كنت أعلم أن الناس لا يرتاحون للحديث حول الإسلام. ولذلك دفعت كل الفكرة بعيدًا فقط.

لم أعثر إلا بعد سنوات من تركي الإسلام على صفحة بيل مار على الفيسبوك. كان بعض المسلمين السابقين (الذين تركوا الإسلام) يردون على رد فعل بن أفليك على انتقاد سام هارِسْ للإسلام. إن صراخه وهو يقول "مقزز" و"عنصري" صار أسطوريًّا الآن بل وكليشيهيًّا مبتذَلًا. لم أكن قد سمعت قبل ذلك بعبارة "مسلم سابق" ولم يكن لدي فكرة أنه يوجد آخرون مثلي. كنت قد احتفظت بأسراري البائسة لنفسي. حياتي لا تتماشى مع الصوابية السياسية ولا تتلاءم مع السردية المفضلة. قصة حياتي حقيقة غير مريحة، الناس يفضلون أكاذيبهم المريحة. بيد أن ردة فعلهم تجاه غضب بن أفليك جعلتني أرغب في المشاركة في الجدل.

سام هارِسْ عالم الأعصاب ومؤلف الكتاب الريادي والمثير للجدل "نهاية الإيمان" كان قد حضر في عرض (برنامج شو) بيل مار في أكتوبر سنة ٢٠١٤ متحدثًا عن الإسلام وتكلم بطريقته الشهيرة المميَّزة التي تجمع بين الصرامة واللين. لقد تناول الموضوع بنفس الصرامة الأكاديمية التي يطبقها على أيٍّ من بحوثه عن أديان العالم. فتحدث عن الإسلام بنفس الطريقة التي تحدث بها عن المسيحية واليهودية والكثير من الديانات والأيديولوجيات الأخرى، أي: بذِكر الحقائق.

[١] أحزِرُ: أُخَمِّنُ

استهل هو وبيل مار حديثهما بالتحسر على حقيقة فشل أو تقصير الليبراليين في الدفاع عن القيم الليبرالية. تحدث بيل حول كيف أن جمهوره يضج بالتصفيق لقيم مثل حرية التعبير وحرية المعتقد والمساواة بين الجنسين وحقوق الأقليات وحقوق المثليين ومختلفي الميول الجنسية، لكنه ما يلبث أن يلتزم الصمت إذا ما أشار أي أحد إلى أن هذه المبادئ لا تجد لها دعمًا في العالم الإسلامي. أما سام فقد أضاف أن الليبراليين لا يتوانون عن انتقاد الدول الدينية (الثيوقراطية) ذات العنصر الأبيض والحكم الديني المسيحي، لكنهم يحجمون عن انتقاد نفس هذه الشرور في العالم الاسلامي. كما أنه وضح أن الإسلام كدينٍ يختلف جدًّا وليس مرادفًا للمسلمين كشعوبٍ وناسٍ.

وكما كان مُتوقَّعًا، يبدو أن بن أفليك _الذي مثَّلَ من قبل دور ملاك ساقط في فيلم "دوغما" أو "عقيدة"_ قرر أن يتطوع ليصبح الدليل (أ) لتجسيد نفس الصورة الكاريكاتيرية الساخرية لليبرالي المشوش التي تطرق إليها سام عبر بإلقاء تهمة العنصرية على كلٍّ من بيل وسام. وشبههم بأولئك الذي يستعملون مصطلحات مثل "اليهودي المخادع" أو القائلين بأن "السود يريدون دائمًا إطلاق النار على بعضهم البعض". وأصر على أن المسلمين "لا يريدون إلا أن يأكلوا السندويتشات"، مجسِّدًا بالمثال نفس ذلك النفاق الذي تحدث عنه سام. هل كان بن أفليك _الذي مثل في فيلم يركز على نحو خاص وأساسي على نقد المسيحية والسخرية منها_ يرى أنه تخطٍ للحدود وغير مقبول بالنسبة لسام هارِسْ وبيل مار أن يمارسا نقاشا حضاريًّا ومبنيًّا على الحقائق حول الإسلام؟

وبالرغم من أن كلًّا من بيل وسام استشهدا بإحصائيات من مركز بيو للأبحاث[١] والتي توضح بأن قرابة ٩٠ بالمئة من المصريين يعتقدون أنه يجب قتل الأشخاص لتركهم دينهم، فقد أصر بيل على أن هذه الأفكار السيئة لا يعتنقها إلا عدد ضئيل بين المسلمين.

من وجهة نظري، لا يُغْفَر لبن أفليك رفضه لنقد هذه الأيديولوجيا التي قد سببت الكثير من المعاناة في العالم. إذْ في الغرب _على نحوٍ عامٍ_ لا يهتم أحد لسجن النساء المسلمات أو قتلهنَّ في إيران والسعودية لعدم تغطيتهن شعورهن. لا أحد يهتم لكون المدونين في بنجلادِش يُضْرَبون حتى الموت في الشوارع لأنهم تجرؤوا على الكتابة حول المذهب الإنساني. كما أن لا أحد يبالي بأن الطلبة في باكستان يُضرَبون حتى الموت لأنهم شكَّكوا في الإسلام. لكن الآن وأخيرًا صار عموم الناس يتحدثون على وسائل الإعلام الرئيسية حول هذه المشاكل التي ابتُلِيَ بها العالم الاسلامي لأكثر من ١٤٠٠ سنة، بينما يقف هذا الرجل الذي يبدو على أنه حسن النوايا وحامل لعقد ذنب الرجل الأبيض[٢] معترضًا طريق الناقدين! كنتُ غاضبةً من ذلك.

أذكر أنني أردت أن أتكلم بحرية. أردت أن أصرخ بقوة. أردت الانضمام الى سام هارِسْ في معركة الأفكار هذه، لكنني كنت أيضا مرعوبة. أحسست أنني أقف على حافة جرف تحته محيط شاسع. كنت في أمان على اليابسة وكنت قد حررت نفسي من المياه الخطيرة التي في الأسفل. بيد أنني كنت قد صرت أحس برغبة جارفة في الغطس مجددا. أردت أن ألتقي آخرين مروا بنفس ما مررت به. أردت أن أشاركهم هم وعموم الناس قصتي. أردت مجموعة من الناس تستطيع تفهم مخاوفي الدفينة وقلقي وهواجسي.

---

[١] Pew Research Center

[٢] عقدة ذنب الرجل الأبيض مصطلح يشير إلى أن الأشخاص من الشعوب الأورُبية الذين يعتقدون أنهم يحملون مسؤولية جمعية اتجاه الأذى الذي نتج عن المعاملة العنصرية والاحتلال للشعوب الأخرى والألوان الأخرى من البشر.

لقد كانت مخاطرةً كبرى إذ لم يكن أحد في حياتي يعرف خلفيتي. لا أحد. الشخص الوحيد الذي كان يعرف توفي منذ سنوات. لم يكن لدي شهود على قيد الحياة. كنت أستطيع أن أعيش متجنبةً كل هذه الأنشطة والأحداث الجارية وأن أقرر عدم القفز من ذلك الجرف نحو ذلك المحيط. كنت سأظل متوارية عن الأنظار.

أو كان بإمكاني كخيار آخر أن أكون شجاعة. كان بإمكاني أن أقرر الغوص مجددًا وأبتل بالمياه المالحة وتغطيني الطحالب وأغامر حتى باحتمالية غرقي. كان بإمكاني أن أختار مشاركة وجهة نظري. كان بإمكاني أن أقرر تصحيح وجهة نظر أصدقائي الذين يصرون عى أن الإسلام دين سلام. كان بإمكاني أن أختار إزعاج الناس بحكايتي. كان بإمكاني أن أختار مواجهة ردود الفعل العنيفة، والأصدقاء الذين سوف يبتعدون عني، والتهديدات بالقتل.

شخص أكثر تعقُّلًا كان ليختار أن يدير ظهره ويترك ذلك المحيط وراءه. كنت أعلم جيدًا ما أنا مقدمة عليه، إذ كنت في ذلك العالم سابقًا. كانت إدارة ظهري لتكون أسهل للغاية ومواصلة حياتي على اليابسة الآمنة التي كنتُ قد خاطرت بحياتي بالفعل للوصول إليها.

لكنني اخترتُ الغوص مجددًا.

العنف- ١

"أرجوكَ، لا. أنا آسفة. يا ماما! يا ماما! أرجوكَ!"

كنت مستلقية على الفراش كما أُمِرْتُ وأتوسل بطريقة هستيرية كما فعلتُ العديدَ من المرات السابقة. ينتابني الخوف من هذا المشهد المألوف لي كأنني أراه أمامي الآن. يقبض على كاحلي ويربطني بمقدمة الفراش بعنف. أحاول مقاومة الرغبة في سحب قدمي لأني أعلم أن الأمر سيكون أسوأ لو فعلتُ. أبكي بشدة بدون انقطاع حتى لا أكاد أجد متسعا لاسترداد أنفاسي وهو يستعمل الحبل الذي أستعمله للعب نط الحبل ليربط قدمي الى الفراش.

يتناول عصاه البرتقالية البلاستيكية المفضلة التي حلت محل العصي الخشبية التي ما فتأت تنكسر. كنت فرحة في البداية إذ على الأقل لن تنغرز شظاياها في جسدي لكن ما كنت أجهله هو أنها سوف تؤلم أكثر بكثير من العصي الأخرى. سوف أكره اللون البرتقالي ما تبقى من حياتي. يجلد باطن قدمي وهو مكانه المفضل لأنه لا يمكن للمعلمين ملاحظة الندوب هناك. عمري ست سنوات وهذا عقابي لأنني لم أحفظ جيدًا بعض سور القرآن.

"إذن، أستحفظين جيدًا المرة القادمة؟"

"نعم!"

أنظر إلى أمي بتوسل، ولسان حالي يقول: " لم لا ترفعين صوتك أو يدك لحمايتي؟ لم تكتفين بالوقوف هناك إلى جانبه؟″ ما الذي ربما كان يمنعها؟ أكانت تخافه؟ هي من طلبت حضوره. أعليها جزء من الملام؟ في تلك اللحظة لم أستطع تفهم أن أمي (الوالدة الوحيدة التي أعتبرها أحد الوالدين وقتها) تقبل أن تسلمني طوعًا لكي أُقَيَّدَ وأُجْلَدَ. هو الشرير وليست أمي. كان ينبغي بالنسبة لي أن تكون هذه هي الحقيقة الوحيدة. إذن، لماذا اتصلت به على الهاتف وطلبت منه المجيء؟ لماذا؟

"في المرة القادمة التي آتي فيها إلى هنا، أريد سماع كل السور الثلاث، أتفهمين؟"

"نعم..."

"ما هي السور التي أتحدث عنها؟"

أتردد للحظة فيرفع يده مرة أخرى و عيناه تبرقان ترقبًا.

عندما لا تجد ضرباته جلدًا طازجًا تحط عليه، فإنها تحط على قدمي المتورمتين المكدومتين والممزقتين. جسدي يقطر عرقًا وقلبي يخفق بعنف. أجد صعوبة في التنفس لكنني أعلم جيدًا أن هذا لن ينتهي أبدًا إلى أن أستجمع قواي وأجيب.

"الفاتحة، الكوثر، و ... الاخلاص". ثلاث سور قصيرة ضرورية لإقامة الصلوات الخمس اليومية. خرجت الكلمات من حلقي بصوت مبحوح خشن ومختنق وبالكاد يمكن سماعها.

"إذا ارتكبت خطأً واحدًا -خطأ واحدًا- سأريك مقدار الألم الذي يمكنني في الحقيقة أن أسببه لك".

وأخيرًا يفك عقدة الحبل ويلقيه أرضًا ويخرج. أستلقي في مكاني منتظرة أمي لتأتي وتواسيني. وهي لا تأتي. أنتظرها بعد كل ضرب لكنها لا تأتي أبدًا. هي تتبعه دائمًا نحو الباب، وأصغي صوتيهما وضحكاتهما وهما يتبادلان الحكايات والضحك. أنتظر محتبسة الأنفاس سماع إغلاق الباب. لا أستطيع أن أتنفس الصعداء وأسترخي حتى أتيقن أنه ترك الشقة. من الصعب أن أسترجع استقرار أنفاسي بينما أنا أشاهد أضواء السيارات من الشارع في الأسفل تترك انعكاساتها عبر سقف غرفتي ومعها أزيز المحركات. في النهاية، أنكمش على نفسي في وضعية الجنين كالكرة وأضع إبهامي في فمي. رغم عصف نبضات الألم في قدمَيَّ والشهقات اللاإرادية التي تنفخ صدري بقوة، أغط في سبات عميق من النوع الذي لا يأتي إلا بعد صراع يهدد بإهلاك كيانك نفسه.

أستيقظ بضعف مترنحةً في منتصف الليل مع تلك البقعة المبتلة الباردة المعهودة تحتي. إحدى قدمي قد لمست تلك البقعة، ولسعات الألم أقضت مضجعي. أعلم أن علي أن أشق طريقي نحو الحمام لكن مجرد فكرة الوقوف على قدمي المتورمتين تجعل عينيَّ تغرورقان بالدموع. أدلي بقدمي من على حافة الفراش بحذر شديد. هما متورمتان وتغطيهما فقاقيع الدم. أستجمع قواي قبل أن أقف على قدمي. أعلم أني إذا وضعت كل حملي عليهما فسوف ينفجران ألمًا ودما، لكن علي أن أسارع الى غسل البول الذي يحرق الجروح المفتوحة. أسير على حافة قدمي كي لا تلمس الجروح السجاد. أعرج ببطئ متئكة في كل خطوة، أولًا على فراشي ثم خزانتي ثم مقبض الباب ثم جدار الرواق. إن إحساسي باعتصار الجروح وهي تتمزق منفتحة على نحو محتوم بسبب الوطء عليها لا أزال أتذكره إلى اليوم بعد مرور قرابة أربعين سنة.

يؤكدون لي أن كل هذا الألم لا شيء مقارنةً بعذاب نار جهنم إذا لم أحْفَظْ . لكن قبل أن أتعلم أن أصمت وأمسك لساني، كنت أتساءل:

"إذا أحرق الله جلدي ثم أنبته مجددًا ثم أحرقه مجددًا وهكذا دواليك إلى الأبد، ألن أتعود على الأمر في النهاية؟"

تجيب أمي: "لا"، سيحرص الله على أن كل مرة ستكون بنفس ألم المرة الأولى".

كنت مرعوبة من الله ويوم القيامة والاحتراق في الجحيم. هذه ليست بالأشياء التي تشغل عقل طفل عادي، حسنًا...أو بالأحرى عقل طفل عادي غير مسلم.

يعج اليوتيوب بڤيديوهات لأطفال يتعرضون لعنف شديد في المدارس القرآنية[١]. فتيات يُجْرَرْنَ من شعورهن على الأرض لعدم لبسهن الحجاب (الخمار بالفصحى) وفتيان يُجلَدون ويُرْكَلُون إلى أن يقعوا على الأرض. العنف الذي

[١] المدارس الدينية الإسلامية في دول كباكستان وبنجلادِش، madrasas، والكلمة من أصل عربي لكنهم يستعملونها للدلالة على تلك النوعية من المدارس حصرًا، باستعمال مختلف عن الاستعمال الأصلي العربي الدال على كل أنواع المدارس.

تعرضت له _على همجيته_ ضئيل مقارنة ببعض القصص التي سمعتها. حدثتني فتاة صومالية عن كيف أن أمها سكبت الزيت الساخن في حلق أخيها (بينما هو مقيد الى الفراش) وأرغمت إخوته على المشاهدة.

وفقًا للتقارير المعاصرة، يتعرض أكثر من ٧٠% من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين العامين والأربعة عشر عامًا في الدول ذات الغالبية المسلمة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا إلى التأديب باستخدام العنف. في بعض الدول مثل اليمن وتونس وفلسطين ومصر يقول أكثر من ٩٠% من الأطفال أنهم تعرضوا للعنف الشديد. ما سبب هذا؟ لِمَ ينتشر العنف ضد الأطفال في هذه الدول؟ ما يجمع هذه الدول هو أنها كلها تتَّبِع نفس الدين. الدين الذي يدعو الناس إلى ضرب أطفالهم. يقول الحديث المحمدي:" مروا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعًا واضربوهم عليها إذا بلغوا عشرا" (حديث صحيح حسب الألباني في الصحيح الجامع ٥٨٦٨)[1]. كما قال أيضا:"علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فهو أدب لهم" (صححه الألباني في صحيح الجامع ٤٠٢٢)[2].

وأهل البيت في الحديث هم الأبناء والزوجة أو الزوجات والعبيد.

كما ترون، فمن واجب ومسؤولية الوالدين [في تعاليم الإسلام] الحرص على حفظ الأبناء للقرآن وألَّا تفوتهم صلاة وأن يتبعوا السبيل الضيق المسطَّر لهم. "أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (رواه البخاري ٥٨٣ ومسلم ١٨٢٩ وغيرهما).

إذن، فعندما يضرب الوالدان أبناءهما فإنما يفعلان ذلك بدافع الواجب الديني والخوف التَقَوِيِّ من الله. لأن عليهم الحرص على أن يكون أبناؤهما مسلمين مُخلِصين. فإذا لم يكبر الأبناء كذلك فإن الوالدين هما من فشِلا أو قصَّرا وسوف

[1] رواه أحمد في مسنده ١/١٦٦ صحيح الإسناد وأبو داوود في سننه كتاب الصلاة/ باب متى يؤمر الغلام بالصلاة/ حديث رقم ٤٩٤ وصححه الألباني.
وهو عند الشيعة الاثناعشرية مثلًا:
٢٩٠٥ / ١ ـ ابن الشيخ في الأمالي (أمالي الطوسي): عن أبيه، عن الحسين بن عبيد الله الغضائري، عن الصدوق، عن محمّد بن علي ماجيلويه، عن محمّد بن يحيى العطّار، عن محمّد بن أحمد الأشعري، عن موسى بن جعفر، عن علي بن معبد، عن بندار بن حماد، عن عبد الله بن فضالة، عن أبي جعفر أو أبي عبد الله (عليهما السلام) قال : سمعته يقول : « إذا بلغ الغلام ثلاث سنين ـ إلى أن قال ـ : ثم يترك حتّى يتم له ست سنين، فإذا تم له ست سنين صلّى، وعلّم الركوع والسجود، حتى يتم له سبع سنين، فإذا تم له سبع سنين قيل له: اغسل وجهك وكفيك، فإذا غسلهما قيل له: صل، ثم يترك حتى يتم له تسع سنين، فإذا تمت له عُلِّم الوضوء، وضرب عليه، وأمر بالصلاة، وضرب عليها، فإذا تعلم الوضوء والصلاة غفر الله لوالديه إن شاء الله».
٢٩٠٦ / ٢ ـ السيد فضل الله الراوندي في نوادره: بإسناده عن موسى بن جعفر، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال علي: قال رسول الله) صلّى الله عليه وآله) : « مروا صبيانكم بالصلاة إذا كانوا أبناء ست سنين، واضربوهم إذا كانوا أبناء سبع سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع إذا كانوا أبناء عشر سنين».
وانظر مستدرك الوسائل للمحدِّث النوري مجلد ٣، أحاديث ٢٠٩٥/ ١ إلى ٤/٢٠٩٨ نقلًا عن أحاديث الكتب الأقدم كأمالي الطوسي ومكارم الأخلاق للطبرسي ونوادر السيد فضل الله الراوندي وعوالي اللآلئ.

[2] أبو نعيم في الحلية ٣٣٢/٧ وهو في السلسلة الصحيحة ١٤٤٦، والطبراني ١٠/ ٣٤٤-٣٤٥ وهو في السلسلة الصحيحة ١٤٤٧
وفي القرآن طبعًا: { وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ....} النساء: ٣٤

يحاسبهما الله يوم الدِينِ[١]. إذا لم يلتزم الأبناء بتعاليم الإسلام ويكونوا مسلمين مخلصين فإن نفوس الآباء سوف تكون عرضة لخطر الاحتراق في جهنم الى الأبد.

تُظْهِرُ الأبحاث أن ٧ من كل ١٠ أطفال في المتوسط يتعرضون للعنف النفسي وهذه النسبة تبلغ أعلاها في اليمن (٩٠ بالمئة). بينما يتعرض ٦ أطفال من كل ١٠ إلى العقاب الجسدي. تبلغ هذه النسب أعلاها في مصر واليمن وجمهورية أفريقيا الوسطى (أكثر من ٨٠ بالمئة).

في أغلب الأحيان تستخدم العائلات تشكيلة من أساليب التربية العنيفة. معظم الأطفال في أغلب هذه الدول أو المناطق يتعرضون الى أساليب عقاب نفسية وكذلك جسدية. هذا يؤكد أن هذين الأسلوبين من العقوبات يتداخلان في الغالب وكثيرًا ما يستخدمان معًا في سياق التربية. ذلك التعرض المكثف لأنواع متعددة من العنف يزيد ويفاقم من احتمالات الأضرار المحتملة التي تحدث للطفل على المدى القصير والبعيد على السواء.

على الرغم من أن التعنيف والتهديد بالعنف كانا يجمدان الدم في عروقي ويشلان حركتي، لكني لا أذكر لحظة في حياتي لم أقاوم فيها. الاستماع إلى الموسيقى مثلا كان محظورًا حرامًا. الموسيقى من الشيطان (بنظر المتشددين). رغم ذلك، فعندما كنت أصير وحدي في المنزل، كنت ذلك أدير المذياع إلى محطة LG73 و أستمع الى آخر أغاني موسيقى البوب. كان ويل سميث في مسلسل ذا فريش برِنْسْ[٢] محقًّا: "الآباء لا يفهمون شيئًا". لكنني كنت أخاف غضب الله. كنت أصمت كلما غنيت مع جون لينون أغنية "تخيل" عند وصوله إلى مقطع "تخيل أن العالم بلا دين". كنت أخاف للغاية حتى أن أهمهم بها فأصير كافرة. أن يكون المرأ كافرًا أو مرتدًّا هي أكبر كبيرة ممكنة في الإسلام وعقوبتها الموت. أذكر أنني كنت أتساءل كيف لي أن أحب ٩٩ بالمئة من الأغنية لكنني أتفادى بالكامل هذا المقطع؟ متجنِّبةً له للغاية حتى أني كنت لا أستطيع أن أحرك شفتيَّ به. هل يمكن أنه لو أن لينون قد أصاب في باقي الأغنية، أنه قد أَصابَ في هذا المقطع أيضًا؟

لدي بضع من الذكريات المشابهة لهذه. ذكريات عن أنوار تسللت متألقة للحظات عبر شقوق خرسانة الإسلام المطوِّقة التي كانت تدفنني بطبقاتها العديدة طوال طفولتي.

---

[١] يوم الدِينِ: أيْ الدينونة والحكم والقضاء بحسب عقائد الأديان الثلاث، يوم القيامة.

[٢] The Fresh Prince of Bel-Air
أغنية طويلة يقتبسها ذلك المسلسل، تبدأ بعبارة: "كل الآباء متشابهون، بصرف النظر عن الزمان والمكان، إنهم لا يفهمون أننا نحن الأطفال يجب أن نرتكب بعض الأخطاء"، وهي في الأصل أغنية راب ناقدة ساخرة قديمة من سنة ١٩٨٨ لفرقة DJ Jazzy Jeff & The Fresh Prince's في ألبومها الثاني He's the DJ, I'm the Rapper. وقد نالت جائزة جرامي لأفضل أداء عام ١٩٨٩م.
https://en.wikipedia.org/wiki/Parents_Just_Don%27t_Understand

الصلاة

المسلمون مطالَبون ملزَمون بالالتزام بأركان الإسلام الخمسة: الشهادتان، الصلوات الخمس اليومية، الزكاة، صوم رمضان، والحج الى الكعبة في مكة. تكرار نفس الأفعال الروتينية وغمغمة الكلمات بلغة أجنبية[١] كالمنوم مغناطيسيًّا في أثناء الصلوات الخمس يضعنا كلنا إلى الأبد على السراط أو الطريق المرسوم. لا وقت لديك للزيغ عن الطريق المستقيم إذا ما كانت الصلاة التالية تنتظرك دائمًا. لا مجال لتشقق الخرسانة فسرعان ما توضع طبقة إسمنتية جديدة.

الصلوات متكررة مخدرة للعقل مللًا. لا مجال فيها لأقل تغيير في حركة. كل حركة طقسية و عبارة محددة بدقة ونظامية متزمتة. وبذلك فهي تنزع عن الأُمة (المجتمع المسلم) أي مجال للفردانية. استقم في الصف واتبع القطيع ولا تتبع الملهيات. في أثناء الحَجِّ إلى الكعبة في مكة، تُنْزَع الأزياء الفردية المتلفة وعلى الحُجَّاج ارتداء الزي الأبيض البسيط المتشابه الموحَّد.

أما الاستعداد للصلاة فهو بروتينية الصلاة نفسها. الخطوة الأولى هي الوضوء كنظافة طقسية، وكل خطوة من الوضوء يجب تكرارها ثلاث مرات: غسل اليدين ثلاثًا، مضمضة الفم ثلاثًا، غسل الأنف ثلاثًا، غسل الوجه ثلاثًا، غسل اليدين من المعصمين الى المرفقين ثلاثًا، مسح الأذنين ثلاثًا، و غسل القدمين ثلاثًا.[٢]

كانت قدماي أقصر للغاية من حوض الغسل، ولذلك كنت أقفز إلى طاولة حوض الغسيل من أجل الخطوة الأخيرة. بعد الوضوء تصير جاهزًا لبدء الصلاة. بيد أنك لو تبولت أو تغوطت أو ضرَطْتَ (فَسَوْتَ، أطلقتَ الريحَ) بعد الوضوء، فسوف يكون عليك أن تعيد كل طقس الوضوء من جديد.

نأتي إلى الصلاة بخطواتها الطقسية الروتينية المحددة بالتفصيل. يجب عليك أن تتوجه إلى جهة محددة، أي إلى القبلة وهي مكة في المملكة العربية السعودية. لا يلزَم للأولاد أن يرتدوا أي زي محدد للصلاة، لكن على الفتيات تغطية كل بوصة من أجسادهن بالكامل باستثناء أوجُهِهِنَّ وأيديهنَّ. كنت أكره ارتداء الجوارب لكن الله لا يقبل صلوات الفتيات ذوات أصابع القدمين المكشوفة. هو يقبلها فقط من الأولاد.

يبدأ أخي بالأذان أي النداء إلى الصلاة. لم أكن أرى داعيًا الى ذلك بما أننا كنا كلنا موجودين في غرفة المعيشة بالفعل. كان يدير رأسه يمنة و يسرة حرصًا على أن يصل صوته الى أبعد مكان ممكن.

---

[١] بالنسبة لها كغير عربية، وفي الحقيقة يجب أن نقر أن معظم هذا الوضع ينطبق على كثير من عامة "العرب" والشرق أوسطيين المعاصرين الذي لا يفقهون ولا يتقنون العربية الفصحى العادية، فكأنها لغة غريبة أجنبية بالنسبة للأغلبية الجاهلة الساحقة بتعليم رديء لعامة تلك الشعوب من الطبقات الفقيرة والشعبية- المترجم.

[٢] أجمع رجال الدين المسلمون على أن الواجب في غسل الأعضاء مرة واحدة لكل عضو، وأن المرتين والثلاث سُنة، ومن اكتفى بغسلها مرة واحدة فوضوؤه صحيح، وذلك لما روى البخاري (١٥٧) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «تَوَضَّأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّةً مَرَّةً»- المترجم

ثم كنا نصطَفُّ بحيث يكون الأولاد في الصف الأول والفتيات في الصف الخلفي. في المسجد الذي كنا نتردد عليه يدخل الرجال من البوابة الرئيسية بينما تدخل النساء من بوابة خلفية تحاذي المطبخ وقرب مقالب القمامة. ولقد لفت الإصلاحيون المسلمون مثل إسراء نعماني[1] الانتباه الى مسألة التمييز بين الجنسين في المساجد. لقد كتبت مقالًا في الواشنطن بوست حول دخولها المسجد ذات مرةٍ من الأبواب الرئيسية مع والدها. وكيف تعرضت هي ووالدها إلى المضايقة إلى أن غادرت المنطقة وانضمت إلى النساء في القبو حيث المكان الذي تنتمي له! تكافح النساء الآن في أورُبا ليس فحسب بإقامة مساجد بلا تمييز وفصل جنسي فيها، بل وأيضًا بإقامة مساجد تؤمها نساء إمامات! هذه بالطبع ليست مساجد دائمة. تتعبد هؤلاء النساء عموما في الكنائس حيث يتكرم القساوسة كريمو الخلق بفتح أبواب الكنائس لهن أيام الجمعة لكي يستطعن الصلاة هناك دون الخوف من الانتقام أو التنكيل. هن لسن إلا عددًا قليلًا من النساء لكنهنَّ يتحدين الفصل الجنسي المقبول على نحو واسع وعام في الإسلام. إنهن يُغَيِّرْنَ مكان العبادة أسبوعيًّا تفاديًا وخوفًا من هجمات المتطرفين الذين يرسلون إليهن رسائل تهديد بسبب تمردهن. توجد مجموعات أخرى من المسلمين الذين يتحدون المتطرفين بإقامة مساجد تسمح للمصلين من المثليين وأصحاب الميول الجنسية المختلفة بالدخول فيها، وحتى قبول أئمة من المثليين وأصحاب الميول الجنسية المختلفة (LGBT مجتمع أو مجموعة الميم)[2]! إني أدعم من كل قلبي المسلمين المنفتحين لقبول كل الناس والمساواة بينهم والذين يعارضون التمييز.

يصلي الرجال عموما معًا بمعزل عن النساء اللاتي يصلين أيضا معًا. وإذا تطلب الأمر أن يكون الجنسان في نفس المكان فيجب أن يصلي الرجال في الصفوف الأولى ومن ورائهم النساء، في العادة مع حاجز من نوعٍ ما يفصل بين المجموعتين. في مجموعتي صفوف الجنسين المنفصلة، يصطف المصلون متلاصقين بحيث تتلامس أكتافهم وأقدامهم كي لا يستطيع الشيطان الدخول بينهم.

تتَّبِعُ الصلاة طقوسًا وإجراءات محددة. تقف أولًا ويداك على صدرك (اليمني فوق اليسرى)[3] وتتلو سورة محددة في هذه الوضعية (الفاتحة، ومعها سورة أو نص قرآني آخر في أول ركعتين). ثم تضع يديك على ركبتيك (تركع) وتتلو نصًّا تسبيحًا آخر ثلاث مرات (سبحان ربي العظيم) ثم تستقيم ثم تسجد بوجهك نحو الأرض وتغمغم بكلمات محددة ثلاثا (سبحان ربي الأعلى، أو أدعية وتسابيح أخرى مثل سبوح سبوح رب الملائكة والروح وهو أقل شهرة) ثم تسجد بوجهك مرة أخرى، هذه العملية تُسمَّى الركعة الأولى، ثم تقوم وتقف مستقيمًا وتكرر نفس الحركات فيما يسمى بالركعة الثانية، وبعد سجدتي كلٍّ من الركعة الثانية والرابعة (أو الثالثة في صلاة المغرب) تجلس لترديد نص التشهد. يتراوح

---

[1] إسراء قراتولين نعماني، (بالإنجليزية Asra Nomani) من مواليد عام ١٩٦٥ كاتبة أمريكية وأستاذة تعلمت الصحافة في جامعة جورجتاون. وتشارك في إدارة مشروع بيرل، وهو مشروع لتدريب الطلاب على اعداد التقارير الصحفية الخاصة بالتحقيقات في عملية خطف وقتل زميلها السابق دانيال بيرل مراسل صحيفة وول ستريت.

اسراء نعماني هي مؤلفة لكتابين: الأول بعنوان: الوقوف وحيدًا في مكة: نضال امرأة أميركية من أجل روح الإسلام. والثاني بعنوان: تانتريكا: السفر على طريق الحب الإلهي. ومن المقالات: حقوق المرأة في غرفة النوم حسب الشريعة الإسلامية، حقوق المرأة في المسجد حسب الشريعة الإسلامية، و٩٩ وصيّة لفتح القلوب والعقول والأبواب في العالم الإسلامي. وتشكل قصتها جزءًا من الفيلم الوثائقي (المسجد في مورغانتاون)، والذي بُثَّ على مستوى البلاد على محطة الشبكة التلفزيونية الأمريكية (PBS) كجزء من سلسلة الافلام الوثائقية (أمريكا على مفترق طرق).

[2] ابتُكِر مؤخَّرًا مصطلح جديد هو في اللغة العربية هو مجتمع الميم وهو اصطلاح يشير إلى مثليي الجنس ومزدوجي التوجه الجنسي والمتحولين جنسيًا. وسبب اختيار هذا الاسم أن المصطلحات "مثلي، مزدوج، متحول ومتحير" كلها تبدأ بحرف الميم في اللغة العربية- المترجم المراجع.

[3] التكتف في الصلاة أو القبض وهو وضع اليد اليمنى على الشمال بالصلاة، يعتبره أهل السنة والجماعة واجبًا، لما روي في صحيح مسلم: «وكان ﷺ يضع يده اليمنى على اليسرى». وقد ذهب الشيعة إلى حرمته وبطلان الصلاة به فنصوصهم تحرمه وتقول ببطلان الصلاة به- المترجم المراجع.

طول الصلوات بين ركعتين وثلاث وأربع ركعاتٍ، وإثر كل صلاة هنالك صلاة أو صلوات قيل لي أنها اختيارية (سنة). بيد أنني لم أكن البتة مخيرة فيها.

يجب تكرار كامل هذا الطقس خمس مرات في اليوم. وفي كل صلاة وكل ركعة تُكرَّر وتُرتَّل نفس الكلمات التي كانت تدق كالمطارق في ذهني. لم أعرف قط في صغري معنى أيٍّ من الكلمات التي أكررها عشرين مرة على الأقل في اليوم. لم نكن أبدًا نناقش معانيها. هي توجد فقط لكي نكررها بلا توقف حتى الغثيان دون تفكير فيها[١]. لم يكن التساؤل يؤدي إلا إلى الغضب والتوبيخ.

وبالرغم من أني قضيتُ معظم اليوم في الصلاة فإن الشك وجد طريقه الى فكري. تمنيت لو كان بإمكاني أن أخضع/ أُسْلِمَ وينتهي الأمر، فهذا في النهاية هو معنى الإسلام الحقيقي. المسلمون الحقيقيون لا يتمردون ولا يقاومون ويستسلمون خاضعين للإسمنت الذي يجمدهم في أماكنهم وهو يجف رويدًا رويدًا.

لم أتوقف قط عن المقاومة، لكني امتلئت آنذاك بكره الذات بسبب ذلك. إذ كيف لي أن أكون مسلمة حقيقية إذا لم أستسلم/ أسلم وأخضع فقط؟ لم يبدُ لي أن أخي وأختي كانت لهما أي مشاكل، ليس المشاكل التي حدثاني عنها على أي حال. لسلوكي هذا وصمتني أمي بلقب "الناشزة أو مسبِّبة العار للعائلة". كانت تقول أن الشيطان هو الذي يجعلني أتساءل.

كلما كبِرْتُ كانت الأسئلة تصير أعصى على الإجابة. أذكر على وجه الخصوص حوارًا لي في سن المراهقة مع أمي والذي يكشف عن الكثير:

"كيف له أن يكون عمره متجاوزًا الخمسين عامًا ويتزوج من ابنة ست سنوات؟"

"وما المشكلة؟ أتظنيننا نعلم أكثر من رسول الله؟ من أنت لتشككي في أفعاله؟"

"هل كان بيدوفيليًا [محبًا للأطفال]؟"

"لا! بالتأكيد لا! إنه لم يمارس الجنس معها إلا عندما صارت امرأة. عندما جاءتها دورتها الشهرية الأولى. أما قبل ذلك، فلم يفعل إلا الأشياء الأخرى لإعدادها. لكي تجد الراحة النفسية معه عندما يأتي اليوم. سبحان الله! رسول الله كان دائما رحيمًا ومراعيًا هكذا".

"أوه، إذن فقد كانت بالغة مكتملة النمو؟"

"نعم. في نظر الله كانت مكتملة النمو. تصيرين امرأة عندما تأتيك عادتك الشهرية الأولى وعندئذ تصيرين مكلفة محاسَبة. أنت طفلة قبل ذلك ولا تسجل خطاياك".

"كم كان عمرها إذن؟"

"كانت ذات تسع سنوات"

---

[١] حتى بين المسلمين ممن يسمون "عربًا" و"ناطقين بالعربية" بسبب سوء التعليم في معظم أفراد شعوبهم لا يفهمون كلام العربية كأنها لغة غريبة عنهم لاعتمادهم على لهجات عامية نتاج عصور متطاولة من الجهل ورداءة التعليم والفقر والإفقار لشعوبنا العربية والشرقية، وأغلبهم يقرؤون القرآن لا لفهم وتفكر ودراسة في معانيه بل مجرد ترديد طقسي تعبدي لاعتقادٍ في نيل الأجر والثواب، يعني لا يختلف عن ترديد الهندوسي لنص ڤيدي سنسكريتي، بدون أي فهم تقريبًا لمعظم الكلام، رغم أنهم عرب كما يُفترَض**!-** المترجم المراجع.

"تسعة؟ لا يمكن اعتبارها امرأة!" صرخت بقوة عند ذلك.

ردت أمي على تساؤلاتي الملحة بصفعة على وجهي مشفوعةً بكلمات مليئة بالكره، مع تذكيرات بأن مصدر أسئلتي وتشككي هو الشيطان الذي صار يسكن عقلي ويوسوس لي بهذه الأفكار. وأن الشيطان أقوى مني وأني لا أستطيع مقاومته. حاولت ابتلاع أسئلتي لكنني لم أكن أستطيع منع نفسي أحيانًا. و عندما احتدمت المعركة صرت أخاف للغاية حتى التساؤلَ والتشكك في الأمور في عقلي بيني وبين نفسي لأن الله سيعلم أفكاري ويعاقبني لشكي فيه. كل شيء ايجابي كان يُعتبَر من الله وكل شيء سلبي كان يُعتبَر من ضعفي بسبب تأثير الشيطان علي. لم أشعر يومًا أنني أتملك حياتي وأتحكم فيها.

بالتأكيد لم يكن الشيطان هو السبب. لقد كان تفكيرًا متشكّكًا ونقديًّا طبيعيًّا.

هذا أحد الأصعب العقبات التي تواجه المرأ في ترك الإسلام: اتخاذ القرارات، الإصغاء الى الأفكار الداخلية والصوت الداخلي الذي لطالما قُمِعَ وأُسْكِتَ بانتظامٍ في الماضي. صار لزامًا علي الآن أن أستحضر تلك الأفكار وأن أتعلم أن أصغي إلى نفسي وأثق فيها. لم يعلمني أحد أن أفكر. بل كانوا ينهونني عن التفكير بل وفي الحقيقة يعاقبونني إذا فكرت. علموني أن أنفذ الأوامر كما أُؤْمَر بها وكان كل جزء من حياتي مسطرًا مفروضًا بدقة. لم تكن قراراتي بيدي: من كيفية استخدام الحمام وكيفية شرب الماء وقص أضافري إلى كيفية انتعال حذائي وما بينها من كل شيء. كل هذا كان محدَّدًا بعناية. لم أكن أكثر من مجرد وعاء لنقل رسالة الله و _كما كان يُؤْمَلُ ويُرْجى_ تكريس حياتي لهذا المسعى. تلك هي حياة المسلم(ة) المثالية بلا زيادة ولا نقصان.

الإخضاع ١

ما كنت يومًا قانعة سعيدة بالدور المرسوم لي. تذكرت زمنًا كنت فيه حرة من أي خرسانة مكبِّلة، قبل أن يدخل ذلك الرجل الفظيع حياتنا، فوجدت نفسي أصارع كل طبقة من الإسمنت تصب علي. أذكر السنوات التي سبقت مقابلة أمي إياه واعتناقها الإسلام الأصولي المتطرف فبدأت تغطي شعرها وتصف كل شيء بأنه حرام. تذكرت أنني كنت أتلقى دروسًا في السباحة وألعب في الحديقة العامة. تذكرت كيف أنه لم يكن علي الاستيقاظ فجرًا كي أمرغ جبهتي في سجاد وأغمغم لها. تذكرت كيف كان مسموحًا لي باللعب بدُمى باربي الخاصة بي واللعب مع أطفال الجيران غير المسلمين. تذكرت الاحتفال بأعياد الميلاد والسباحة وأكل بسكويت أوريو. كل هذه الأمور وغيره الكثير صار حرامًا حينذاك.

هذا بالرغم من أنني كنت أعيش في كندا، لم تكن أمي قد رُبِّيَتْ مثل هذه التربية في مصر. كنت أحدق بحسد في صور زواج والدَيَّ التي كانت بالأبيض والأسود. كانت أمي في الصورة ترتدي فستان زفافٍ كاشف من عند الركبتين، وكانت تربط شعرها على شكل كعكة و كانت تستعمل مكياجًا صاخبًا حول عينيها وتضع رمشين صناعيين كبيرين حادين. في كل الصور تقريبًا ترى راقصة رقص شرقي جميلة وأنيقة. كنت أحدق في صور الزفاف تلك فيصدمني الفرق التام بين العالم الذي أتت منه والعالم الذي آلت إليه.

الكثير للغاية من الأشياء في تلك الصور كان حرامًا. كانت ساقا أمي عاريتين وفستانها ضيقًا والأكمام تنتهي عند مرفقيها[١] وتضع مكياجًا و شعرها مكشوفًا. حتى طريقة ربطها لشعرها على شكل كعكة كانت حراما في الإسلام. كان هناك خمر وغناء وموسيقى ورقص، وكل هذه الأشياء حرام في الإسلام.

بل لعل أمي لم تسمع على الأرجح كلمة حرام قط في تربيتها. لقد عاشت حياةً رائعة. فعم أبيها كان أول رئيس لمصر وبالتالي كانوا فاحشي الثراء وذوي نفوذ. كان جدي متزوجًا وله ثلاث أطفال عندما صار عمه أقوى رجل في مصر. فقرر رغم ذلك أن يستغل شهرته الجديدة فيجد لنفسه زوجة بيضاء البشرة. كان يريد مثل هذه الزوجة الشابة الغنيمة لرجل كبير السن ثري مثله بحيث تكون ذات لون وملامح أورُبية لكنْ على أن تكون من أتباع الدين الملائم، لذلك حصل لنفسه على فتاة شابة تركية لتكون زوجة ثانية له مع زوجته الأولى.

لم تكن جدتي تتكلم العربية عندما وصلت الى مصر لكنها كوفئت بسخاء على جهودها. فانتقلت إلى قصر ضخم يعج بالخدم وأخذت تلد له الأبناء الواحد تلو الآخر وتوقفت عند السابع. لم يحتمل جدي وصول عبد الناصر إلى السلطة وتحوُّلَ عمه الى رجل منبوذ ووضعه قيد الإقامة الجبرية في منزله، كل هذا كان كثيرًا للغاية على جدي. كان مسحوقًا بالفعل تحت عبء الإنفاق على عشرة أبناء وزوجتين فانتقل إلى المملكة العربية السعودية. ولقد سمعت من أقارب أنه لم يكن محتاجًا إلى المغادرة وإنما اتخذ الأمر ذريعة للتخلص من كل مسؤولياته العائلية. من هناك كان يرسل بالنقود الى عائلتيه. و بالطبع لم يكن ليعيش وحيدًا هناك فتزوج مرة ثالثة.

---

[١] المرفق: الكوع.

لكنه لم يهاجر قبل دخول أمي الجامعة. إذ لم يكن من شك أن أمي كانت المفضلة لديه بين بنيه. إذ بما أنها كانت الأولى بين سبع من بنيه، كانت هي وأختها التوأم الوحيدتين اللتين ترعرعتا معه. لم ينل مثل هذا الحظ بقية أبنائه، إذ بالكاد يذكر بعضهم والدهم. كانت لديها مربيات وخدمات طوال حياتها ولم تكن لتقوم بأي شيء بنفسها. كانت النكتة (الحقيقية الواقعية) أنها عندما تزوجت أبي لم تكن تعرف حتى كيف تغلي الماء. لقد دخلت مدارس كاثوليكية خاصة باهضة الثمن. في ذلك الوقت في مصر كان الناس علمانيين أكثر بكثير مما هم عليه الآن. كان هذا قبل بزوغ نجم الإخوان المسلمين.

في هذا العصر يُقْتَلُ مسيحيو مصر للأسف بالمئات وهم يُصلون في كنائسهم. وحتى المسلمون الذين يرى المتطرفون من السنة أن إسلامهم ناقص كالصوفية يقتلون في مصر وهم يصلون في جوامعهم. صار كل الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بما في لك مصر أكثر تطرفًا، وأخذ هؤلاء المتطرفون بالتسرب إلى أوروبا وأمريكا الشَمالية أيضًا. هم لا يتسامحون حتى مع طوائف المسلمين الأخرى. لقد قتل مسلمٌ سنيٌّ متطرفٌ مسلمًا أحمديًّا صاحبَ محل في المملكة المتحدة (بريطانيا) فقط لأنه تمنى لزبائنه عيدَ فصحٍ سعيد. السنة هم غالبية المسلمين (٩٠ بالمئة)، بينما يمثل الشيعة بطوائفهم ثاني أكبر الطوائف (قرابة ١٠ بالمئة) بينما لا تمثل بقية الطوائف المجتمعة حتى ١ بالمئة. عندما أتحدث عن المسلمين في هذا الكتاب عمومًا فانما أنا أقصد الغالبية العظمى السنية، حيث إن هذه تجربتي الشخصية. في زمن شباب أمي كان الناس يعرِّفون أنفسهم كمسلمين على نحو حر ولم يكونوا يأخذون الدين بجدية للغاية. لم تكن النساء يلبسن الحجاب وكان بعض الناس يشربون الخمر وكان الإسلام ديانة تُتَّبَع بغير تزمت تمامًا كما هو الأمر بالنسبة الى أغلب المسيحيين اليوم. لكن الوضع تغير جذريًّا.

كنت غاضبة لأنه قد تسنى لأمي أن تعيش حياة باهيةً بينما أرغمت أنا على دراسة سور من القرآن و لم يسمح لي بركوب الدراجة خوفًا من أن أفقد عذريتي أو أن أتعلم السباحة لأن ملابس السباحة تكشف الكثير من الجسم. لماذا لمْ تُرِدْ لي أن أتمتع بنفس الحريات التي كانت هي قد حصلت عليها؟ كان لها أصدقاء مسيحيون بينما لم يكن يسمح لي حتى باللعب مع صديقتي تشيلسي وليندسي من الشقق المجاورة لأنهما كانتا كافرتين. كانتا يومًا بعد يوم تطرقان باب شقتنا:

"هل يمكن أن ندخل فنلعب مع ياسمين؟"

"لا ليس الآن"، كانت أمي تجيب. كنت أقف في رواق الشقة أفرك يدَيَّ راجيةً أن تلينَ.

"هل لها أن تأتي الى دارنا؟"

"لا. هي مشغولة الآن"

"لست مشغولة!"، كنت أقول بصوت طفولي.

"أدخلي غرفتك!"

كثيرًا ما أتفكر كم كنتُ سأكون مختلفةً لو لم تُحطِّم حياتنا بدخول وانفجار تلك القنبلة الذرية في بيتنا.

كانت تلك القنبلة هي ذلك الرجل الذي اتخذ أمي زوجة ثانية، "العم" منير. كان دخوله في حياتنا فعلًا انفجارًا. لم ترتعش الأرض ولا سمعنا إنذارًا ولم يتغير اتجاه الريح. بل صار هناك فجأة. مريض نفسي سوسيوباتي (عدو للمجتمع،

معتل اجتماعيًّا) عنيف اقتحم حياتنا ومزقها. دخل بيتنا _بتلك اللحية الشعثاء و يديه المتثفنتين قاسيتي الجلد_ كأنه يملكه. لم يكن يتفاعل معي أبدًا الا إذا كان لتوثيق قدمي بالفراش. لم أكن أدري أن أمي زوجة ثانية. كنا نناديه "عم"، وكانت له زوجته وأطفاله. لم تكشف لي أمي الحقيقة الا عندما صرت في الجامعة. تعدد الزوجات مخالف للقانون في كندا الديمقراطية الليبرالية وذلك لم تكن أمي لتأتمننا ونحن أطفال على معلومة بمثل هذه الخطورة. بيد أنها لم تكن تعرف أن حكومتنا اعتادت غض الطرف عن المسلمين معددي الزوجات. ملايين الدولارات من الأموال الحكومية كانت تذهب لدعم أمثال هذا الرجل الذي يخرق القانون. إذا لم يكن رجلٌ قادرًا على إعالة كل زوجاته فإنه يجعلهمَّ تتقدمْنَ بطلب إعانة اجتماعية على أنهن أمهات عازبات وها هي المشكلة قد حُلَّتْ. وبما أن أمي كانت زوجته دينيًّا وليس قانونيًّا فقد كانت إحدى أولئك النساء. فكانت قادرة على الحصول على إعانة اجتماعية بصفة أم عازبة وكانت الدولة تغض الطرف عن أنها متزوجة من هذا الرجل لأن التدخل في الأمر كان ليعتبر ضربًا من ضروب العنصرية أو شيئًا من هذا القبيل.

على الرغم من أنه كان زوج أمي stepfather إلا أنني لم أناده بهذه الصفة أبدًا (صفة الأب الاعتباري). ولم تكن بيننا يوما قط علاقة كتلك التي بين الأب وابنته. كان فقط الرجل الذي يضربنا و (كما عرفت لاحقا) يمارس الجنس من حين لآخر مع أمنا.

كنت أعود أحيانًا من المدرسة فأجده في بيتنا.

"ما الذي فعلته؟". كنت أقول. إذْ بحدود معرفتي كان الغرض الوحيد من زياراته هو ضرب أحدنا.

فكانت أمي ترد ناهرةً لي: "لا شيء. اذهبي والعبي في غرفتك فقط."

مرة ذهبت لاستعمال الحمام، فسمعتهما معًا في غرفة الاستحمام. لم أكترث. إذ آنذاك كنا أنا وأخي أيضا نستحم معًا في ذلك الوقت. لاحقًا وأمام زوجته (أمي) ولسبب لا أتذكره زل لساني بذكر أنهما كانا معًا في غرفة الاستحمام.

أنكر هو وأمي الأمر بشدة قائلين: "ماذا؟ هذا ليس صحيحا!"

أصررت قائلة: "بلى، قد كنتما معًا، وقد سمعتكما كلاكما بداخله." بيد أنهما ظلا مصرين على نحو غير قابل للتفسير على أنني كنت أتوهم. ولم أفهم لماذا.

إنه لشعور غريب أن تعلم أن أمك تكذب. لم أكن أظنها قادرة على ذلك. وظلا مصرين على أني مخطئة وأتوهَّم. في نهاية الأمر وجدت نفسي أوافقُها رغم أن ذلك كان يناقض ما كان ماثلًا أمامي. لم أر ما رأيت ولم أسمع ما سمعت لأنها قالت ما هو بخلافه وعكسه. وكان علي أن أصدقها إذ أنها أمي، بالرغم من كل شيء. وثقت فيها أكثر من نفسي. لذلك رضخت في النهاية واقتنعت أنهما لم يكونا معًا في الحمام. لابد أنني كنت أتوهم.

راودني نفس الشعور عندما أخبرتني أنها سوف تتحدث معه وتطلب منه أن يتوقف عن ضربي. وصدقتها رغم أنه كان يعيد الكرة مباشرة اليوم التالي. كيف كان يعلم إذا فوَّتَ أحدُنا صلاةً؟ لم يكن حتى موجودًا. لسبب ما كان لكلامها هذه القوة للتغلب على الواقع الماثل أمامي.

كنا نعيش حياة أكثر وداعةً بكثير قبل غزوه لبيتنا. كان لدينا حوض سباحة في البناية التي نقطن فيها. كنت قد تعلمت فقط السباحة طفوًا في الماء لكنني كنت ما زلت لم أتقن بعد تحرك السباحة إلى الأمام بتحريك الذراعين. بيد أنني كنت عازمة على تعلم ذلك. كانت لدينا أيضا مساحة للعب في المبنى الذي نسكن فيه، والتي كنت ألعب لساعات فيها. كنت أركب دراجتي وألعب بدمى باربي الخاصة بي مع أصدقائي. كنت أنا وإخوتي نتمتع بحرية كبيرة. كنا أصغر من أن نفهم أن ما ظنناه حرية كان إهمالًا في حقيقة الأمر. كنا نعتقد أن الحرية تعني فقط أن يمكننا البقاء خارج المنزل واللعب قدر ما نشاء. عندما كان كل أصدقائي يعودون إلى بيوتهم لتناول العشاء ولا يتبقى أحدٌ هنالك أحد لكي ألعب معه كنت أصعد السلالم صاعدةً إلى بيتنا. لكنْ لم يكن هنالك قط أيُّ عشاءٍ على طاولتنا دائمًا.

كانت أم صديقي (أو صديقتي) تسأل قائلة: "أليس عليكِ العودة الى بيتك الآن؟".
"كلا. أستطيع البقاء قدر ما أريد."
"متى موعد نومك؟"
"ليس لي موعد نوم"، كنت أجيب بفخرٍ.
و كان صديقي أو صديقتي تجيب: "كم أنتِ محظوظة!"

كانت أمي تقضي معظم يومها تشاهد المسلسلات الاجتماعية وتأكل بذور عباد الشمس (اللب السوري). وكنت أغادر إلى المدرسة وأعود كي أجدها لم تبارح مكانها. وكان الفرق الوحيد هو أن كومة القشور تكون قد ارتفعت. و كانت بين الفينة والأخرى تصرخ عليَّ لكي أغيّرَ لها القناة.

بإدرك متأخر، يرجَّح أنها كانت مكتئبةً. كان والداي قد التقيا في الجامعة في مصر وانتقلا إلى سان فرانسيسكو معًا. أيام الحب والسلام وثقافة الهيبي في سان فرانسيسكو في الستينيات أضرت بزواجهما، فانتقلا الى ڤانكوڤر بكندا، ولكن زواجهما انهار رغم كل شيء.

وجدت نفسها وحيدة في بلد جديد بدون نظام إعالة لها ولأطفالها الثلاثة. كانت تبحث يائسة عن مجتمع يحتضنها ويدعمها، وللأسف قادها هذا البحث إلى المسجد المحلي. هنالك وجدَت ذلك الوحش الذي عرض عليها أن يتزوجها ويلملم شتات ذاتها ويحسِّن من أحوالها ويعيل أطفالها الثلاثة. لابد أنها كانت تشعر بالوحدة والهجران والضياع، ولكونها بدون أي إيمان بأن لها قوة وإرداة كامرأة ولا أي ثقة في أنها تستطيع أن تكون إنسانًا ناجحًا وحدها أو أنها لا تحتاج رجلًا [لتحقيق هذا]، رأت نفسها كائنًا طفيليًّا يبحث عن كائن مضيف يتمسك به. فتمسكت بهذا الرجل الذي كان دون منزلتها (حسب المنظومة الطبقية المصرية) والذي كان يضرب أطفالها، لأنها كانت لا ترى لنفسها خيارًا آخر غير اللامبالاة وقبول ما أمكنها الحصول عليه معتبرةً إياه قدرَها.

في أثناء حالة الاكتئاب والضياع التي كانت تعيشها لابد أن بساطة الإسلام ونظامه المحكم كانا جذابين لها.إنه يقدم نظامًا صارمًا للغاية لدرجة أنه يحدد حتى كيفية قص أظافرك. هنالك ترتيب دقيق تقص به أظافرك تتبعه طريقة دقيقة في كيفية التخلص من قلامات الأظافر تلك. لا قرارات ولا شيء يُترك للفرد ليبت فيه. كل منحى وجزئية من

حياتك محدَّدة لك مسبقًا. مثل ذلك النظام ذي الإحكام العسكري سوف يكون بالنسبة إلى شخصٍ خائفٍ وضائعٍ حالةً من النعمة[١].

غطست برأسها مثل المسيحيين المولودين ولادة جديدة (روحيًّا) الذين "يتركون أنفسهم للرب" ويدعون يسوع إلى "تولي عجلة القيادة". لم تكن تريد أن تكون مسؤولة عن أخذ قرارات. كانت تريد من الله أن يأخذ كل القرارات التي لم تر نفسها مؤهلة لأخذها، و كان في ذلك الكثير من السكينة لها. فلم يكن عليها أن ترجِّح وتوازن بين الخيارات الكثيرة المتاحة لها لتحدد أقوم المسالك التي يجب اتخاذها في أي سيناريو معين. كان كل شيء محددًا مسبقًا لها. كل ما كان عليها هو أن تتبع وتطيع. أن تسير في الطريق الضيق المستقيم الذي يقدمه الدين. يالها من عطية إلهية [بنظرِها]. كانت منتشيةً ثمِلةً بإمكانية النجاح. سمح لها هذا ليس بالتأقلم فحسب في بلد غريب عليها وبدون نظام إعالة أو دعم، بل وأيضًا بالإضافة إلى كل هذا مع ثلاثة أطفال كثيري الجلبة محتاجين للإعالة.

كثيرًا ما أخبرتني بأنها لا تحب الأطفال. كانت تستغرب ولع الآخرين بالرضع وإعجابهم بهم، ولم تكن تفهم ما المثير في الموضوع. كرة ذات لعاب سائل وبكاء كثير؟ هذا ما كان الرضع يمثلون لها. لكن الثقافة التي ترعرعت فيها لم تكن لتسمح لها بخيار عدم إنجاب أطفال. هذا ما كان متوقَّعًا منها (من جانب المجتمع والأسرة). لم أحس يومًا أنها أرادت أيًّا منا أو أنها كانت تحمل ذرة من الأمومة في كل كيانها. ثقافتها أيضًا جعلت من المستحيل أن يكون لها أي سلطان على حياتها. للأسف كثيرًا ما تكون الأمهات في الثقافات التي بها تعدد الزوجات (الميسوجينية) مؤذِيات قاسيات على بناتهن. إذ أنه لا سلطة لها إلا عليهن وهو مجال السلطة الوحيد المقبول لها أن تمارسه. كان عدم اهتمامها بالأطفال _حتى أطفالها_ هو ما سمح لها بأن تترك أخي وأختي في السعودية لتربيهما عائلة زوجها التي كانت متغربة مقيمة هناك. قضى أخي وأختي سنتين في بيت جدَّيَّ ثم حملت أمي بي.

كما يبدو، في محاولة يائسة لمنع أبي من تركها توقفت أمي خلسةً عن حبوب منع الحمل. عندما كان على وشك أن يتركها أعلمته أنها حامل مجددًا (بي أنا) أملًا في أن يمنعه ذلك من تركها كما منعه ذلك في السابق. لكنه لم يهتم هذه المرة وتركها على الرغم من ذلك. فشلت في أداء مهمتي الوحيدة التي أُحْضِرْتُ إلى هذا العالم لأجلها. كنت بلا فائدة وزائدة عن الحاجة وأحد الأضرار الجانبية أو التبعية.

ربما اكتشف أبي بعد زواج متعثر كافح فيه لعشر سنوات في آخر الأمر أنها امرأة أنانية ومتلاعبة. ربما قرر أن ينقذ نفسه ولذلك تركها وتزوج ثانية وحَظِيَ بثلاثة أطفال آخرين. وتُرِكْنا لكي تربِّينا امرأة نرجسية تسمح لوحش بأن يدخل في حياتنا لأنه يخدم حاجتها.

كثيرًا ما كنت أحلم بأن يأتي أبي لينقذني رغم أنني لم أعرفه في الحقيقة أبدًا. كان طلاق والدَيَّ قبل عيد ميلادي الثاني. وكان قبل أن يتزوج ثانية ويحظَى بثلاثة أطفال جدد يأتي ليزورنا دوريًّا. كان يأخذنا إلى ماكدونالدز وإلى حديقة الأسماك. أذكر أنه أخذني مرة إلى بيت خليلته وتركني ألعب بعرائسها الروسية. لكنه لم يكن بالنسبة لي أبًا أبدًا. كان

---

[١] تعبير إنچليزي وثقافة اللغة الإنچليزية والغربية مليئة بالتعابير ذات الأصل المسيحي واليهودي والكتابي عمومًا بطبيعة الحال. وهي تعني حرفيًّا: الحالَة التي يَعتقد مَسيحيّ مُتَدَيِّن أنّه وَصلها حيث أَنّ ذُنوبه قد غُفِرت وأَنّه سيَدخل الجَنَّة، وبتعريف آخر: عمل الله الذي يهب أعظم عطاء للبشر. لكن المعنى هنا إنساني عام وليس مسيحيًّا أو لاهوتيًّا/ دينيًّا.

من السهل على أمي أن تختلق لنا حكايات حول شره لأنه لم يكن حاضرًا قط كي يدافع عن نفسه، ولم يكن موجودًا قط ليدحض ادعاءاتها. لقد رأيتُه خلال حياتي وأراه بمعدل مرة كل عشر سنوات.

لكوني بدون أب ينجدني كنت أتخيل أنني متبناة و أن لي عائلة حقيقية في مكان ما. مكاني الطبيعي الذي لا أحس فيه أنني العار أو النشاز الغريبة في العائلة. وأني إلى أن أجتمع بهم ليس لدي خيار إلا أن أتحمل هذا الرجل المقيت الذي تزوجته أمي والذي يصبح بمرور الأيام جزءًا لا يتجزأ من حياتي أكثر فأكثر. كان علي تحمل كل ضروب التعنيف والضرب أو الإهانات التي يرتئي أن يُنزلها بي في أي يوم.

من الأشياء الأولى التي فعلها تحطيم كل أشرطة أمي الموسيقية كلها وتكسير مشغِّل الأشرطة. لقد كسر أشرطة هانك وليامز و دولي بارتون و فات ألبرت وكيني رودجرز بحنقٍ همجيٍّ ونحن ننظر مستغربين. لماذا لم توقفه أمي؟ لماذا تسمح لهذا الرجل بتكسير أشيائها؟ كانت تقف بخنوعٍ جانبًا. كانت تصير امرأة مختلفة للغاية في وجوده، فتصبح فجأة وديعة وهادئة ومتقبلة كل شيء على نحوٍ لا يُصدَّق. كانت هي كل من لدي ليحميني ولكنها لم تكن كالمرأة العجيبة الخارقة في التلفزيون. فهمت في تلك اللحظة أنها لن تنهض وتقف معي أبدًا. وأنها لن تدافع عني ضد عنفه أبدًا. إذْ أنها لم تدافع حتى عن أشرطتها.

كان يحثنا على الاشتراك معه في التكسير لكن لم أجد في نفسي رغبة في تكسير الألبومات. لم أدر في البداية أن تلك كانت أولى طبقات الخرسانة الإسلامية. لم تكن تلك الطبقة قد ترسخت بعد ومن ثَمَّ لم أجد حرجًا لأتردَّدَ قبل طرح السؤال. فالتقطت الأجزاء المحطمة من شريط بيل كوسبي الخاص بألبوم "Stand-up" وسألت أمي عن سبب تكسيره اياها. فأجابت أمي: "لأن هذه كلها حرام!".

حرام. كم ستتغوَّل هذه الكلمة لكي تثير حنقي. إلى اليوم يشق علي أن أمنع عن نفسي أي شيء بسبب السنوات التي حرمت فيها من كل شيء تقريبًا.

مصر

قبل أن تشعر بحرارة القاهرة، فإنك تشم رائحتها، رائحة الغبار مع عطن خفيف ورائحة صخور محترقة مع نفحة من ريح مياه الصرف الصحي. انتقلت بنا أمي من كندا إلى مصر عندما كنت في منتصف سنتي الثانية من الدراسة دون إنذار أو إشعار. بل أظنها لم تر لنا حاجة في أن نعلم أصلًا. أظنها كانت ترى أننا ليس لنا إلا أنْ نسير خلفها كفراخ البط المتبخترة وراء أمها لكننا في النهاية فهمنا ما الذي يحدث.

رغم ذلك فقد كان أفضل شيء في ذلك أننا كنا قد تحررنا من "العم". كما هربت من رعب مدرسة السنة الدراسية الثانية، السيدة نيهولت التي _بحسب ما زُعِمَ عنها_ ألقت على طفل شقيّ يومًا طاولة. لم تكن لي معها مشكلة لكنني كنت أحبس أنفاسي لأنك لا تدري ما الذي قد يغضب الكبار أبدًا.

اتضح لي أن مصر ممتعة، خاصة لأنني وجدت الكثير من الأطفال أقاربي لألعب معهم. لم يطلب مني أحد قط أن أصلي، ولا طلب مني أحد قط أن أسمِّع له (أتلو حفظًا) أي سورة. كنا نحتشد معًا في الليل على الأرض في ما يشابه أكياس النوم المرتجَلة المصنوعة من عدة بطانيات. تبولت في فراشي ليلةً واحدةً فقط. بعد ذلك، جعلني الإحراج أتعلم التحكم في مثانتي. بيد أنني بقيت أمتص ابهامي. بعد إطفاء الأنوار كنت أختبئ تحت البطانية وأدس إبهامي في فمي وأهدهد نفسي ببطئ ألى أن يأتيني النوم.

استيقظت على صوت الصياح المزعج للآذان، نداء الصلاة الذي يصدح من مكبرات الصوت من على المساجد من كل الاتجاهات، آخر آثار من برد الليل، وتتخلل أنفك الرائحة. كان لكل بناية مزبلة خاصة بها. و كان يلقى بالقمامة من الشبابيك على كومة قمامة التي في الشارع فقط. كانت الصراصير والقطط السائبة كثيرة كعدد الذباب. كنا نعيش في قلب القاهرة المكتظة حارة الجو [في الصيف] والتي تغمرك برائحة القمامة أو الصرف الصحي أو كليهما معًا.
بيد أنني لم أشتك من أيٍّ من ذلك. لم تزعجني الا آلام مغص بطني المستمرة.

لم تكن أمي متعاطفة معي بتاتًا.

"هلا توقفتِ عن التشكِّي؟ تشتكين كل يوم من بطنك!."

فقررت الاحتفاظ بالأمر لنفسي ولوقت طويل للغاية إلى أن نسيت كيفية الحياة بدون ألم. إنني أعلم الآن أني كانت قد أصابتني جرثومة معدة في مصر والتي عانيت من أعراضها يوميًّا. لم أُشَخَّصْ لأكثر من ثلاثين سنة. لم يخطر على بال الأطباء في كندا أن يفحصوني من جهة هذه البكتيريا بالتحديد لأنها لا توجد إلا عند الذين ينشؤون في الدول النامية. وكانت مصر في أوائل الثمانينيات ينطبق عليها ذلك تمامًا.
رغم ذلك فقد كان ليكون ثمنًا يسيرًا أدفعُه، فقد كنتُ لِأتحمَّلَ مغص المعدة بسرور لو أن المقابل ألا أرى وجه "عمي" القبيح. كنتُ متحمِّسةً عندما قيل لي أننا سنذهب لنعيش في مصر بعيدًا للغاية عنه بحيث لا يمكن لأمي أن تدعُوَهُ. كنت أكاد أطير من الفرحة لأني لن يكون عليَّ أن أراه مجدَّدًا أبدًا.

فُصِّلَ لي زي مدرسي واشترينا كتبًا وأقلامًا. كنت قلقةً من حاجز اللغة والتخلف عن بقية التلاميذ لأنني لم أكن أتكلم العربية جيدًا بخلاف كل التلاميذ الآخرين. كنت قلقةً من أن السنة الدراسية قد بدأت بالفعل منذ أشهر وكنت لأكافح وأُعْنى لكي ألحق ببقية التلاميذ. لكن أقاربي طمأنوني بأنهم سوف يساعدونني وبأنه ليس هناك داعٍ لأن أقلق.

وبينما كنت أعد نفسي نفسيًا لدخول مدرسة حكومية مصرية انقلبت الأمور وعادت كلها كما كانت. قررت أمي ترك مصر دون نقاش أو تفسير، وفجأة وجدنا أنفسنا نستقل الطائرة عائدين الى كندا. كنت أكثر من محبطة.

تذمرتُ منتحِبةً قائلةً: "لكننا بعنا كل أثاثنا والتلفزيون"

"سوف نشتري غيرها"، قالت أمي وهي منزعجة من أن عليها تجيب على تساؤل طفلة غير مؤدبة. كان من المفترض علي أن أغلق فمي وأخضع كبقية اخوتي.

قلت لها: "لكن أين سوف نعيش؟"
فأجابت: "سوف نمكث مع العم منير الى أن نجد مكانًا خاصًا بنا"
توقف قلبي عن الخفقان.

"لا! أمي أرجوك! لا!"، قلت لها وأنا أبكي بلا سيطرة و الدموع تنهمر على خدي. وقد تفاجأت أن إخوتي انضموا إلي في ثورتي. في العادة كانت لتصفعني لكننا كنا أكثر منها عددًا هذه المرة، ولذلك جرَّبَتْ تكتيكًا جديدًا.

"أعدكم أن هذه المرة ستكون لوقت قصير فقط. لن نمكث (معه) لوقت طويل".
توسلنا كلنا يائسين: "أتعديننا؟"
"نعم. لا تقلقوا. سوف نعيش في منزلنا الخاص بنا ما أن نقدر على ذلك".

كذبت علي أمي الكثير الكثير من الأكاذيب مر السنين ،لكن هذه الكذبة لا تزال تؤلمني أكثر من غيرها. لا أستطيع أن فهم _وقد صرت أمًّا الآن_ كيف لأم أن تتخذ قرارًا يرعب كل أطفالها بهذه الشدة. كانت تعلم أننا نكرهه وتعلم السبب وكانت تعلم أنها تكذب علينا ولكنها لم تكترث.

في مصر كانت أخواتها وأقاربها ضمن العائلة الكبيرة يدعمونها. لم تكن وحيدة. لكنهن كن جميعًا متزوجات فأحسَّتْ بأنها أدنى منهنَّ. كان بإمكانها أن تنقذنا من أذى منير، وكنا نستطيع البقاء في مصر. لكنها كانت مطلقة وكانت ترى نفسها عديمة القيمة إن لم يكن لها رجل تُلْحَق به، حتى ولو كان ذلك الرجل عنيفًا ويضرب ويعذب أطفالها. وذلك فضلت أن نعيش كلنا في بؤس طالما أن ذلك يؤدي إلى تمكينها من الالتحاق برجل.

وهكذا انتقلنا الى بدروم (قبو) خاص به ذي غرفة واحدة غير مكتملة التشطيب في كولومبيا البريطانية في كندا. لم نحس به كمنزلٍ. كان خليطًا غريبًا غير متجانس بين غرفة المعيشة وغرفة الأكل وغرفة النوم والمخزن. لم يكن له ترخيص قانوني لكي ينتهي من تشطيب القبو ومن ثَمَّ كان علينا أن نعيش في مكان لا يصلح للعيش. كان نظام السكن يُقصَد به التشديد على التراتبية الطبقية. فقد عاش منير مع زوجته الحقيقية وأطفاله الحقيقيين في الطابق العلوي. بينما أُنْزِلَتْ أمي لكونها الزوجة الثانية غير قانونية الأدنى مكانةً في مرتبة أدنى في القبو مع أطفالها.

عاد أبناؤه من أونتاريو بينما كنا في مصر. كان ابنه الأكبر مولَعًا بالمخدرات وكانت زوجته السابقة تخشى تأثيره السيء على الطفلين الآخرين، ولذلك أرسلتهم كلهم لكي يعيشوا مع أبيهم وانتقلت هي إلى مصر. بعض الناس يظلون ينجبون الأطفال ويتركونهم هنا وهناك في كل مكان كأنهم أشياء وليسوا بشرًا. تركت أمي أخي وأختي في السعودية، وهجر أبي ثلاثتنا (أبناءَه)، وترك "عمي" أبناءه، والآن تترك زوجته السابقة أطفالهما الثلاثة. لا أدري كيف يقدر الناس على فعل هذا. لكن يبدو أنها قصة شائعة في حياتي.

لم يدم مكوث ابنه الأكبر لوقت طويل إذ ما لبث وأن هرب و استقل قطارًا عائدًا إلى أونتاريو. عاد الى خِلْطَتِه[١] القديمة وما لبث بعدئذٍ أن مات بجرعة زائدة من المخدرات. لم أقابله إلا مراتٍ قلائلَ لكن ذلك كان كافيًا كي أعتبر وأتجنب المخدرات. أما الابن والابنة الآخران فقد كبرا معنا. كانت ذات اثنتي عشر سنة وكان ذا تسعة.

الزوجة الحالية (رقم ١) هي فرنسية-كندية أسلمت ومثلي كانت غير سعيدة بمنظومة عيشنا. لا أدري كيف تحملت الأمر أو كيف قبلت بأن يحضر زوجها زوجة ثانية وأطفالها الثلاثة ليعيشوا في قبوهم.

كان تاريخها يفسر فقط جزءًا من الأمر. فقد ترعرعت على جزيرة صغيرة من أعمال كيبيك[٢] في عائلة كاثوليكية. ولكوني قابلت بعض الأشخاص من نفس تلك الجزيرة علِمْتُ أن الزمن كأنه توقف عندهم. لا تزال النساء هناك يُعَامَلْنَ على أنهن في مرتبة أدنى وكلمة النسوية كلمة سيئة عندهم. إذن فهي كَبُرَتْ في محيط تعلمت فيه أن الرجال أسيادٌ والنساء ممتلكات، لذلك كان انتقالها الى الإسلام مجرد نقلة بسيطة. لم يكن لديها حظ في الأمور العاطفية واعتقد والداها أنها سوف تصير راهبة على الأرجح. واستعدادًا لحياة الراهبات عملت كممرضة (ليس كممرضة حقيقية بل كانت "تغسل مباول التبول في الفراش (نونيات الأسِرَّة) فقط" كما كانت تذكر أمي بتحمس). التقت في المستشفى الذي عمِلَتْ فيه بحارس أمن مصري متزوج وله ثلاثة أطفال، لكنهما بدءا علاقة بالرغم من ذلك. لم؟ لا أحد يعلم. هل كان فقط متحمسا للحصول على "اللحم الأبيض"؟ هل كانت فقط متحمسة للحصول على انتباه رجل، أي رجل؟ في النهاية ترك زوجته الأولى في أونتاريو وانتقل إلى كولومبيا البريطانية مع زوجته الجديدة التي أسلمت. كان هذا تقريبًا في نفس الفترة التي ترك فيها أبي زوجته وأبناءه الثلاثة _أي نحن_ في كولومبيا البريطانية وانتقل إلى كيبيك. كم كانت أمي تتقن اختيار الرجال المناسبين حقًّا!

---

[١] خِلْطَةُ الرجل: أصدقاؤه ورفاقه.

[٢] مقاطعة كيبك (بالفرنسية: Québec) أكبر المقاطعات الكندية مساحة بعد نونافوت، عاصمتها مدينة كيبك وأهم مدنها مدينة مونتريال. تقع شرق كندا بين مقاطعة أونتاريو ومقاطعات المحيط الأطلسي. لها حدود مشتركة من الجنوب مع الولايات المتحدة ويعبرها نهر مهم يسمى نهر سانت لورانس الذي يمتد من المحيط الأطلسي. والكلام هنا عن جزيرة صغيرة تابعة لمقاطعة كيبك.

فازت إذن تلك التي أسلمت. ترك زوجته وأبناءه الثلاثة في أونتاريو وانتقل معها الى كولومبيا البريطانية. فازت بجائزتها وكانت تنتقل معه من مكان الى آخر في البلد. لكن الأمور لم تسر كما خُطِّطَ لها. إذ رغمَ أنها استطاعت إخراج زوجته الأولى من حياته فها هي الآن لديها ليس فقط أبناؤه الثلاثة، بل وأيضًا زوجة جديدة (ثالثة) وأبناؤها الثلاثة ليكون عليها أن تنافسَهم أيضًا.

كانت تلقي بجام إحباطها ووطأة غضبها علينا. كانت الغسالة والمجفف في قلب القبو وكانت تتعمد إرسال رسالة باقتحامها المكان ورطمها الباب في أثناء فتحها له لتغسل الملابس وهو ما اعتقدتُ دائمًا أنه غريب. لكنني الآن أفهم أنها كانت فقط تتأكد من أننا نعرف منزلتنا وأننا لسنا إلا ديدانًا تقطن القبو.

لفترة طويلة ظللتُ أذكر أمي على نحو متكررٍ بوعدها:
"قلتِ أننا لن نمكث هنا طويلًا. لقد وعدتنا".
"نعم. قريبًا".

في النهاية تعبت من التمثيل التحزيري، فقالت:
"أما زلت متمسكة بذلك؟ لم لا تزالين تسألينني هذا بعد كل هذه السنين؟"

لأنني كنت غبية. لأنني أحببت أمي حبًا غير مشروط. ووثقتُ بها على نحو مطلق رغم أنها لم تمنحني أي سبب لذلك. كنت لا أزال آمل أن غريزة الأمومة الطبيعية فيها ستستيقظ فجأةً فتقرر حماية أطفالها. ربما لأني لم يكن لدي خيار آخر. كانت هي كل ما لدي.

الشرف

في منزل يعج بالأطفال كان على "الآباء" الثلاثة أن يجدوا طريقة يتحكمون بها بنا. كان لنا كلنا برنامج علينا أن نلتزم به. كان لدينا "ملتقى عائلي" أسبوعي نساءَل فيه ونُعاقَب على بعض أفعالنا. كانوا يحاضروننا حول بعض الخروقات ثم يقضون بقية الوقت في توبيخنا على أمور كثيرة.

كنتُ أكره تلك اللقاءات العائلية كثيراً. يا لها من مسرحية هزلية. لم نكن عائلة. عندما كنا نُسْتَدْعَى كنتُ أجر نفسي جرًّا عبر السلالم، ثم كنا خمستنا كلنا نجلس على الأرض لأن الكبار فقط كان يحق لهم الجلوس على الكراسي والأرائك. و كأن الفارق في موازين القوى لم يكن واضحًا وبصفة يومية، فكان يؤكَّد على ذلك يوميًّا. كانت مؤخرتي تصاب بالخدر وظهري يؤلمني ورقبتي توجعني من كثرة النظر إلى الأعلى إليهم وهم فوقي.

كان منير يقود هذه الاجتماعات في العادة لكن أمي كانت تضيف أحيانًا خيانتها اللعينةَ لنا [بالإبلاغ عنا]. فإذا فوَّتَ أحدنا صلاةً حرصَتْ على ذكر ذلك. كانت زوجته في العادة تلتزم الصمت إلا اذا كان لديها شيء لتقوله بخصوص طفليه المتبقيين اللذَيْنِ كانا يعيشان معها في الطابق العلوي. نادرًا ما تحدثت عنا نحن الأطفال الثلاثة الذين يقطنون القبو. وكانت الاجتماعات تنتهي على نحو ثابت دون استثناء بجلد أحدنا. لعل هذه كانت نسختهم من ساحة الجلد وقطع الرقاب والأيدي في السعودية. كان هدفهم الإهانة العلنية لمرتكب الخطإ.

بعد هذه الاجتماعات كنا نُصْرَف أحيانًا لننظر في برامجنا لنرى ما علينا أن نكونه وما علينا أن نفعله. وفي مرات أخرى كانت تنتهي اجتماعاتنا بوجبة نتناولها معًا. كانت زوجته هي التي تطهو في العادة لأن أمي لم تكن تجيد الطبخ. ثم كنا نحن البنات الثلاثة ننظف. كانت إحدانا تنظف وتمسح الطاولة، وتغسل الأخرى الصحون بينما تغسل الثالثة الملابس. كنا نُدَرَّبُ على أن نكون زوجات صالحات. في النهاية صرنا نحن أيضًا اللاتي نطبخ الطعام. لاحقًا في السنة الثامنة من المدرسة عندما درستُ مادة الطبخ في المدرسة تفوقتُ فيها بسهولة. كنت محترفة، إذْ كنت أطبخ لثمانية أشخاص كل ليلة وعلى مدى سنوات بحلول ذلك الوقت.

رغم ذلك، فلم يكن هذا إلا جزءًا من التدريب. أن تكوني فتاة في بيت مسلم هو قدر أسوء من الجحيم. فهم يعلمونك أن تحسي بالعار من كل شيء تفعلينه، كل شيء هو أنتِ.

"لا تضحكي هكذا. أنتِ فتاة!"

"لا تجلسي هكذا. أنتِ فتاة!"

"أخفضي من صوتك. أنتِ فتاة!"

"أخفضي بصرك. أنتِ فتاة!"

لا يُسْمَحُ للفتياتِ أبدًا بالنظر إلى رجلٍ مباشَرةً في عينيه. يجب علينا أن نبقي على رؤوسنا مخفوضة كالكلاب كي لا ننسى مكانتنا الأدنى. هذا كان بلا نهايةٍ. كانت كلمة "عار" تقال لي في وسوسةٍ صارخةٍ آلافَ المراتِ طوالَ طفولتي. "عيب! عيب!" هي العبارة الوحيدة التي كنت أسمعها أكثر من "حرام".

في كل ثقافةٍ أيًّا ما تكون _لو كان الإسلام هو الدين السائد_ توجد مرادفات لكلمة "عيب" يبصق بها على الفتيات. فيقال للصوماليات "كيب" و "شيشهود" و للتركيات "آيب" و للماليزيات "عَيْب" و للباكستانيات "هييا" إلخ. تسمع كل الفتيات المسلمات هذه العبارات لأن شرف العائلات يقبَعُ عند فتيات الأسرة وعلى وجه التحديد بين أفخاذهن.

يقاس شرف الرجل وعائلته بالفتيات. ويزيد شرفه بازدياد سيطرته على زوجته وبناته. و من واجبه الحرص على حراسة شرف عائلته بالحرص على أن نساء الأسرة يلبسن ملابس متواضعة محتشمة ويلبسن الخمار (الحجاب) وأن يتصرفْنَ "بشرفٍ" بإبقاء أصواتهن خفيضةً وأبصارهن اتجاه الأرض وبأن يكُنَ محتشماتٍ. أهم مظاهر شرف الفتاة هو عذريتها، ويجب الحفاظ عليها مهما كان الثمن. فلا يُسْمَح للفتيات بركوب الدراجات أو الخيل أو ممارسة الرياضة كي لا يتمزق غشاء بكارتها. ويجب على العائلات أن تراقب الفتيات بحرص كي لا يلوِّثْنَ شرف العائلة بفقدان عذريتهن. أما إذا فعلت الفتاة ذلك برغبتها أو بسبب تعرضها للاغتصاب فلا يهم وغير ذي صلةٍ. الهدف هو التأكد من أن "ختمها" لا يُفَضُّ _مثل غطاء علبة الڤيتامين أو الزبادي_ والحرص على أن غطاء "علبة الزبادي" سليم قبل تسليم الفتاة إلى زوجها.

وإذا لوثت فتاة شرف العائلة بلبسها لباسًا غربيًّا للغاية أو غير إسلامي على نحوٍ كافٍ، أو بمصادقتها ذكورًا، أو فرط نشاطها، أو أي شيء آخر عادي، فإنها يمكن أن تدفع حياتها ثمنًا لهذا التمرد. إنَّ العنف لأجل الشرف و/ أو القتل لأجل الشرف شيئان منتشران على نحوٍ مرعبٍ في المجتمعات الاسلامية عبر أنحاء العالم. وتوجد آلاف الحالات سنويًّا. كما توجد أدلة قوية على أن عدد الحالات المبلغ عنه ليس إلا غيضًا من فيض لا يُبَلَّغ عنه. كثيرًا جدًّا ما تبلِّغُ العائلاتُ بأن فتياتها هرَبْتَ أو تصر عائلاتُهنَّ أنهن انتحَرْنَ.

لا تقتصر هذه الحالات على الدول ذات الغالبية المسلمة. توجد حالات للعنف و/ أو القتل من أجل الشرف في كل أنحاء أورُبا. فقد قتل رجل مصري بالرصاص ابنتيه في تكساس، وفي نيويورك قطع باكستاني رأس امرأته. هذه القصص مخيفة وكثيرة لا حصرَ لها، وتعيش الفتيات في خوف دائم. يُصْرَخُ علينا بكلمة "عيب" في مختلف اللغات لتذكيرنا بأننا إن لم نخضع للنظام ونطيع الأوامر ونحرص على شرف العائلة فسوف نُزَوَّجُ بالإكراه أو حتى ما هو أسوء.

بيد أن الفتيان لا يخضعون لمثل هذه القواعد في عائلاتهم. وبالكاد يسمعون تلك الكلمة تُرْمَى عليهم، ولا يساعدون في أي أعمال منزلية. أذكر عندما بدأت في رفض غسل ملابس أخي. كنت مراهقةً وكان أكبر مني. فأبلَغَ عني، وصارت مشكلة كبيرة. لكن كان علي أن أقاوم.

"أيعجز عن الضغط على الأزرار؟ أيمنعه عضوه الذكري من معرفة كيفية تشغيل قرص الإدارة؟"

وكما لك أن تتوقع، أنا من وقعت في ورطة بسبب طريقة كلامي. لكنني لم أهتم ولم أغسل ملابسه بعد ذلك قط.

بالمقابل كانت أختي كآلة بلا عقل. كانت تطيع الأوامر بما في ذلك غسل ملابس أخي. لم تتشكك أو تسأل عن شيء أو تقاوم أو حتى تغمغم بالتعبير عن ضيقها بصوت غير مسموع. قبلت تمامًا دورها كشاة في القطيع. وبينما وجدتُ سيل القواعد المستمر خانقًا ومحاصِرًا، وَجَدَتْه هي مريحًا ومطمئِنًا للغاية. وكانت ممتنة لأنه ليس عليها أن تفكر بنفسها

وكانت مرتاحة لتتبع الطريق الذي رُسِمَ لها بوضوحٍ. بالنسبة إليها كان هذا يجعل حياتها بسيطةً وسهلةً. بالتأكيد، كانت حياتها مفرغة من أي روح أو وخالية من السعادة أو الحب أو الغرام والشهوة أو الفضول، لكن ذلك كان يعني أيضا أنها خالية من الحزن أو خيبة الأمل أو الإحباط أو التحيُّر. كانت مستعدة للتخلي عن كل الإيجابيات طالما أن ذلك يعني أنها سوف يمكنها تجنب كل السلبيات. أرادت لحياتها أن تتهادى ببطئ على الطريق المرسوم لها إلى أن تصل الى الموت. هدفها الرئيسي أن تتفادى الاحتراق في نار جهنم الى الأبد. لم تجذبها الجنة بل خافت من الجحيم. وكان ذلك دافعها. كانت سعيدة لاتباعها الطريق الذي يقيها جهنم. كنت بالتأكيد أنا أيضًا خائفة من جهنم، لكنني لم أنجح بنفس نجاحها في إطفاء عقلي وإلغائه. كنت أقاوم باستمرارٍ وانتظامٍ أو على الأقل أتقد تمردًا في قرارة نفسي وأغلي بداخلي.

ولأنني كنت جد مختلفة فهمت منذ صغري أن أختي ليست حليفةً لي. كانت تتشنج إذا قلت أي شيء أمامها وكنت أعرف جيدًا أنها سوف تشي بي. ورغم أن أختي وابنة "عمي" كانتا أكثر تقاربًا عمريًّا، الا أني أنا وابنته كنا أكثر تقاربًا عاطفيًّا إلى بعضنا البعض مما كان بيني وبين أختي. لم نكن نثق ببعضنا البعض على نحوٍ تامٍّ لكننا كنا ننفس عن كبتنا وإحباطاتنا عبر تبادل النظرات أو برفع أعيننا إلى أعلى[١] من حين إلى حين. لكن الآباء كانوا حريصين على عدم السماح بتحالفاتٍ بيننا. فكانوا غالبًا ما يبثون الفرقة والمشاكل بيننا. وإنه لمن الغريب على نحو كافٍ أن سلوكهم على قسوته وتقلبه الدائم كان الشيء الثابت الوحيد في حياتنا وقد أبقانا تحت السيطرة.

[١] علامةً على الانزعاج أو الغضب أو عدم التصديق، وهو تعبير جسدي عالمي تقريبًا يوجد في كل الثقافات أو أغلبها.

سانتا كلوز أو بابا نويل الخفي

انتهى بي الأمر أنضم متخلِّفة إلى الصف الثالث في المدرسة الابتدائية المحلية، ولأني فاتتني نهاية الصف الثاني وبداية الصف الثالث فقد تعثرتُ في الرياضيات. استطعت التدارك في كل المواد الأخرى، لكن لأن الرياضيات من نوع المواد التي لها منهج تراكمي مترابط كالسلسلة، فقد صارت لدي فجوات في تعلُّمي للرياضيات.

أنهيت السنة الثالثة وانتقلت الى إلصف الرابع. كانت هذه السنةَ التي بدأت فيها أشعر بالارتياح أخيرًا في مدرستي الجديدة. دعتني إحدى الفتيات اللطيفات للمشاركة في سانتا الخفي[١] وكنت أطير فرحًا لانضمامي لصديقاتها الرائعات.

عدت الى البيت وأخبرت أمي بالخبر المثير.

"لن أشتري أي شيء لتلك الكافرة ولعيدها الكافر الغبي"، قالت ذلك وهي تصرف نظرها لبرهة قصيرة عن شاشة التلفزيون.

سألتها: "هل لي أن آخذ معي شيئًا من المنزل؟ هل نستطيع على الأقل شراء ورق لف الهدايا؟" وقفتُ فاركةً يدَيَّ وكلي أمل ورجاء.

"لما تحبين الكفار إلى هذه الدرجة؟" انفجرت صائحة. "ألا تدرين أن مصادقتهم حرام؟ أتريدين أن يلعنك الله؟ الله لا يحب من يحبون أعداءه". ثم استدارت مرة أخرى لمشاهدة التلفزيون.

توقف قلبي عن الخفقان إذ علمت أنه لا مجال لأن تغير رأيها. أردت منها فقط ولمرة واحدة أن تولي اهتمامها لما هو مهم لي. أردت منها فقط أن تنحّي دينها لمرة واحدة جانبًا. لكنني علمت أن ذلك لن يحدث أبدًا، وأن دينها سوف يظل دائمًا أكثر الأشياء أهميةً لها وله السيادة، مهما كان البؤس الذي يستلزم ذلك الدينُ أنْ أعيشَ فيه وأتحملَه.

كنت أعرف عن آيات القرآن التي تحرم على المسلمين مصادقة اليهود والمسيحيين وكل غير المؤمنين. فيقول القرآن في الآية ٥١ من سورة المائدة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}. فما الذي يمكن أن يكون أسوء من أن يعتبرك الله من الظالمين لأنك تصادقهم؟ لكنني مع ذلك أردت أن أكون صديقتهم.

خلال بضعة أيام التي تسبق يوم تبادُلِ الهدايا، كان كل أصدقائي يتحدثون عما اشتروه من هدايا. و كلما ازدادت حماستُهم أحسَسْتُ بألمٍ وحزنٍ في داخلي.

[١] تقليد حديث في عيد الكريسماس الغربي حيث يقترع شخص أو مجموعة أشخاص على اختيار شخص أو أشخاص لإهدائه هدية أو لإهدائهم هدايا، على أن تظل هوية معطي الهدية سرية. وقد حول الناس الفكرة تدريجيًّا إلى ما يعرف اليوم بالـSecret Santa أو سانتا السري، حيث يتبادلون الهدايا بسرية في فترة عيد الميلاد.

"ذلك لأنك ضعيفة. فلو كنت قوية لكنتِ ذهبتِ وقلتِ لهنَّ أنك لا تريدين المشاركة بأي شيء في سخافتهم الكُفرِيَّة.". هذا ما قالته أمي وقد كانت غير عابئة بتوسلي.

بكَيْتُ يومَ التهادي. شعرت بالإحراج والإذلال لأن أمي تفعل هذا بي. لم أكن لأتعافى قط من حرج أن أكون الطفلة الوحيدة التي لا تحمل هدية لصديقتها.

قبل تلك اللحظة كنت قد استطعت أن أتجاوز بنجاحٍ مشاكل الأعياد[١]. في عيد الفصح زينت البيض في مدرستنا بعناية شديدة وكنت أتحدث مع أصدقائي دون حرج على نحو خيالي عن البحث عن بيض عيد الفصح[٢]. وفي أثناء عيد الهالوين اختلقتُ قصصًا عن زيي التنكري وكل الحلوى التي حصلت عليها. في عيد الميلاد (الكريسماس) السابق كنت قد تمكنت من الاستماع إلى ما سرده الأطفال الآخرون كهدايا لهم وكررته عندما سألوني عما حصلت عليه من هدايا.
"أوه؟ وأنا أيضًا حصلت على جوارب وبيجاما وقميص من صوف (سويتر)..."

لكن في النهاية انكشف أمري. كنت كاذبة. الحقيقة هي أن سانتا كان دائما يتجاهل دارنا. جلست في الدائرة وأنا أمسك دمية قطة من المخمل القطيفة منحتني اياها صديقتي، شاعرة بأن داخلي به حمم بركانية مصهورة.

"إنه ظريف جدًّا. كدت أحتفظ به لنفسي". قالت صديقتي مقهقهةً[٣].
"فلتحتفظي به إذن يا كارا. لا بأس"، ناشدتُها.
"لا، هاهاها بالتأكيد لا. أريد ما أحضرْتِه لي!"

كانت كل الأعين علي في الدائرة وأنا أشرح لها أنه لا يُسمح لي بشراء أي هدية لها وأن أمي ما كانت لتسمحَ لي بذلك. كان الجميع في حيرة وعلى الأرجح ظنَنَّ أني أكذب. لم يكن الأمر منطقيًّا بالنسبة لهنَّ. فقدَّمْنَ لي نصائح لي من قبيل "لم لا تقولين لها..." أو "كيف لا يمكنك...". كن فتيات لطيفات بريئات لا خبرة لهن بصعوبة محاولة التحدث بالمنطق مع غولة. ابتسمت وأومأت برأسي بأدب وأنا أستمع الى اقتراحاتهن.

"نعم سأجرب قول ذلك"، قلتُ ذلك وأنا أعرف أنني لن أتجرأ أبدًا على ذلك.

أقدر حقًّا حقيقة أن صديقاتي كن يحاولن مساعدتي. لقد أحببتهن دائما رغم أنهن كافرات. علمتُ أني لم يكن يجوز لي أن أحبهن لكنني أحببتهن على الرغم من ذلك. وكيف لي أن لا أحبهن وهن يحطنني باللطف والحب والطرافة؟ كنت أستمتع بالمدرسة وأستمتع برفقتهن. كنت أحب الحياة المبهجة الخالية من الهموم التي يعيشها غير المسلمين. لم يكن يقضين اليوم متحدثات عن الأشياء السيئة التي قد نفعلها دون قصد والتي من شأنها أن ترسلنا مباشرة الى جهنم. كنا

---

[١] الغربية المسيحية بطبيعة الحال- المترجم.
[٢] بيض الفصح هو البيض المزيّن الذي يُلوَّن ضمن تقاليد الاحتفال بعيد الفصح. تقليديًّا بيض عيد الفصح بيض دجاج يُزَخْرَف ويُلَوَّن بألوان زاهية، ولدى عموم المصريين على اختلاف أديانهم عادة شبيهة في عيد شم النسيم، ما عدا سلفيي ومتشددي المصريين المسلمين. ولعبة البحث عن بيض عيد الفصح في دول الغرب لعبة يُخبَّأ فيها البيض الملون عن الأطفال ويبحثون عنه.
[٣] القهقهة: الضحك.

نتحدث عن الفتيان والعرائس من ماركة كابِج باتش كيدز (أو ترجمة بديلة: الأطفال المغرورين أبناء الأغنياء أو من أين يأتي الأطفال) ونلعب ألعابًا ونقرأ كتبا. قرأت قصة "آن من غرين غايبلز[1]" وتمنيت لو أمكن أن تتبناني عائلة طيبة بعيدًا جدًا عن هذا المكان.

لكن كلمة حرة كانت كلمة سيئة ولا يُلفَظُ بها إلا باحتقارٍ وذمٍّ.
"آه، أتريدين أن تكوني حرة مثل صديقاتك الكافرات؟"

نعم بالطبع. أردت ذلك. الحرية شيء إيجابي شوهناه وهم يحولونه بطريقةٍ ما إلى شيء شرير. كنت في المدرسة أتخلص من كل قلقي وتوتري. كنت أعيش حياتي بسعادة ولم أتكلم يومًا عن كيف كانت حياتي في البيت. لم أرغبْ في التفكير في الأمر. أعتقد أنني كنت أعيش حياة مزدوجة على نحو ما. شخصيتي الحقيقية كانت في المدرسة ونسختي أو شخصيتي المزيفة التي كانت تبتلع حزنها وغضبها لأن التعبير عنهما لن يؤدي إلا إلى التعذيب الجسدي، كانت الفتاة التي تعيش في المنزل.

كانت أمي تصر للغاية على تقليل تفاعلنا مع زميلات صفوفنا الكافرات إلى أقل حد حتى أنها أجبرتنا على العودة إلى المنزل يوميًّا في وقت الغداء لتناوله لكي لا نخالطهن ونحادثهن (أو نخالطهم ونحادثهم) خلال اليوم الدراسي. كما لم يُسْمَحْ لي باللعب معهنَّ (أو معهم) في أثناء الفسحة. لكنني دائمًا ما كنت ألعب معهم، شعرتُ بالذنب، لكن ذلك لم يوقفني.

[1] آن الجمَلونات الخضراء (بالإنچليزية: Anne of Green Gables): رواية صدرت عام ١٩٠٨ للكاتبة الكندية لوسي مود مونتغمري (نشرتها باسم ل. م. مونتغمري). كُتبت هذه الرواية لتناسب جميع الأعمار، واعتُبرت رواية أطفال كلاسيكية منذ منتصف القرن العشرين. تدور أحداث الرواية في أواخر القرن التاسع عشر، وتسرد مغامرات آن شيرلي، وهي فتاة يتيمة في الحادية عشرة من عمرها، أرسِلت عن طريق الخطأ إلى شقيقين في منتصف العمر، هما ماثيو وماريلا كُزبيرت، اللذان كانا ينويان في الأصل أن يتبنيا صبيًا يساعدهما في أعمال مزرعتهما في بلدة أفونلي الخيالية الواقعة في جزيرة الأمير إدوارد الكندية، فيحتفظ الشقيقان بها ويتبنيانها. وتحكي الرواية كيف تشق آن طريقها في الحياة مع آل كُزبيرت وفي المدرسة وضمن البلدة. ومنذ نشرها، تُرجمت آن الجملونات الخضراء إلى ٣٦ لغة على الأقل وبيع منها أكثر من ٥٠ مليون نسخة، ما يجعلها واحدةً من أكثر الكتب مبيعًا على مستوى العالم.

التحرش

كانت السنة الدراسية الرابعة السنةَ التي أخبرت فيها أمي بأن "زوجها" يتحرش بي. لم تكن لدي المصطلحات لأعبر عن ذلك لكنني أخبرتها بما يفعله بي. كانوا قد علموني "أن أصغي دائمًا الى الكبار" وخاصة الكبير الذي سوف يضربني إذا عصيتُ. ولذلك لم أفكر يومًا في استنكار أفعاله. كنت قد اعتدت أذاه لي جسديًا واعتدت أن أكون مرغمة على التحمل دون حماية من أمي. فبدا هذا كاستمرارية أو تكملة لنفس الشيء ولم أدرك الفرق. لكن كان هناك شيء في ردة فعله على سماع حركة شخصٍ ما في الرواق جعلتني أشك أنه يعلم أنه يأتي فعلًا نُكرًا. لم أكن متأكدة لكن فكرت أن أخبر أمي على سبيل الاحتياط.

كانت ردة فعلها الأولى هي الغضب اتجاهي واتهامي بالتحريض أو الإغراء على التحرش بي. وقد تحيرت من تسلسل (أو مجموعة) أسئلتها. فهي لم تكن لها أي منطق بالنسبة لي. أما ردة فعلها الثانية فقد كانت تجاهلي. تراءى لي أني حركت شيئًا فيها عندما أخبرتها أول مرة، فواصلت إخبارها على أمل أن أحرك فيها نفس الشيء مرارًا وتكرارًا، كنت أخبرها بما يكون قد فعله بي بالضبط وكيف كانت زوجته تشاركه المؤامرة، لكنها واصلت تجاهلي فقط. كانت تتركني أتكلم وتصغي إلي لكنها لا ترد ولا تعطي رد فعل.

كنت أصغر للغاية من أن أفهم حتى ما الذي كان يفعله أو سببه، وكنت خائفة جدًّا من ألا أفعل ما أؤمَرُ به. تركني مرة في غرفته وذهب الى الحمام و أمرني ألا أتحرك. استلقيت على بطني وملت باتجاه فتحة التهوية وهمست الى أمي في الأسفل وأنا خائفة من أن يسمعني و آملة بلا مبرر أو سبب أنها قد تسمعني. لكن منذ أن كنت في سن الخامسة لم تنقذني منه يومًا. فلم إذن ظننت أن الأمر سيختلف هذه المرة؟

تحولت أحلام اليقظة التي كنت أتخيل فيها أن عائلة ما تتبناني أو أني أهرب إلى كوابيس أطعنه فيها وأقطع قضيبه وكنت أستمتع بذلك. أرعبتني أحلامي بوحشيتها وشراستها لكنها هدأتني أيضًا. شعرتُ بالطمأنينة والسلام بمشاهدة دمه يتدفق. لم تمر ليلة لم تراودني فيها تلك الأحلام. كيف لأحد أن يحس بالسعادة والطمأنينة الشديدين لرؤيتِهِ شخصًا آخر ينزف حتى الموت؟ شعرت أنني وحش وكرهت كوني وحشية للغاية، و كنت غاضبة من نفسي لشعوري بتلك الراحة تغمُرُني عندما تراودني تلك الأفكار البشعة.

الإحصائيات عن مدى شيوع هذا النوع هذا التحرش في الدول ذات الغالبية المسلمة مقززة حقًّا. الحالات الشهيرة إعلاميًا لدى الجماهير _مثل حالة الطفلة زينب أنصاري ذات الست سنوات التي وجدت جثتها ملقاة في كدس قمامة بعد اغتصابها وقتلها أجبرت المجتمع الدولي على الاهتمام بالأمر[1]. و حسب منظمة ساهيل غير الحكومية التي مقرها

[1] هذه حالة اختطاف واغتصاب وتعذيب وقتل شخص غريب عن الأسرة لطفلة، وهذا يحدث كثيرًا في الدول المتدينة النامية مقارنةً بندرته الشديدة في الدول المتقدمة والعلمانية. لكن لا توجد إحصائيات رسمية عن التحرشات والاغتصاب في نطاق العائلات نفسها، لتحرج الشعوب الشرقية وحكوماتها من مواجهة هذه المسائل أغلب الأحيان، وهي على الأرجح كثيرة.

في إسلام باد، فان المعدل المتوسط هو ١١ حالة تحرش و/ أو اعتداء جنسي على الأطفال يُبلَّغُ عنها يوميًا عبر أنحاء باكستان. كانت زينب واحدة من عشرة طفلات قُتِلْنَ[١] في مدينة قصور Kasur في مقاطعة بنجاب سنة ٢٠١٨.

ما يرعب أكثر بكثير من هذه الأرقام هو إدراك أن أغلب حالات التحرش بالأطفال/ انتهاك واغتصاب الأطفال لا يُبلَّغ عنها أبدًا. حالتي [مثلًا] لم يُبلَّغ عنها. هنالك عار، وصمة، شعور بأنه خطأ البنت أو أنها فعلت شيئًا تسبب في ذلك وجلبَه عليها أو أن الطفل أو الطفلة كان يستطيع إيقاف الأمر. وفي بعض الدول يمكن أن تُجبَر الفتاة حتى على الزواج من مغتصبها[٢]. هناك أسباب كثيرة للغاية تخيف البنات وترغمهن على الصمت.

ولا يقتصر الأمر على البنات. ففي المجتمعات المسلمة التي تمارس الفصل بين الجنسين بتشدد لا يجد المتحرشون سبيلًا للوصول إلى البنات إلا إذا كان لدى المتحرش ابنة، لكن لديهم قدرة على الوصول إلى الأولاد. في أفغانستان تعني عبارة "باشا بازي" "لعب الأولاد" (بالفارسية: بچه بازى[٣]) ويقصد بها ولد صغير يستغله جنسيًّا الرجالُ. في رواية عداء الطائرة الورقية التي كتبها الأفغاني-الأمريكي خالد حسيني[٤] سنة ٢٠٠٣ تُصوِّر ممارسة "باشا بازي". في الحبكة، بطل الرواية له ابن لأخيه وأخته غير الشقيقة يرغم على أن يصير غلامًا راقصًا ومستعبَدًا جنسيًّا لمسؤول عالي المرتبة في طالبان. وكان نفس هذا المسؤول قد اغتصب أبا الطفل منذ سنوات عندما كان حدَثًا (حديثَ السنِّ) وكان المسؤول مراهقًا.

للأسف يقبَل ويُشَرْعِنُ الإسلامُ الاستغلالَ الجنسيَّ للأطفال. محمد أعظم قدوة للانسانية على مر العصور (بحسب اعتقاد المسلمين) تزوج طفلة ذات ست سنوات. ولذلك فإن اغتصاب الأطفال ليس تابو أو حرامًا محظورًا بل يُبجَّل في الحقيقة طالما أن الشخص متزوج من الطفلة. ولذلك فإن زواج الأطفال كثير في البلدان ذات الغالبية المسلمة. وفي

[١]كن اثنتي عشر طفلة اختطفهن واعتدى عليهن وقتلهن الجاني بنفس الطريقة، وفي يوم السبت ١٧ فبراير ٢٠١٨م أصدرت محكمة مكافحة الإرهاب في باكستان حكماً بالإعدام على عمران علي أرشد في قضية اغتصاب وقتل الطفلة زينب بعد إثبات التهمة عليه بالأدلة الجنائية واعترافه.
في ٢٦ يناير ٢٠١٨ بثت وسائل إعلام باكستانية ڤيديو مُسرَّب للقاتل عمران علي أرشد هو يروي تفاصيل حادثة القتل. تضمن اعتراف عمران علي بأنه اعترضها واستدرجا صباح ٤ يناير حين كانت في طريق عودتها من درس تلاوة القرآن الكريم إلى بيت خالتها في مدينة قصور بإقليم البنجاب، والذي أقامت فيه خلال فترة انتظار عودة والديها من قضاء مناسك العمرة في المملكة العربية السعودية، وذلك بخداعها أن والديها قد عادا من السعودية وأن بإمكانه اصطحابها إليهما. ثم اغتصبها عدة مرات قبل خنقها ورمي جثتها في مكب للنفايات بالقرب من منزلها. اعترف المتهم أنه فر بعد ارتكاب الجريمة بحق الطفلة زينب إلى مدينة باكبتان ثم غادر إلى مدينة أريفوالا، ليعود لاحقًا إلى مدينة قصور حيث شارك في جنازة زينب في ١٠ يناير والتي كانت بعد يوم من العثور على جثتها وعودة والديها من السعودية.
أظهرت نتائج تقرير رسمي عن تشريح جثة الطفلة الباكستانية زينب الأنصاري، والذي تسلمته المحكمة العليا في لاهور، تأكد الطبيب الشرعي الذي أشرف على عملية تشريح الطفلة أنها لقيت مصرعها قبل حوالي يومين، وهو ما يرجح أنها ظلت مختطفة لفترة تتراوح من يومين إلى ٤ أيام، منذ خطفها يوم ٤ يناير في الفترة من ٧ - ٩ مساءً حين كانت في طريقها إلى درس قرآني. وقال أن هناك أدلة على تعرض الطفلة للاغتصاب واللواط قبل خنقها بقوة ما أدى إلى تهشيم عظام أسفل الفك، كما وجدت جروح غائرة على اللسان من جراء ضغط الأسنان عليه، وأن هناك علامات على الأنف والرقبة تدل على تعرض الطفلة للتعذيب أيضًا. أدت الجريمة والمظاهرات إلى إصدار إعلان زينب أو إعلان تأهب زينب، قانون الاستجابة وإنقاذ الأطفال المخطوفين لعام ٢٠١٩م

[٢] هذا مرتبط بمفهوم العار الشرقي الخرافي رغم أن لا ذنب للضحية، وقد نجد هذا حتى في بعض ممارسات الهندوس ولعل بعض الأفلام الهندية ناقشت وانتقدت هذا التقليد، وهو أمر يجيزه القانون اللبناني على حد علمي وهي دولة ذات حكم للأغلبية المسيحية، ولا يبدو لي أن له أصلًا رسميًّا في نصوص الإسلام، لكنها ممارسة شائعة ناقشتها الأفلام والمسلسلات المصرية مثلًا قديمًا وحديثًا، وقد ورد في سفر التثنية بإصحاح ٢٢ بحسب الترجمة العربية المشتركة: ([٢٨]وإذا صادَفَ رَجُلٌ فتاةً بِكْرا لم تُخطَبْ، فأمسَكَها وضاجَعَها فانكَشَفَ أمرُها [٢٩]يُعطي ذلِكَ الرَّجُلُ لأبـي الفتاةِ خمسينَ مِنَ الفِضَّةِ، وتكونُ لَه زَوجَةً في مُقابِلِ مُضاجعَتِهِ لها، ولا يُطَلِّقُها كُلَّ أيّامِ حياتِهِ.). في بعض الترجمات العربية كڤان ديك: "من أجل أنه أذلها"، بدلًا من ترجمة "في مقابل مضاجعته لها"، و"وُجِدا" بدلًا من "فانكشف أمرها"، وهي أقرب للأصل العبري وأكثر حَرفيةً.

[٣] تعبير عامي يعني لعب الصبيان، وغالبًا ما يتضمن هذا التقليدُ التحرشَ الجنسي بالأطفال والمراهقين من الرجال، ويعرف هؤلاء الأطفال بالصبيان الراقصين، ويتضمن هذا الاستعباد الجنسي ودعارة الأطفال والإكراه، وهي ممارسة توجد في بعض أنحاء أفغانستان وشمالي غرب باكستان. صرح مسؤولون في شرطة باكستان أنهم لا يستطيعون القضاء على هذه الممارسة لأن الكثير من المتورطين فيها أمراء حرب مسلحين ذو نفوذ. وكثيرًا ما قُدمت تقارير عن تورط واشتراك الشرطة الأفغانية الطالبانية في تلك الجرائم. وقد عمل الصحفي الأفغاني نجيب الله قريشي فيلمًا وثائقيًّا بعنوان (الأطفال الراقصين بأفغانستان) The Dancing Boys of Afghanistan من إنتاج شركة أفلام Clover Films، والذي أذيع في المملكة المتحدة في مارس ٢٠٢١ ثم في الولايات المتحدة بعدها بشهر، وحاز جائزة من جوائز الإعلام الممنوحة من منظمة العفو الدولية.

[٤]تتوفر ترجمة عربية لهذه الرواية على عدة مواقع عربية على الإنترنت، وكذلك نسخة الفيلم المقتبَس من الرواية The Kite Runner (2007) مترجمة للعربية. تذكر أن تشتريَها طبعًا إذا كنت قادرًا على ذلك لدعم المؤلف ودار النشر وشركة إنتاج الفيلم، بدلًا من تحميلها مجانًا وخرق حقوق النشر.

باكستان وإيران تُجهَضُ دعوات الرفع سن الزواج وتوصَمُ بأنها مخالفة للإسلام[١]. كل ثانيتين من الزمن تقريبًا تُزوَّج بنتُ سنها أقل من ثمانية عشر عامًا. و في بعض تلك الحالات يكون سبب الزواج هو أن الطفلة اغتُصِبَتْ. بل وسنت العديد من الدول ذات الغالبية المسلمة قوانين تشرع زواج المغتصَبة من مغتصِبها، والتي تنص على أنه إذا اغتُصِبَتْ فتاةُ فإنها يجب أن تتزوج مغتصبها لأنَّ لا أحد آخر سيقبَلُ بها. هي بضاعة مستعمَلة وختمها قد فُضَّ.

من المهم أن نتذكر أن هذه الأفكار عابرة للحدود. لا يغير هؤلاء القوم طريقة تفكيرهم بقدرة قادر أو بطريقة سحرية عندما ينتقلون إلى دولة أخرى. تتعرض البنات المسلمات عبر أنحاء العالم الى نفس المعاملة غير الانسانية حتى وإن كانت تخالف قوانين الدول اللاتي يعشن فيها. ولهذا فإنه واجب أساسي على الدول الغربية أن تحمي مواطناتها ومقيماتها البنات الصغار من العائلات والمجتمعات الوحشية الرجعية التي تنخرط في تلك الممارسات الوحشية.

[١] معظم البشر الطبيعيين في المجتمعات الطبيعية حتى المسلمون بغالبيتهم خاصةً في المدن لا يقبلون تزويج بناتهن الطفلات، بالتناقض مع همجية الشريعة الإسلامية نفسها، أما هذه العادة فتنتشر في الأرياف والبدو مثلًا، وكانت في الماضي منتشرةً أكثر. بمصر الحديثة المعاصرة مثلًا يوجد قانون لتحديد سن الزواج، لكن كنا نسمع ونقرأ عن تحايل بعض الريفيين من الوجه البحري والصعيد على ذلك بحيلة استخراج شهادة تسنين والورق الرسمي للبنت في سن متأخر مع تقديم رشوة لمسؤول صحي فاسد مرتشٍ أو سلفي أو كليهما. توجد مؤشرات في كتاب (إنباء الهصر بأنباء العصر) للصيرفي على معارضة شيوخ من المذهب الحنفي لمصر لهذه الممارسة في قصة حادثة استغلال زوج طفلة لها في الدعارة، رغم معرفتهم بزواج محمد من طفلة، ومحاولتهم التملص من ذلك بالقول بأننا لا يصح أن نجيز لأنفسنا ما يجوز لمحمد أو نساوي أنفسنا به وفي تصرفاته**!!** في فترة حكم الإخوان بمصر رُفِعت دعوات خسيسة لإلغاء قانون تجريم ختان الإناث (الذي هو عمليًّا تقريبًا مجرد حبر على ورق بسبب شيوع هذه العادة الإجرامية القذرة في معظم مصر) وإلغاء قانون تحديد سن الزواج أو جعله ست سنوات، والأنكى والأدهى أن معظم هذه الطلبات رفعتها سيدات مستلَبات العقول والإنسانية والاعتزاز بأنوثتهن وإنسانيتهن**!**. ملاحظة شخصية: عندما كنت أواجه المسلمين المصريين في نقاشي معهم داخل أسرتي تحديدًا كوسط لا يقبل بأي حال بتزويج طفلة لهم، بمسألة زواج محمد من طفلة، كانوا يتظاهرون بالعودة إلى أصول جدودهم فلاحين متشددين من صعيد مصر ممن يقبلون بزواج طفلتهم باعتباره "سترًا" مبكرًا لها، لكن مثل ذلك الرد كان نفاقًا ومكابرةً وتحديًا على الأرجح لا يمكن لهم تنفيذه فعليًّا بحكم تقاليد المجتمع المدني في مصر والوسط الاجتماعي وأخلاقهم ذاتها في هذا الشأن- المترجم.

اليهود

كانت أيامي تبدأ بأنْ أُوقَظَ من النوم قبل طلوع الشمس بسكب الماء البارد على وجهي كي أصلي صلاة الفجر. كان كل الأطفال [في البيت] يوقَظون هكذا. وإلى الآن لدي خوف من الغرق.

وبينما تحرقني عيناي ويثقل رأسي أمارس الطقوس المتكررة التي حرمتني النوم. بعد ذلك أجد أنه ما زالت هناك ساعات على وقت الذهاب الى المدرسة. فكانت تُقْضَى تلك الساعات في قراءة القرآن. كنت أنوح بلا فهم أو اكتراث بذلك الكلام الأجنبي اللغة الذي لا أفهمه بصوتٍ أنفيٍّ أخنف متناغم رتيب والذي له معانٍ شريرة مشؤومة تعلمتُها بعد الكثير من السنوات لاحقًا. كنت بالكاد أرى الكلمات في الصفحات عبر دموعي وتعبي. لكن إساءة القراء كانت لتجلب لي ضربة على الرأس فكنت أقرأ وأقرأ وأقرأ. كنت أغمغم بالكلمات بصوتٍ عالٍ وأنا أتأرجح إلى الأمام والخلف.

لم يكن الهدف من التلاوة فهم القرآن بل حفظه. هذا مهم جدًّا. لا يُحَثُّ المسلمون على تعلم أو فهم ما يقرؤون أو يرتِّلُون بل يُحْتَفى بهم لأجْلِ اجتراره فقط. يحظى حافظ القرآن بالاحترام والعديد من المنافع. لكن لا توجد مكافآت تقديرية على فهم القرآن. بل في غالب الأحيان أولئك الذين يغمغمون بالكلمات باجتهاد ومثابرة لا علم لهم بمعانيها. لا يفهم أغلب المسلمين اللغة العربية.

لم يكن مهمًا على أي حال [فهم معاني] ما تتلوه. فكمسلم لا خيار لك إلا أن تقبل به ولا يوجد مجال للتساؤل أو الشك. فالقرآن ينص بوضوح جدًّا في الآية الثانية من سورة البقرة: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}. فما الفائدة إذن من تلاوته بذهن منفتح وفكر نقدي بما أنك لا يُسْمَحُ لك بالشك في أي كلمة فيه على أي حال؟ فهذا ليس خيارًا متاحًا حتى. كمسلم عليك أن تصدِّق اعتباطًا كل هذا الكتاب بما فيه، لأن القرآن يَنُصُّ على أنه: {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} (البقرة: ٢٤)[1].

عندما فهمت في النهاية ما كنت أتلوه تركت تلك المعرفة شرخًا كبيرًا في الإسمنت الذي كان يحيطني. لم أكن حتى في حاجة إلى فهمه بكامله. فما فهمتُه كان كافيًا كفيلًا بالتسبب في صُدُوعٍ[2] في الإسمنت الذي كان يسكب علي يوميًّا.
فهمت أني طوال بضع السنوات الماضية كنت أصف عشرين مرة يوميًا غير المسلمين بأنهم أعداء الله. و كنت أتلو أن المسلمين الذين يصادقون غير المسلمين مكانهم جهنم[3] وأن غير المسلمين أدنى من الحيوان مرتبة[1] و لا فائدة منهم إلا

---

[1] بل والأخطر من ذلك أن التشكيك والتساؤل في الإسلام والقرآن سبب في شرعه لقتل الشاكّ أو الناقد بل وإقامة حرب مع قبيلة أو دولة أخرى حتى بزعم أن الطرف الآخر نقض معاهدة سلم معقودة مع المسلمين بمجرد الكلام والتعبير عن الرأي والنقد، ففي سورة التوبة أو براءة: { وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢)}. وكتب سيرة محمد والأحاديث حافلة بقصص قتل من انتقدوا الإسلام ومحمدًا مثل عصماء بنت مروان وأم قرفة وكعب بن الأشرف النبيل اليهودي وقينتي (مغنيتي) الأخطل في مكة وغيرهم، وممن قُتِلوا في عصر العباسيين صالح بن عبد القدوس الأزدي الجذامي صاحب قصيدة: غَصب المِسكينُ زَوجَته// فَجرت عَيناهُ من درره. ما قَضى المِسكينُ من وَطر// لا وَلا المعشار من وَطره// عُذت بِاللهِ اللَطيف بنا// أَن يَكونَ الجور مِن قَدرِه. وممن قُتِلوا إبراهيم بن دنينير، وفي العصر الحديث قُتِلَ الكثير من المفكرين منهم فرج فودة ومصطفى جحا والكثير من الأسماء المهمة لمفكرين في السودان وإيران والسعودية وغيرها. والقائمة تطول لو أمكن معرفة وسرد كل من قتلهم محمد وأتباعه منذ عصر محمد وبعد موت محمد حتى عصرنا الحديث في شتى دول وبقاع العالم الإسلامي لمجرد نقد الإسلام والقرآن وسيرة محمد، فالقائمة مليئة بآلاف القتلى منهم من حفظت الكتابة والسجلات وكتب التاريخ أسماءهم، وحتمًا لم تُحصَر كل أسماء الضحايا في كتب التاريخ وسجلات القضاء والشرطة- المترجم.

[2] صدوع: شقوق

[3] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)} المائدة

كوقود لجهنم[٢] و أن اليهود أدنى من البشر[٣]. و الكثير من الآيات أيضا ترمي غير المسلمين بالكاذبين الذين لا يمكن الثقة بهم[٤].
شعرت بأني غُشِشْتُ وخُدِعْتُ. لم أرغب في التلفُّظ بتلك الأمور. لم أؤمن بتلك الأمور. لم أعلم أنني أغمغم بخطاب كراهية يوميًّا. كنت أحب أصدقائي بل وفي الحقيقة لقد كانوا الشيء الإيجابي الوحيد في حياتي.

في الإسلام لا قيمة لغير المسلمين. يسمح الإسلام باغتصاب غير المسلمات (السبي) أو استعباد غير المسلمين وغير المسلمات. كل من هم ليسوا من المسلمين المُخْلِصين يتعرضون لدرجات متباينة من الكره. و أكثر الذين يكرههم المسلمون من بين الناس جميعًا هم اليهود. وقولي هذا ليس مبالَغًا فيه. إن كره اليهود في الإسلام جَلِيٌّ[٥] جدًّا وعميق ولا لِينَ فيه.

أذكر أن إحدى عماتي (أو خالاتي) _عندما كنت في مصر_ تحسَّرَت لكون الخيار في السوق كان أصغر تلك السنة لأن اليهود كانوا يدسون السرطان في الخضروات!. حتى و أنا ذات سبع سنوات علِمْتُ أعلم أن هذه فكرة سخيفة. لا يمكن وضع السرطان في الخضروات. يجب العلم أن عمتي لم تكن حتى متدينة.

هذا هو الخطاب العادي لشخص مسلم أو مسلمة عادية (رجل الشارع أو العامة). لا أقدر أن أقارنه الا برهاب الشيوعيين أثناء المكارثية في أمريكا. بيد أن المسلمين يعيشون هذا الرهاب منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة. جيلًا بعد جيل كان الأطفال المسلمون يتعرضون الى غسيل دماغ لكي يكرهوا كل اليهود كما يكرههم الله بدون سبب أو منطق. حتى أينشتاين لم يَسْلَمْ من هذا. لقد نبذ المسلمون كل مساهماته العلمية باستخفاف وتحقير: "أيشتاين؟ ماهو إلا يهودي غبي قذر. ما الذي يعرفه أينشتاين؟[٦]".

بما أن أبي فلسطيني فقد أراد أن يشرِّفَني بتسميتي فلسطين. لكن ما أن علمت أمي معنى الكلمة في الإنجليزية غيرته الى اسم له لفظ مشابه في الصوتيات (بالعربية اسمي يُنطَق ياسمين). كان الخطاب الداعم لفلسطين والمعادي لإسرائيل جزءًا من حياتي منذ طفولتي. لقد كان كره إسرائيل وكل يهود العالم خبزنا اليومي الذي نأكله منذ بداية حياتي، وكان دائما من المسلَّمات التي لا يجوز تغييرها. منعتني أمي من مشاهدة ساينفِلد لأنه يعج باليهود. كانت تكره أي شخص فورًا لو أن اسمه يبدو يهوديًّا. كانت كلمة "يهودي" تستخدم لسب أحقر الناس. هذه الكراهية لدى المسلمين معتادة عمومًا لدرجة الإملال.

---

[١] {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥)} الأنفال، { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)} الأنفال

[٢] {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨)} الأنبياء، وفي تفسير الطبري: ...الضحاك يقول في قوله (حَصَبُ جَهَنَّمَ) يقول: إن جهنم إنما تحصب بهم، وهو الرمي يقول: يرمي بهم فيها....وكان ابن عباس إن كان قرأ ذلك كذلك [قراءة حضَبُ بالضاد]، أراد أنهم الذين تسجر بهم جهنم، ويوقد بهم فيها النار، وذلك أن كل ما هيجت به النار وأوقدت به فهو عند العرب حضب لها.

[٣] { قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)} المائدة

[٤] على سبيل المثال: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)..... وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)} المائدة، و{وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ....} سورة البقرة من الآية/ النص ١٢٠.

[٥] جليٌّ: واضح، والجلاء بمعنى الوضوح.

[٦] هذه طريقة مواجهة المسلمين التقليديين من العامة عديمي الثقافة والتعليم الجيد في التعامل مع العلوم عمومًا بدون تقدير لها وباحتقار لها وعدم إدراك لقوة وفوائد العلوم، لكن لا يمكن القول أن هذه طريقة كل المسلمين، فهناك علماء مسلمون ترجموا وكتبوا كتبًا في شرح نظريات أينستاين طبعًا- المترجم.

لكن في الغرب وخاصةً إن تكُنْ مسلما ناشطًا في المجال العام فسيكون عليك أن تخفف من حدة معاداتك للسامية. وقد أُثْبِتَ أن هذه مهمة صعبة على بعض المسلمين السياسيين. سبب الصعوبة عليهم في معرفة ما هو مقبولٌ التغريد به على تويتر وما ليس مقبولًا هو أن معاداة السامية تحيط بهم كما يحيط الماء بالسمكة. من المهم الإشارة إلى أن الكثير من العرب والمسلمين ليسوا معادين للسامية لكنَّ أولئك الأشخاص للأسف يُسْكَتُون لأنهم لا يلتزمون بالسردية أو الأدبيات المقبولة المهيمنة. الأشخاص مثل باسم عيد يُقْصَوْنَ إعلاميًّا أو يُتَّهَمُون بخيانة دينهم أو عرقهم. ما عليك الا أن تبحث في جوجل عن "مسلم مؤيد للصهيونية أو صهيوني" وستجد الكثيرين الذي يحاولون إيصال أصواتهم[١]. من المؤسف أنه بدلًا من أن يحتفي الغرب بأصوات المختلفين والمنشقِّين في مجتمعاتهم والتي يخاطر أصحابها بسلامتهم وحيواتهم منادين بالحب وقبول الآخر والتعايش، فإن الغرب يدعم المسلمين المعادين للسامية الذين يكررون نفس الكلام النمطي فقط.

تظاهر الكثير من الفلسطينيين في غزة ضد حماس لوحشيتها وسوء إدارتها للموارد المالية. فالأموال التي كان يُفترَض أن تصل إلى الفلسطينيين استُعْمِلَتْ في شراء قصور لقادة حماس أو لشراء قذائف وصواريخ. يتظاهر الغزيون عبر التمرد في الشارع ويُقتَلون بالرصاص بوحشيةٍ. لا يغطي الإعلام مظاهراتهم إلا على نحو هزيل ولا يكترث أحدٌ لهم. لا أحد مهتم بالسماع عن هؤلاء الثوار الشجعان الذين يخاطرون بحياتهم ليقولوا أنهم سئموا الحرب. إنهم يريدون السلام مع إسرائيل، ويريدون مستقبلًا زاهرًا لأطفالهم. لكن حماس لا تريد السلام. تريد حماس إبادة اسرائيل وكل من فيها، وهي لا تخفي ذلك بل تعلنه. يظهر هذا جليًّا لأي أحدٍ شاهد تظاهراتٍ [إسلامية] للقدس والتي تنظم في كل مكان في العالم حتى في الدول الغربية سنويًّا. المناداة بخطاب كراهية في الشارع غير مقبول عمومًا في تلك الدول الغربية إلا إذا كان معاديًا للسامية بغيضًا، فعندئذٍ يُتجاهَل.

يوجد انطباع سائد أن الإسلام دين سلام. فقط الذين لم يقرؤوا القرآن يمكن أن يعتقدوا في هذا ويؤكدوه. يعج ويطفح القرآن والحديث بالعنف. لا يوجد عذر في عصر الإنترنت للناس لكي يكرروا عبارات جاهزة. الجهل اختيارٌ في هذا العصرِ.

ورغم صحة حقيقة أن كل المسلمين يؤمنون أن القرآن كلام الله الحرفي إلا أنهم ليسوا كلهم مستعدين للتصرف على أساس أوامره وتعاليمه. لكن الكثيرين يصلحون كقصص وأخبار جالبة للانتباه على الإنترنت والتلفزيون[٢] لأنه يوجد دائمًا حادث جديد مرتبط بإرهابيين إسلاميين.

يقال أنه لا يوجد دخان بلا نار. و يوجد كم هائل من الدخان ينبعث من كل أركان الكرة الأرضية، فلا يوجد شك أن هناك نارًا تستعِرُ. على الأقل خمس مرات يوميًّا أكثر من مليار شخص في العالم يتْلُوُنَ داعِيِن إلى قتل غير المسلمين. غسيل الدماغ هذا دون شك يصيب الكثيرَ من العقول. وحتى لو أن ١ بالمئة فقط من المليار شخص لُقِّنوا هذه العقيدة وتشرَّبوا بها، لكان سيظل هناك ١٦ مليون شخص يعتقد بهذه التعاليم. غيرَ أن الحقيقة _للأسف_ هي أنهم أكثر بكثير من ١ بالمئة.

[١] نؤمن بالحق التام في حرية التعبير، ونؤيد السلام وحل الدولتين وعدم أخذ المزيد من أراضي الفلسطينيين بالاستيلاء عليها، وضد قتل المدنيين ومقاومي الاحتلال الفلسطينيين، وضد قتل المدنيين الإسرائيليين كذلك في نفس الوقت- المترجم
[٢] ترندات أو أحداث وأمور تجذب الجمهور

الإخضاع ٢

لحسن الحظ لم أكن من الذين نجحوا في غسل أدمغتهم. كنت فقط أكرر الحركات وأهمهم بالكلمات الأجنبية دون أن أقدر على التفرقة بين كلمة و غيرها. كنت أنتحل شخصيةً في بيتي. في إحدى المرات لاحظت أمي أني كنت قد كتبتُ أكتب اسمي "جاسمين" بالإنچليزية بدلًا ياسمين بالنطق العربي (وهي ترجمة مباشرة لاسمي من العربية إلى الإنچليزية) ففقدت صوابها لأجل ذلك.

أما زوجها المزيَّف فقد قرر أن هذا التصرف في محاول التشبه بالكفار يستحق عقابًا لا يمكن أن أنساه. وهذا مثير للسخرية لأن زملاءه في العمل كانوا ينادونه مايك.

جلست محدقة في الجدار متمنيةً أن أختفي عبر خزانة الثياب إلى عالم نارنيا[١]. لم أرد حتى أن أجازف بتخيل نوع الخطة الشيطانية للعقاب التي سوف يبتكرها هذه المرة. لعلي أستطيع أن أجد حديقة سرية؟ لابد أن هنالك طريقة للهروب من حياة العذاب هذه التي أعيشها. كان علي فقط أن أجدها.

قبل أن أجد مهربًا سمعتهم ينادون باسمي. اقتادني الى مرآب السيارة (الجراج) حيث قيد معصمَيَّ معًا وراء ظهري. لم أدر ما ينوي فعله بي عندما أمرني بأني أستلقي على أرضية المرآب. أوثق كاحلَيْ قدمَيَّ معًا بحبل فشعرت بشعور مألوف جلب لي توترًا مألوفًا. هذا لا يزال يثير فيَّ ذكريات وددت لو نسيتها. استلقيت على أرضية الجراج وقد أصابني ما أعرف اليوم أنه نوبة هلع. وأنا في تلك الحالة علقني مقلوبةً رأسًا على عقبٍ بالخطاف الذي يستعمله لتعليق ذبيحة خروف العيد. لقد ابتكر خطةً لتعليقي مقلوبةً رأسًا على عقبٍ كحيوانٍ ذبيحٍ. كنت أتأرجح إلى الأمام والخلف وقد وقف على كرسي لكي يصل إلى قدمَيَّ ويستطيعَ جلدَهُما.

وبينما أنا معلقة كخروف بعد ذبحه والدم يندفع إلى رأسي والدموع والمخاط يملأُ كامل وجهي، اكتشفتُ طريقة أسُدُّ بها طريق كل إحساس بجسدي. كنت قد قرأت حديثًا للممثلة شيرلي ماكلين عن تجربة لها للخروج من الجسد وكنت أحاول معرفة كيفية فعل ذلك. كان أكثر ما أريده هو أن أخرج من هذا الجسد، من هذه الحياة التي أنا عالقة فيها.

كنت قد حظيت بالكثير من الفرص والوقت لتحسين وصقل قدرتي خلال السنوات، وفاجأت نفسي في الحقيقة بمدى قدرتي على عدم الشعور بأي شيء حقًّا. كنت أنكمش على نفسي في وضعية وأنتظر أن يفرغ من تعذيبه. ولكونه غيرَ راضٍ ومستاءً من عدم صراخي أو محاولتي الهرب كان يقلب حزامه كي يضربني بإبزيمه الحديدي. وأكثرَ من مرة شاهدته يحدق بي متحيِّرًا وحبات العرق تتصبب من جبينه. أظنه كان يشعر أني أسخر من قوته الذكورية من خلال عدم رد الفعل، لأن ذلك فقط يغضبه ويحثُّه على مواصلة ضربي. كنا نصل إلى طريق مسدود، وكثيرًا ما كنتُ أطلق بضع صرخات كي يحس بالرضا ويتركني.

---

[١] سجلات نارنيا أو كرونيكلز أوف نارنيا The Chronicles of Narnia: سلسلة فانتازيا خيالية تتكون من سبع روايات من تأليف المؤلف الشهير سي. إس. لويس، تشتهر هذه السلسة في أدب ألأطفال وهي من أعظم أعمال الكاتب. لقد بيع ما يقرب من ١٠٠ مليون نسخة بحوالي ٤٧ لغة. نارنيا عالم خيالي يتضمن السحر ووحوش خرافية وحيوانات متكلمة. تحكي السلسلة عن مغامرات مجموعة من الأطفال الذين يلعبون أدوار هامة في الكشف عن تاريخ هذا العالم، فيما عدا رواية الحصان وصبيه حيث أن ابطال هذه الرواية، عكس باقي الروايات، أطفال يأتون من العالم الحقيقي. قد جاءوا إلى نارنيا بواسطة السحر وقد طلب منهم ازلان الأسد أن يحموا نارنيا من كل شر وأن يعيدوا العرش إلى الوريث الحقيقي.

توجد أجزاء من كياني (نفسيتي) قد تضررت على نحو لا علاج له، على الأرجح أكثر مما أريد أن أعترف به لنفسي. و قد تطلب مني الأمر سنوات حتى تعود لي القدرة على التعاطف مع الآخرين كما أتعاطف الآن. عندما تقطع الإحساس بجسدك فأنت تقطع دون إرادة منك عواطفك أيضًا. فأنا لم أعد أحس [مثلًا] بالدغدغة الآن. توجد صورة أخذها لي أبي وأنا أضحك بينما يدغدغني إخوتي على العشب في حديقة الملكة إليزابيث عندما كان عمري ثلاث أو أربع سنوات. أنظر الى تلك الصورة محاولة استرجاع ماهية الإحساس بالدغدغة وكيف كانت بهجة ذلك الضحك. لكن عبثًا أفعل ذلك إذ أنني قد فقدت الشعور بذلك فحسب.

و أنا معلقة في المرآب كنت واعية بأني معلقة بالمقلوب رأسًا على عقبٍ وأني أُجْلَد، لكنني لم أعد أحس بشيء. وفي مرحلة ما فقدت الوعي، والأمر اللاحق الذي وعيتُه أن أمي كانت تصرخ:

"ما الذي سنفعله الآن؟"

كانت خائفة من أن يكون قد قتلني. لم تكن منزعجة من أني قد أكون قُتِلْتُ، علي بل كانت خائفة فقط مما سيحدث لهما لو أنهما قد قتلاني.. عندما عدت الى وعيي وسمعت صرخاتها المرعوبة تمنيتُ لو أنني قد مِتُّ. لم أرد أن أعود الى وعيي. لماذا سأريد الاستيقاظ؟

كنت حزينة للغاية و كان قلبي منفطرا لكن ما زالت بي رغبة يائسة في أن تحبني أمي. كنت عالقة ممزقة في قسمة ثنائية بين رغبتي في أن تحبني أمي وتقبَلَني وتقدِّرَني، وبين رغبتي المساوية لها في أن أبتعد عنها بأقصى قدر ممكن.

لكني لم أكن قادرة على الذهاب الى أي مكان؛ ولم يكن لي خيار إلا أن ألعب دور البنت المطيعة. كنت أعلم أن أمي تكرهني وأنها لا تهتم إنْ مِتُّ أو حيَيْتُ و كان هذا أصعب شيء عليَّ. ظنَنتُ أنني أنا السبب في كرهها لي. وأنه كان خطئي لأن الشيطان كان أقوى مني يتملكني. حاولت بأقصى جهدي أن أفعل كل ما تريده مني.

كان جليًّا أن ما أرادَتْهُ هو كسري. أرادَتْني أن أتوقف عن المقاومة وأدَعَ الإسمنت يدفنني إلى الأبد. في كل مرة قاومت فيها تسبَّبْتُ في صدوعٍ أكثر في الخرسانة. كان هدفها أن تجعلني أتوقف عن المقاومة وأخضع. وقد أمِلَتْ أن تحقِّقَ هذا ليس فحسب من خلال روتينية ورتابة الصلوات الخمس اليومية، بل وكذلك بطرق أخرى أيضًا. الهدف كان هو نفسه دائمًا: أن تعلمنا الاتباع دون تفكير.

كان أحد وسائل تزجية وقت الفراغ لنا نزعَ الأعشابِ الطفيلية، بدون قفازات ولا أدوات. كانت يداي الخشنتان الثَفِنَتَانِ سوداوين من الطين الذي تغلغل في جلدي. كنت أنزع الأعشاب يوميًّا في مهمة لا نهائية سيزيفية[1]. تحيَّرْت وغضِبْتُ عندما علمتُ لاحقًّا أن هنالك مبيدات للأعشاب الطفيلية. عندما قرأت رواية "حُفَر" للويس ساكار (ساشار)[2]

---

[1] كمهمة سيزيف أو سيزيفوس، سيزيف أو سيسيفوس كان أحد أكثر الشخصيات مكرًا بحسب الميثولوجيا الإغريقية، حيث استطاع أن يخدع إله الموت ثاناتوس مما أغضب كبير الآلهة زيوس، فعاقبه بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل القمة تدحرجت إلى الوادي، فيعود إلى رفعها إلى القمة، ويظل هكذا إلى الأبد، فأصبح رمز العذاب الأبدي. وطبقا لذلك فإن الأنشطة عديمة الهدف أو اللامتناهية توصف بأنها سيزيفية.

[2] Holes by Louis Sachar رواية عن طفل يُرسَل إلى مخيم إصلاحي في صحراء تكساس بعد اتهامه زورًا بالسرقة، كتبها لويس ساشار ونشرها لأول مرة عام ١٩٩٨، وتتطرق الرواية في حبكتها إلى موضوعات مثل العنصرية والتشرد والأمية والزواج المرتب. حقق الكتاب نجاحًا نقديًا وتجاريًا. تركز الكثير من الثناء على الكتاب حول حبكة الكتاب المعقدة، والشخصيات المثيرة للاهتمام، وتمثيل الأشخاص الملونين والشباب المسجونين. وفازت بجائزة الكتاب الوطني الأمريكية لعام ١٩٩٨ لأدب الشباب وميدالية نيوبري لعام ١٩٩٩ عن "المساهمة الأكثر تميزًا في الأدب

بعد سنوات أحسست بتماه مع بؤس الشخصيات. كان أمر الأطفال بحفر الحفر في الصحراء دون تفكير يُراد به كسر إرادتهم. لقد فهمتُ ذلك.

أ

حد مهماتنا الأخرى كانت جمع الصخور. كنا نخرج قبل الفجر وبعد الصلاة، فكنتُ أملأ أنا وأخوايَ أكياسًا وأكياسًا من الصخور التي كنا نجمعها من الشاطئ. كنا نذهب إلى المدرسة متعَبين مترنحين ومحرومين من النوم وبأذرع متورمة. بينما كان الأطفال الآخرون يدخلون المدرسة بعد تناولهم فطور الصباح على الأرجح مع ذويهم.

كان أحد أمورهم المفضَّلة لديهم إرغامَنا على تناول "أطعمة" مثل أمعاء الخراف أو لسان البقرة أو خصيتي أو مخ حيوانات أخرى، بدون أيِّ سببٍ عدا التأكيد على سيطرتهم. افعل ما يطلب منك مهما كانت درجة كرهك له. تراجع، أَذْعِنْ واستسلِم، واخضع. فكيف يمكن ألَّا أكره حياتي؟

الشيء الوحيد الذي كرهته أكثر كان نفسي لأنني رغم قلع الأعشاب وجمع الصخور ظللتُ حيةً في تلك الحياة، كنت لا أزال أقاوم. أنا سعيدة جدًّا لأن النور لم يخْبُ قط، رغم أنه مرت بي أوقات كان النور فيها بالكاد بصيصًا. لو انطفأ ذلك النور لما كنتُ حيةً اليومَ.

علموني أن ذلك النور الذي تشبثتُ به كان الشيطانَ في الحقيقةِ. تخيل أن يعلموك أن كيانك شر. ما تحبه وتجد نفسك فيه هو الشر. فتحاول أن تغير نفسك و ن تصير شخصًا "صالحًا" ومستحقًّا لمحبة الله، لكنك لا تستطيع ذلك أبدًا لأنك شرير. هذا الصراع المتواصل متعب ويسحق روحك ورغبتك في الحياة.

لهذا يتشابه في هذه المسلمون السابق وأفراد مجتمع الميم (المثليين ومختلفي الميول الجنسية) كثيرًا، خاصةً المسلمين الذين نشؤوا في أسر متدينة. لقد خَبِرْنا[1] شعور أن يقال لك أن جوهر ذاتك شرير. يستخدم المسلمون السابقون عبارات مثل "في الخزانة" و "الخروج الى العلن" لأنها تتناسب مع حالتهم بنفس القدر أيضًا. أما معاناة المسلم المثلي جنسيًّا فهي نحس ولعنة مضاعَفة وهي أسوء سيناريو قد يجد شخصٌ نفسه فيه. و المرأة المثلية المسلمة هي أتعس الأقدار الممكنة.

كان نصيبي من المعاناة جزءًا منها فقط لمقاومته. على الرغم من أنه أمر سيء [إسلاميًّا] ويجعلني نجسة إلا أنني كنت أحب الأولاد. كان أول "كراش" أو إعجاب لي في روضة الأطفال. لكن مع كثرة الأمور المتنافسة فيما بينها لجعلي "شريرة" أو "ظالمة"، فقد كانت تلك أسهلها تركًا. فبمجرد أنْ صرتُ في السنة الدراسية الرابعة فقط صار الأولاد [في نظري] مقززين ومقمَّلين[2].

مع دخولي السنة الدراسية الخامسة نُقِلتْ مرةً أخرى إلى مدرسة أخرى. لكن التغيير هذه المرة كان شديدًا.

الأمريكي للأطفال". في عام ٢٠١٢ ، احتلت المرتبة السادسة بين روايات الأطفال استطلاع نشرته مجلة School Library Journal، وفي عام ٢٠٠٣ أصدرت والت ديزني فيلمًا مقتبَسًا عن الرواية.

[1] خَبِرنا: عرَفْنا

[2] مصابون بالقمل، والمقصود كراهيتها للذكور نتيجةً أسلوب التربية الإسلامي التقليدي الذي يسيء للبنيان النفسي السوي من نواحٍ كثيرة، منها الناحية العاطفية الجنسية.

وبينما كنا لا نزال نعيش في ذلك القبو الرطب البارد القبيح الذي لا يليق بالبشر قانونيًّا، قررت أمي أن تدخلنا مدرسة إسلامية والتي كانت قد فتحت أبوابها مؤخرًا.

في الحقيقة فإن تسميتها مدرسة سيكون تضخيمًا من شأنها. لقد كان الأمر في الحقيقة مجرد حفنة من الآباء الذين قرروا أن يجمعوا أطفالهم معًا في غرفة المسجد متعددة الأغراض، والتداول على تدريسهم موادًا مختلفة. كان على نحوٍ أساسٍ تعليمًا منزليًّا لكن دون أي نظام مناهج رسمية.

الخمار (الحجاب)[1]

عندما بلغت سن التاسعة ألبسوني الحجاب لأول مرة، والذي صرتُ ملزَمةً بارتدائه. كرهته منذ الوهلة الأولى. كرهته ما أن بدأت أمي في لبسه، وصرتُ أكرهه أكثر عندما فُرِضَ عليَّ أن ألبسَه. توسلت إليهم لكي يمنحوني بدائل عنه.

"رجاء هل لي أن أحلق رأسي بدلًا من ذلك؟ ماذا إذا لبست باروكةً؟"

"مثل اليهود؟؟ أتريدين أن تصيري مثل اليهود؟؟"

حاولت أن أفاوض لألتف حول ذلك.

"لِمَا لمْ يُفْرَضْ عليكِ الحجاب عندما كنتِ في سني؟"

"لأن والدَيَّ كانا جاهلين. كان عليهما جعلي أرتديه".

كم تمنيتُ لو كانت هي أيضًا "جاهلةً". كم تمنيت لو منحتني إرجاء الحكم (أو الإعفاء) الذي مُنِحَ اليها. جربت كل حيلة اهتدى إليها عقلي الطفولي ذو التسع سنواتٍ دون جدوى. مُنِعْتُ من كل ملابسي [السابقة] ولم يعد مسموحًا لي بلبس السراويل. أصبح علي حينذاك أن أغطي كل بوصة من جسدي ما عدا وجهي ويدَيَّ. كان هذا آخر مسمار دُقَّ في نعش طفولتي.

شعرت أني غير مرتاحة للغاية وغريبة المظهر خرقاء الشكل وشاعرة بحر شديد في تلك الملابس الفضفاضة الأكبر من حجمي. كان كل جسدي يختنق. كان رأسي ينبض والعرق ينز من كل مسام جسدي. وكانوا يخبرونني يوميًّا أن ارتداء ملابس الكفار فعل شرير وأني سأذهب إلى الجحيم إذا ارتَدَيْتُ بتلك الطريقة. بالإضافة إلى ذلك، فعندما تقوم الخِلافة لو كنتِ لا تلبسين الحجاب فكيف سيستطيعون تمييزك عن الكفار. فلو كنتِ تشبهينهم فسوف تُقْتَلِينَ مثلهم.

الخلافة. دائمًا يتحدثون عن الخلافة. كان خطبة كل يوم جمعة بيانًا عن أن المسلمين سينجحون في فرض الإسلام على الكوكب كله. وكنا كل أسبوع نقول آمين عندما يدعو الإمامُ اللهَ ويتوسله بزوغ الخلافة قريبًا وأنْ نبيد الكفار ثم سيعم السلام. هذا سبب نشوء داعش في العراق وسوريا، ولهذا قرر الكثير من الأشخاص [المسلمين] من مختلف أنحاء العالم الانضمام إلى داعش ثم أحرقوا جوازات سفرهم، ومنهم ناس يصعب تفسير انضمامهم كطلبة الجامعات الذين هم من عائلات مرموقة في دول غربية. كان تحليل "الخبراء والمثقفين" هو أنهم افترضوا أن هؤلاء الأشخاص جُنِّدُوا كلُّهم من خلالِ الإنترنت. ياله من تجنيدٍ سريعٍ حقًّا!! بيد أن السبب وراء الانضمام السريع جدًّا لكل هؤلاء الشبان والنساء إلى

---

[1] إن استعمال كلمة الحجاب اصطلاحيًّا للتعبير عن غطاء رأس وشعر المرأة المسلمة خطأ، لأن الحجاب هو نظام حجب زوجات محمد مؤسس الإسلام عن باقي المجتمع ولو أن كثيرًا من المجتمعات المسلمة الريفية وحتى قطاع كبير من المدنية تقتدي بهذا النموذج بدرجة كبيرة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)} الأحزاب: ٥٣، أما الخمار فهو الكلمة الصحيحة كاسم ومصطلح لغطاء شعر المرأة المسلمة {وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ ......إلخ} النور: من الآية ٣١، وقد عرضتُ في موسوعة (القبر المحفور للإسلام) بمجلد (مصادر الإسلام الوثنية والزردشتية والصابئية) أدلة على وجود الخمار كعادة وتشريع بين شعوب وقبائل شبه جزيرة العرب الوثنيين قبل الإسلام، فقد ذُكِر في الشعر والسرد التاريخي قبل الإسلام، وكذلك أنباط الشام وشبه جزيرة العرب كما يظهر في تماثيلهم ومنها تماثيل الملكة زنوبيا وغيرها، وفي نصوص عراقية وثنية قديمة قبل عصر المناذرة المسيحيين ودخول المسيحية ثم الإسلام في العراق- المترجم.

داعش هو أنهم ـمثلي_ رُبُّوا على سماع وتلقين أنَّ من واجبهم الانضمام إلى الأمة ضد الكفار، وعُلِّمُوا أنَّ من واجبهم الانضمام تحت راية الخلافة عندما تنشأ. وعلى الأرجح أنهم ـمثلي_ أيضا لم يعتقدوا أنهم سيشهدون ذلك اليومَ أبدًا. لكنها عادت. دولة إسلامية. وما إن برزت إلى الوجود، كان هؤلاء الناس قد تعلموا من قَبْلُ أنَّ عليهم الانضمام إليها. لقد لُقِّنوا هذا وحُفِرَ في أذهانهم منذ طفولتهم.

كانت أمي تجلسني أمامها وتجعلني أقسِمُ بأني سأكون مستعدةً لقتل الكفار عندما يحين وقت ذلك.
وكنت أجيبُها بنبرة رتيبة: "نعم، بالتأكيد".

كان هناك دائمًا نوعٌ من الإكراه حاضرٌ. كنت أرغم على الصلاة وحفظ القرآن وأنْ أقسم بقتل أصدقائي ولبس الخمار (الحجاب) بالتأكيد. لقد استخدموا كل أساليب الإكراه الممكن تصورها، من التخويف والترغيب بإرضاء الله و الابتزاز العاطفي. لقد كان هذا إلى ما لا نهاية. لا تدخل الجنةَ إلا الفتياتُ المسلمات المطيعات. إنْ تلبسي مثل الكفار فإنك تختارين بذلك جهنم. هذا هو كره الذات الذي ملؤوني به منذ سن التاسعة.

كنت قد أخبرت عن حديث يقول فيه الرسول محمد أنه رأى نساءً معلقاتٌ من شعورِهِنَّ في النار وأدمغتهم تغلي، لأنهُنَّ لم يُغَطِّين شعورهن عن الرجال.
و قد أخبروني أن هذا لحمايتي.

"لو كان لك خاتم من الماس فهل ستلبسينه في إصبعك أم ستؤمِّنِينَه في صندوقِ إيداعٍ آمنٍ؟"
"سألبسه في اصبعي"
"لا. هذا غباء. سيستطيع أي أحد سرقته! عليك حمايته من اللصوص".
"إذن ما الفائدة من امتلاك خاتم جميل إذا لم تستطيعي أن تلبسيه أبدًا؟ ما الفائدة منه وهو في صندوق؟"
"كفي عن الجدال! هذا لمصلحتك. سوف تتعودين عليه وتحبينه. ستفهمين عندما تكبرين"
"هل أستطيع الانتظار إلى أن أكبر وأفهم أولًا إذن، لأنني لا......"
"لا. علي أن أفعل ما هو في مصلحتك حتى إن لم تفهمي".

"لم أفهم الأمر قط. كان علي أن ألبس الحجاب لقرابة عشرين سنة تقريبًا ولم أفهم قط. ذهبت لكي أزور أبي في مونتريال في الصيف بين سنتي الدراسة الخامسة والسادسة. لم يفهم هو أيضًا. حاول أن يجعلني أخلعه وقد رغبتُ في ذلك بالتأكيد لكني كنت خائفة من أننا حالما نعود إلى المنزل سوف يشي أخي بي. ولذلك لبست قبعة راعي بقر سوداء طوال ذلك الصيف بدلًا من ذلك. قبل أبي بذلك لأنه لم يكن ذلك الحجاب المقيت. كان شعري مغطى وبالتالي لم يكن لأخي أن يشي بي.

بالعودة إلى المنزل، ففي مدرسة المسلمات كانت كل الفتيات يلبسن الخمار (الحجاب) وكن جميعًا يكرهنه بنفس درجة كرهي له. إنه صحيح أن البؤساء يحبون رفقة بعضهم البعض. وجدنا بعض السلوى في حقيقة أننا كلنا أُرْغِمْنا على ارتداء تلك القطعة من القماش على رؤوسنا. لبسناه كلنا، وقرَّبَنَا ازدراؤنا الخمارَ (الحجابَ) من بعضنا البعضَ أكثرَ.

وفي العصر الحالي بفضل وسائل التواصل الاجتماعي تستطيع النساء اللاتي يكرهْنَهُ عبر أنحاء العالم ويُرْغَمْنَ رغم ذلك على لبسه التواصل معًا وأن يجِدْنَ المواساةَ في بعضهن البعض. ضمن هاشتاغ "حريتي السرية أو المختَلَسة"[١] من إيران كان هناك ڤيديو انتشر جدًّا لفتاة ذات سبع سنوات تصرخ (أو تبكي) وتمزق الحجاب عن رأسها. تذكرني بنفسي، لكنني لم أكن بمثل تلك الشجاعة أو التحدي. كانت غاضبة لأن والديها أخبراها أنها لن يُسمَح لها بالذهاب إلى المدرسة إلا إذا لبست الحجاب على رأسها. بينما يستطيع أخوها أن يلبس ما يريده أيًّا ما يكون بالتأكيد. نشرت الفتيات الصغيرات والنساء البالغات من شتى أصقاع العالم صورًا وڤيديوهات تحت هاشتاغ "منعتقة من الحجاب"[٢]. وكان هاشتاغًا صنعناه لتوفير مكان نجد فيه بعضنا البعض، ونجد فيه التضامن والدعم و_الأكثر أهميةً_ توفير منبر لهنَّ لِيَكْشِفْنَ هذه الوحشية للعالم.

إنه لمن المهم توضيح الفرق بين الثقافة والدين عندما نتحدث عن الحجاب. من الردود الشائعة أن الحجاب "مسألة ثقافية". لكن أي الثقافات يقصدون؟ النساء في إيران والسعودية والصومال وإندونيسيا لا يتشاركْنَ جوانب ثقافية حضارية. ليس بينهن أطعمة أو تقاليد أو لغة مشتركة. الشي الوحيد الذي يتشاركنه هو الدين. تلبس النساء في كل هذه الدول الحجاب بسبب دين الإسلام. ادعاء أن الحجاب لباس ثقافي هو ادعاء بنفس سخافة وخواء الادعاء بأن قبعة البابا لباس ثقافي. الكاثوليك في الفلبين وإيطاليا وقارة أمريكا الجنوبية لا يتشاركون أي خصائص ثقافية لكنهم يتشاركون دينًا واحدًا. يوجد خلط متعمد بين الدين والثقافة والذي لا غاية منه إلا محو الثقافات وإبدالها بالإسلام. لقد خسرت عشرات البلدان ثقافاتها بسبب الإسلام. من المحزن ملاحظة أن فكرة أن كل المسلمين يتشاركون نفس الثقافة لا تزال متغلغلة منتشرة. لا. ليس الأمر كذلك. لكل منهم ثقافتهم المميَّزة بهم التي يغطيها الإسلام بنفس الطريقة التي يخفي بها الحجاب شخصية كل فتاة بحيثُ يَظْهَرْنَ جميعًا متشابهات.

تدعم هذا المحوَ للثقافة الفردية حملاتٌ مثل اليوم العالمي للحجاب في أول يوم من شهر فبراير وهو يوم يحتفل به ناس في شتى أنحاء العالم[٣]. في ذلك اليوم تضع النساء المسلمات أكشاكًا في أماكن العمل والمدارس لتشجيع غير المسلمات على لباس الحجاب لمدة يوم واحد. الرد المباشر على هذا هو أن يكون لدينا يوم نشجع فيه النساء المسلمات على خلع الحجاب ليوم واحد، لكننا بالتأكيد لن نستطيع فعل ذلك. يمكن أن تُقْتَلَ النساء والفتيات لخلعهن الحجاب. أقصى بارڤيز _فتاة ذات ستة عشر سنة_ في كندا خنقها أبوها وأخوها حتى الموت بحجابها الذي رفضت أن تلبسه[٤].

---

[١] آزادى يواشكى زنان در إيران My Stealthy Freedom. هي حركة بدأت كصفحة على الفيسبوك منذ عام ٢٠١٤م تنشر فيها غير الراغبات في لبس الخمار بالإكراه صورهن بدونه على سبيل الاعتراض والاحتجاج.

[٢] #FreeFromHijab

[٣] يجب ألا ننسى غسل الدماغ المنظم عن طريق المجتمعات والإعلام والنظم السياسية والدينية، وما مرت به بعض الدول من تحولات اقتصادية وديموجرافية وثقافية إلى الأسوإ، في بعض المراحل بمصر كان المتطرفون يلقون بماء النار (حمض الكبريتيك) على سيقان وأجساد فتيات المدارس المرتديات لملابس غير إسلامية، وتُجبر الأسر والمجتمعات المسلمة الفتيات والنساء على لبس الخمار بالإكراه بالعنف والضرب والإقصاء الاجتماعي والتكفير والعنف اللفظي والحرب النفسية في أحسن الأحوال وكذلك من جانب السوقة والرعاع يتعرض غير المحجبات للتحرش في حالات كثيرة، ما عدا في الأوساط والأماكن الأكثر ثراءً ورقيًّا.

[٤] أقصى بارڤيز (٢٢ أبريل١٩٩١- ١٠ ديسمبر٢٠٠٧) كانت ضحية جريمة قتل في ميسيسوجا، أونتاريو، كندا. خلال محاكمة القتل، أقر رئيس المحكمة العليا بروس دورنو بأن جريكة القتل جريمة شرف، مشيرًا إلى أنه وجد أنه من دواعي القلق البالغ أن طفلةً تبلغ من العمر ١٦ عاما يمكن أن تقتل علي يد أبيها وشقيقها بغرض إنقاذ كبرياء العائلة، لإنقاذهم مما يعتبرانه إحراجًا للأسرة أو العائلة ". شنق أقصى شقيقها وقاص وأبوها، عندما اختارت عدم ارتداء الحجاب. حيث أثارت الحادثة جدلًا حول مستوى العالم عن وضع المرأة في الإسلام.

ولذلك فقد أعلنتُ يوم الأول من شهر فبراير يوم "عدم ارتداء الحجاب" [أو يوم لا للحجاب][١]، وشجعتُ الجميع على التضامن مع النساء والفتيات عبر أنحاء العالم اللواتي لا يُرِدْنَ لبس الحجاب لكن تُجْبِرُهُنَّ حكوماتُهنَّ ومجتمعاتُهنَّ وأسرُهُنَّ على لبسه. كان اليومُ ناجحًا نجاحًا مُبهجًا! نشرت نساءٌ من السعودية واليمن ڤيديوهات يضعن فيها خُمُرَهِنَّ (حُجُبَهِنَّ) أو نُقُبَهِنَّ تحت أرجلهنَّ أو يحرِقنَها. وبدأت نساء من تركيا بنشر صور لهن في أثناء أيام ارتدائهن الحجاب وبعد خلعهِنَّ إياه. وتُسْجَنُ النساء في ايران، وهن أشجع النساء من بين الجميع، لعشرات السنين لمشاركتهن في حملة "الأربعاء الأبيض". حيث يلبَسْنَ حجابًا أبيض أو يخلعن حُجُبِهِنَّ ليُظْهِرْنَ مقاومتَهن للقوانين التمييزية.

هناك نساء يقاومن [من المجتمعات والأوساط الإسلامية] في كل أنحاء العالم. بعض النساء في باكستان يَرْكَبْنَ دراجاتهن في الأماكن العامة، والنساء في إيران يرقصن في الشوارع، والنساء في السعودية يلبسن عباءاتهن بالمقلوب (الداخل إلى الخارج) للتعرف على بقية المتمردات في الشارع. الرجال يشاركون أيضًا. بعض الرجال في إيران _وبدرجة أقل بكثير في السعودية_ ينضمون لدعم النساء المحتجات على قوانين الحجاب.

بالتأكيد يُعاقَب كل هؤلاء الناس على جرائمهم ضد الشريعة. فإما تعاقبهم عائلاتهم فيما يسمى بالعنف أو القتل من أجل الشرف، أو تعاقبهم سلطاتهم التي تسجنهم لعقود من أجل تحدي القوانين الموضوعة للحفاظ على "الاحتشام".

طالما سمعت الناس يستخفون بالأمر ويتساءلون عن المشكلة في لبس قطعة قماش على رأسك؟ الأمر خطير أنْ يُحْرَمَ النساء حتى من السلطة على أجسادهن! الحجاب ليس إلا غيضًا من فيضٍ وقمة جبل الجليد. إنه مجرد مظهر جسدي للإخضاع والتشييء ونزع الصفة الإنسانية والتمييز الجنسي المنتشر (أو الاستبدادي) الذي هو وضع مشترك عام في العديد من أرجاء العالم ذات الغالبية المسلمة.

بينما وصلت النساء في الغرب الى درجة من الحرية تسمح لهن الآن بالدعوة من جانب بعضهنَّ لحملة "تحرير حلمة الثدي" في الأماكن العامة، فلا تزال النساء في العديد من أرجاء العالم الاسلامي يطالبن بالحرية لوجوههن وشعورهن!

تدعم النساء عمومًا بعضهن البعضَ في الغرب في مقاومتهن، لكن من المهم أن نذكِّر أنَّ في المجتمعات شديدة الذكورية والتي يكثر فيها تعدد الزوجات قلما تدعم النساء بعضهن البعض. كل امرأة منشغلة للغاية بمحاولة إنقاذ نفسها حتى أنها لا تجد متسعًا للتفكير بإنقاذ امرأة أخرى. هذه منظومة موضوعة هكذا على نحو متعمَّد بالتأكيد، لأنه إذا انشغلت النساء بالتنافس فيما بينهن (بما أن أزواجهن يستطيعون التزوج بأربعة نساء معًا) فمن ثَمَّ ينتفي تهديد عملهن المتحالِف ضد العدو المشترك. اجعل النساء يحاربن بعضهن البعض لكي يصرن مشغولاتٍ جدًّا ولا يَجِدْنَ متسعًا من الوقت لتوحيد قواهُنَّ ضد قامعيهنَّ ظالميهِنَّ.

لكن الإنترنت الآن يغير كل ذلك وهذا هام وغير مسبوق. النساء لسن فقط يخلعن حُجُبِهِنَّ علنًا، لكنهن أيضًا يرقصن علنًا ويغنين علنًا ويركبن الدراجات ويركضن في الأماكن العامة. كل هذه الأنشطة البسيطة إما مخالفة للقانون في بعض الدول أو تتأتى عنها عواقب اجتماعية شديدة.

[١] #NoHijabDay

المدرسة الاسلامية

لم أحب المدرسة الإسلامية البتةَ، لكنني كنت أحب أصدقائي. لم تكن أيٌّ منا مقتنعة بالهراء الذي يلقوننا إياه. كنا نختبئ في الحمامات ونُدْخل المِكياج بسرية ونحكي لبعضنا بعضًا قصصًا عن الأولاد والإثارة المشوِّقة المرة الحلوة للوصول إلى مرحلة الحيض، والذي يعفينا مؤقتًا خلال حدوه من الصلوات اليومية المملة. المرأة في حيضها [بحسب الإسلام] نجسة وليس لها أن تصلي ولا أن تلمس القرآن ولا أن تقرأَهُ ولا حتى أن تدخل مسجدًا. يخلقك الله هكذا ثم يحكم عليك بلعنة لأجل ذلك. يا له من عدل!

كانت أمي معلمة الدراسات العربية والإسلامية في تلك المدرسة، ولذلك كانت دائمًا تؤكد على أهمية أن نتصرف ونتخذ دور الأطفال المطيعين. في البداية كانت بقية الفتيات يبتعدن عني. كانت أمي صارمة ولذلك كن متخوفات مني. لكن سرعانَ ما عَلِمْنَ أنني أكرهها بنفس درجة كرههن لها، وأننا يمكننا أن نكرهها معًا.

ولأن صداقتنا كانت قوية للغاية أخبرتني صديقاتي أن ولدًا كان يقول لهم أن أمه تنعت أمي بالعاهرة. حاولت ألا أبالي بالأمر، لكن مهما كان سوء شعورك اتجاه أمك، فهذا أمرٌ يَصعُبُ سماعُهُ.

واجهتُ الصبيَّ وقلتُ له: "لكن أمي لا تعرف أمك حتى".

"بلى. عندما كنا صغارًا حاولت أمك إقناع أبي بالزواج منها. أرادت أن تكون زوجته الثانية! لكن أمي طلبت من أبي أن يتخلص من العاهرة وإلا فسوف تأخذ الأطفال وتتركه".

أنكرت أي معرفة بالأمر، لكن الأمور بدأت تتضح في ذهني. كانت لدي ذكرى مبهمة عن رجل ضخم متعرق عاري الصدر أسود. كان يأخذ أمي إلى غرفة النوم ويغلق الباب عليهما. أذكر أنني كنت أبكي وأخْبِطُ على الباب لكي تخرج. كانت بين الفينة والأخرى تخرج غيرَ مرتديةٍ إلا ملابسها الداخلية لتطلب مني أن أخرس. لم أكن أستطيع فهم هذه الذكرى. سألتها عن الأمر العديدَ من المرات. لطالما كانت تخبرني أنني أختلق الأمور أو أن الأمر كان مجرد حلم. لكنني علمت أن هذا كان حقيقيًّا.

ورغم هذه الذكرى أردت أن أصدق أمي في قولها أن الأمر كله كذبة. لا أحدَ يريد أن يصدق أن أمه مخربة بيوت، ورغم أنني عدت الى المدرسة اليومَ التاليَ لأخبر ذلك الفتى أن الأمر اختلط عليه، كان لدي إحساس مزعج بأن أمي هي الكاذبة الحقيقية في هذا السيناريو. لكن ومثل كل مرة نجحت كلمات أمي في أن تكون أقوى من الحقيقة.

أعلم الآن أنها منذ أن تركها والدي ظلت تحاول باستماتةٍ أن ترتبط برجل آخر. لقد استخدمت السلعة الوحيدة التي كانت لديها لتعرضها. لستُ مستغربةً من مدى قلة التقدير التي كانت لديها اتجاه نفسها. فقد رُبِّيَتْ في ثقافة ذكورية وبها إمكانية تعدد الزوجات والتي علمتها أن قيمتها الوحيدة تقتصر على ما بين فخذيها. لم تحاول قط أن تنمي أي جزء من ذهنها أو شخصيتها.

شخص بمثل هذا الفراغ هو المادة الخام والوعاء المثالي لملئه بالتطرف الديني. أمي كانت متدينة متزمتة نمطية. لا تعاطف ولا شفقة ولا منطق بإمكانه اختراق أسوار عقل المتزمت. لا توجد تكتيكات أو مناورات للوصول إلى جانبٍ إنسانيٍ يكون فيهم. إنهم مبرمَجون لكي يتَّبِعوا ولا شيء يمكنه التشويش على ذلك الهدف المتصلب الذي هو الشاغل الوحيدُ لأذهانهم.

أكثر ما كان يخيفني منها هو أنها كانت قادرة على تزويجي بالإكراه إلى رجل عجوز في مصر. كانت تهددني بذلك باستمرارٍ. وكنت أعرف أنها إذا اتخذت ذلك القرار فسينتهي أمري. فما كان لِيكوُنَ هناك مهربٌ ولا نقاشٌ. كانت لتجرني جرًّا لكي تنفذ رغباتها كما كانت تجرني وتجبرني على أمور كثيرة رغمًا عني ذلك في السابق.

وبما أن المدرسة الإسلامية كانت تنتهي في السنة الدراسية السابعة (الثاني الإعدادي)، فقد كان كل الأولاد متشوقين لدخول المدرسة الثانوية، لكن الفتيات كن خائفات مما سيحدث لهن. كان الصيف قبل المدرسة الثانوية معروفًا بأنه الصيف الذي كانت تختفي فيه الفتيات. كان الوقت المثالي لإعادتهن إلى بلدانهن دون أن يلاحظ أحد. و في الحالات القصوى كان وقتًا ذا شعبية لارتكاب ما يُسمَّى بحالات القتل من أجل "الشرف". إن بعضهم يرتكب هذا في العادة كرد فعل على كون الفتاة "غربية الطباع[1] أكثر من اللازم". لكنْ كان الأكثرَ شيوعًا بكثيرٍ التهديدَ بالتزويجِ. كل فتاة مسلمة عرفتها في حياتي من المألوف لديها عبارة "سأعيدك إلى البلاد لكي نزوجك". كان هذا أكثر بكثير من مجرد تهديد فارغ بالنسبة لنا. كنا نعرف أن هذا ممكن جدًّا.

تأكدت كل مخاوفي عندما أُرْسِلَتْ صديقتي المفضلة إلى فيجي[2] لتُزَوَّجَ. كنت خائفة عليها وعلى نفسي. لم يكن هنالك إيميل (بريد إلكتروني) أو وسائل تواصل اجتماعي آنذاك. لم تكن هنالك أي وسيلة لإنقاذها ولا للاتصال بها آنذاك. ما أنْ تُنقَل إحداهن إلى دولة أخرى حتى يصير الأمر كأن الأرض قد ابتلعتها.

[1] أو بترجمة عربية أخرى: متفرنِجة، متبنية لملابس وطريقة حياة وتقاليد وثقافة وقيم الغربيين، أو متبنية بعض ذلك.

[2] جمهورية جزر فيجي: دولة جزرية في ميلانيزيا في جنوب المحيط الهادئ على بعد نحو ٢٠٠٠ كلم شمال شرق الجزيرة الشمالية لنيوزيلندا. فأقرب جاراتها فانواتو إلى الغرب وكاليدونيا الجديدة التابعة لفرنسا إلى الجنوب الغربي وكرماديك التابعة لنيوزيلندا إلى الجنوب الشرقي وتونغا إلى الشرق وواليس وفوتونا التابعة لفرنسا وساموا إلى الشمال الشرقي وتوڤالو إلى الشمال.

الخيانة

لارتعابي من أن يرسلوني لتزويجي، ابتلعت كل أسئلتي وشكوكي وواصلت لعب دور الابنة المسلمة المطيعة. بالنسبة للسنة الدراسية الثامنة (الثالثة الإعدادية) أدخلوني المدرسة الإعدادية الحكومة المحلية. فوجدت نفسي مرة أخرى في حاجة إلى تكوين صداقات جديدة في بيئة تعليمية جديدة. و ما صعَّب الأمور أكثر هو أنني دخلت المدرسة الإعدادية لأول مرة لابسةً قماشة على رأسي. لم يكن الأمر مثل المدرسة الاسلامية حيث كان الجميع يلبسْنَ تلك القماشة، ومن ثم لم أتعرض الى أحكام من الآخرين. أما الأمر في هذه المدرسة فقد كان مختلفًا. ما كان أحدٌ ليراني فيها على حقيقتي، بل كان كل ما يرونه هو قطعة القماش الغبية تلك، والتي كانت تعرِّفُني وتحدد هويتي. كنت غاضبة جدًّا بسبب هذا. لم تكن هذه حقيقتي. لم تكن هذه هي الصورة التي أردت أن أُرِيَها للعالم.

كنت مصممة على التحدي والاجتهاد والتألق رغم قطعة القماش البشعة التي تعلو رأسي. كوَّنْتُ صداقاتٍ جديدةً وعلاقات وثيقةً مقرَّبة ملأتني بالسعادة. وقد صرت أعتز بهذه الصداقات أكثر لأني أدركت أنهم كانوا يتجاهلون تلك القماشة لكي يتعرفوا على شخصيتي أنا. لم يسمحوا لتلك القماشة بأن تَكُونَ حاجزًا كما أُريدَ لها أن تكون. لم يسمح أصدقائي لها بأن تحدد من أنا. لقد تعرفوا عليَّ وقبلوا بي وأحبوني لذاتي.

كان هذا بالضبط عكس ما ظنت أمي أنه سيحدث. أذكر كيف كنت أدون بابتهاجٍ أسماء كل أصدقائي. ولأني أتيتُ من مدرسة صغيرة للمسلمات إلى مدرسة إعدادية/ ثانوية كبيرة فقد ذُهِلْتُ من عدد الأصدقاء الجدد الذين صاروا (وصِرْنَ) لي. سألتني أمي ما الذي أفعله وعندما أخبرتها شحبَ وجهها وبدا عليه الإحباط ثم قطَّبَت وجهها في غضب. فاختطَفَتْ الورقة من يديَّ وقرأتها بغضب متَّقِد. لكنني كنت قد توقعت هذا فلم أكتب أسماء أي من الأولاد في الورقة. لم أكن غبية.

لكن هذا لم يكن شاغلها ومصدر قلقها. لقد مزقت الورقة ساخِطةً لأنني سأكوِّن صدقاتٍ مع الكثير من الكفار. أعتقد أنها كانت قد افترضت أنني سأكون انطوائية. لقد ظنت أن التلاميذ لن يريدوا مصاحبة فتاة عجيبة لديها شيء على رأسها. لقد حسِبَتْ أنه لا ضير في إرسالي لمدرسة مليئة بالكفار لأنهم سينبذونني في كل الحالات، ثم سأشفى [من حبي لهم]. ظنت أنهم كانوا ليكرهونني ويرفضونني وأني لن يكون لدي خيار إلا أن أبادلهم الكراهية والرفض بالمقابل
.

حاولت أمي في البداية إخراجي من هذه المدرسة على نحوٍ فوريٍّ. لقد هددتني بهذا لكنها لم تفعله. لكنها بدلًا من هذا أخبرتني بأن أستمتع بآخر سنة لي في المدرسة لأنني لن أعود اليها أبدًا. أرعبني هذا. إذا أخرجوني من المدرسة _التي هي صلتي الوحيدة بالعالم الواقعي_ فلن أعرف طعم السعادة ثانية. كنت يائسة. غلبني حزنٌ وخوفٌ لم يكونا قد غادراني حتى عندما كنت في المدرسة. في العادة، كانت شخصيتي تتغير بين شخصية المدرسة وشخصية المنزل، بين الأبيض و الأسود، لكنني حينذاك كنت قد صرت رمادية طوال الوقت.

سألني السيد/ فابيرو مدرس مادة المسرح إن كنت على ما يرام. سؤاله مسَّنِي كمشعل ضوء في بئر مظلم عميق. كنت سعيدةً للغاية بإخباري له بكل شيء. لم أتراجع. قابلته وأريته آثار الضرب والكدمات والتورمات على ذراعَيَّ. وفي نوع من الحبكة الأورولية (نسبة إلى الكاتب جورج أورويل) وبعد بضعة أيام اندفع زوج أمي إلى مكتب ناظر المدرسة في

حنق وهو يحتج غاضبًا لأن السيد/ فابرو الذي رأى ذراعي. كم هو وقح. كيف يتجرأ هذا المدرس الذكر على رؤية الكدمات والتورمات التي تسبب بها هو لهذه الطفلة! كانت المشكلة الكبرى _بحسب اعتقاده_ هي أن رجلًا لست متزوجة به رأى ذراعي وليس أنه هو ضربني.

وكأستاذ في مدرسة حكومية، فقد كان على السيد/ فابرو واجب قانوني بإبلاغ السلطات إذا علِمَ أن قاصرًا يتعرض أو تتعرض لخطر جسديّ. استجوبتني الشرطة وموظفو الشؤون الاجتماعية و أخبرتهم جميعًا كيف كان "عمي" يضربنا بلا رحمة. أخبرتهم كيف كان يدخل غرفتي _ودون أي استفزاز مني_ يفرغ عليَّ جام غضبه وتوتراته اليومية. كان ينزع حزامه ويضربي حتى يملأ جسدي بالكدمات. ورغم أنني لم أحس بها في وقت الضرب[1] إلا أن التورمات والندوب بقيت كدليل على أحداث الضرب.

حذرني السيد/ فابرو أنني اذا اتخذت هذا السبيل فقد ينتهي بي الأمر في دار للرعاية وأنني قد لا أرى عائلتي ثانية أبدًا. وسألني إن كنت مستعدة لذلك. كنت متحمسةً جدًّا. كدت أطير من الفرح ابتهاجًا باحتمالية ألا أضطر لرؤية هؤلاء الأشخاص مجدَّدًا. كنت أتمنى فقط أن جرس الانذار الذي قرعته سيحميني من إخراجي من المدرسة. تفكرت: "هل أقبل بأن أُؤخَذ من منزل الأسرة؟.... هل تمزح معي؟ بلا شك، لا شيء في العالم يمكن أن يسعدني أكثر من ذلك!". ونبهني أيضًا بأني سيتوجب علي أن أكون قوية وأن عليَّ أن أكون مستعدة للوقوف أمام المحكمة وأن أخبر القاضي بكل ما أخبرته هو به. أذكر دائمًا أني وعدته بأن أظلَّ قوية. تخيلت أني سأشير إليه بشجاعة في المحكمة كأنني في حلقة من ماتلوك"[2]. كنت مستعدة.

انتقل التحقيق من مقابلات معي في المدرسة إلى استجواب الشرطة للجميع في بيتنا. بصقت أمي حرفيًّا في وجهي وقالت لي بأنها تكرهني للغاية. لكنني ظللتُ قوية. وأخيرًا رأيتُ بصيصًا من الضوء يومِضُ عبر طبقات الخرسانة، وكنتُ في طريقي لأن أصبح حرة!

كان جزء مني مستغربًا من أنها لم تكن أكثر دعمًا لي ولو قليلًا. كانت دائما تتصرف وكأنه لا قوة أو سيطرة لها لمنعه من ضربنا، وكأنها لم يكن بوسعها فعل أي شيء اتجاه ذلك. حسنًا، ها أنا أفعل شيئا حيال هذا!. عندئذٍ اكتشفت أنها كانت تكذب وأنها في الحقيقة كانت تخدع وتُراوِغ. بالتأكيد كانت تعلم جيدًا ما الذي يفعله بنا لكنها تظاهرت بأنها ليس لديها فكرة وأنها عديمة الحيلة، لأنها لم تُرِد أن نكرهها. لقد استحقت كرهنا حقًّا، وقد كانت جبانة.

عندما استجوبتها الشرطة أنكرت كل شيء وادعت أني كاذبة. فعل أخي وأختي نفس الشيء. كما كذبَ طفلا منير أيضًا. من بين خمسة أطفال كنت أنا الوحيدة التي تقول الحقيقة. وبأكاذيبهم كانوا جميعًا يحكمون علي بالبقاء في هذه النوعية من الحياة. لقد كانوا خائفين للغاية من عواقب قول الحقيقة. لقد أدركتُ أن هناك احتمالًا أني لن أتمكن من مغادرة المنزل، وأني لن أُوْدَعَ ملجأ رعايةٍ للأطفال، وأني سوف ينتهي بي الأمر بأن أواصل العيش معهم بعدما حاولت

[1] بحسب قول المؤلفة لأنها _كما قالت أو زعمت_ تدربت على تعطيل الشعور الجسدي بتدريب أو مهارة ذهنية لها وجود بالفعل عند البعض.

[2] ماتلوك Matlock مسلسل دراما قضائية أُنتِجَ في الولايات المتحدة. يلعب فيه أندي جريفيث دور محامي الدفاع الجنائي بين ماتلوك. وهو مسلسل نجح بشعبية كبيرة في الغرب فقد استمر لتسعة مواسم كاملة من ٣ مارس ١٩٨٦ حتى ٨ مايو ١٩٩٢ على قناة NBC، وعُرِضَ على قنوات أخرى كذلك.

الزج به في السجن لجريمة إساءة معاملة طفلة والتحرش بها. كانت هذه أكثر الأفكار رعبًا التي سكنت ذهني طوال حياتي.

حكم القاضي بأن العقاب الجسدي ليس مخالفًا للقانون في كندا وأنه بسبب "ثقافتنا" قد تكون هذه العقوبات أحيانًا أقسى من غيرها في عموم العائلات الكندية. أكثر أفكاري رعبًا والقابعة في ذهني صارت واقعًا بضربة سريعة من مطرقة القاضي. لم أشعر قط بخيانة شديدة لي في حياتي مثلما أحسست بها ذلك اليوم. لقد كان هذا أملي الوحيد وقد حُطِّمَ. كم من المقزز أن تسمح بتعرض طفل للضرب والتعذيب لمجرد أن المعذب مسيء المعاملة صودِفَ أنه أتى من بلد آخر. ما علاقة هذا بالأمر؟ لكل الأطفال الحق في الحماية. يحس كل الأطفال بنفس مقدار الألم الجسدي والعاطفي والنفسي بصرف النظر عن اختلاف ثقافات أسرهم. الضرب والتحرش الجنسي لهما نفس الضرر على كل الأطفال أيًّا ما كانت ثقافتهم. هل كان ليطلق سراح معذبي والمتحرش بي إذا كان من أصل جرماني (ألماني) أو هولندي؟ أما كان لِيُسْجَنَ؟ كيف يمكن أن يكون هناك أي منطق في هذا؟

لا تزال هذه القوانين ساريةً في كندا. لا أستطيع حتى تصور عدد الأطفال الذين يُتجاهَلُون ويعاد إلقاؤهم إلى عرين الأسد مثلما حدث لي. تواصل معي العديد من موظفي الشؤون الاجتماعية المختصين في مواجهة إساءة معاملة الأطفال لإبلاغي بشدة أسفهم. منهم رجل انزعج للغاية لحقيقة أنه مضطر للتخلي عن طفلة لِتتعرضَ[1] للعنف والتحرش إلى درجة أنه غيَّرَ عمله في الوزارة. فهو لم يعد يستطيع القيام بذلك. أخبرني أنه تسكنه آلام الذكريات على ما أُرْغِمَ على فعله لمدة ٣١ سنة . الأشخاص الذين يكرسون حيواتهم لحماية الأطفال يُجْبَرون على ترك الأطفال يتعرضون للتعذيب والتحرش لأن حكومتهم شغلها الشاغل الذي لا يهمها سواه هو النسبية الثقافية والأخلاقية. الحاجة إلى أن يبدوا "مؤيدين للتنوع الثقافي" تطغى على الحاجة إلى إنقاذ الأطفال الذين هم من لحم ودم من العنف.

دولتي، في مسعاها إلى أن تكون ذات "حساسية ثقافية" انتهى بها الأمر الى التعصب الشرير اتجاهي. لقد علمتُ أني لو كنت أتيت من عائلة ذات والدين "أبيضين" لكنتُ حُمِيتُ. هذه النتيجة الطبيعية لفكر اليساريين الرجعيين أو النكوصيين[2]. فعندما تصبح عقولهم منفتحة أكثر من اللازم تقع منها أدمغتهم. إنهم لا يرَوْنَ إلا لون بشرة وعرق وإثنيَّة[3] مرتكب الجريمة وليس جرائمه التي ارتكبها.

[1] هنا اللام لام المآل والمصير، وليست لام التعليل.

[2] اليسار الرجعي (وأيضاً الليبرالية الرجعية): كنية ازدرائية تطلق على جناح من اليساريين المتهمين بالتناقض مع أنفسهم والتبشير بأفكار رجعية بتصالحهم مع مبادئ وأيديولوجيات غير متحررة، خصوصاً تصالحهم مع الإسلاميين ومع العنصرية المعكوسة بدعوى تعدد الثقافات والنسبية الثقافية. شارك سام هارِسْ وماجد نواز في منتدى عام استضافه معهد السياسة في جامعة هارفارد في سبتمبر من عام ٢٠١٥، والذي نُشر لاحقًا في كتاب قصير بعنوان الإسلام ومستقبل التسامح (٢٠١٥). أشار الكاتب السياسي بريان ستيورات في مراجعة للكتاب في مجلة ناشونال ريفيو أونلاين، إلى أنه وفقًا لكل من ماجد نواز وسام هارِسْ فإن «اليساريين الرجعيين» في الغرب يتجاهلون حقيقة أن الجهاديين والإسلاميين يشكلون نسبة كبيرة (٢٠% في تقدير هارِسْ) من المجتمع المسلم العالمي والأقلية المسلمة داخل الغرب، على الرغم من أن هذه الفصائل تعارض القيم الليبرالية مثل الاستقلالية الفردية وحرية التعبير والديمقراطية وحقوق المرأة وحقوق المثليين، إلخ. ندد نواز وهارِسْ بالموقف الانعزالي غير الليبرالي المتناقض تجاه أي انتقاد لهذه الظاهرة، التي يعتبرانها تخليًا عن القيم الليبرالية العالمية، وعن دعم الأفراد الليبراليين الأكثر ضعفًا الذين يعيشون في المجتمع المسلم، مثل النساء والمثليين والمرتدين والدفاع عنهم. استخدم سام هارِسْ في أكتوبر ونوفمبر من عام ٢٠١٥، المصطلح مرارًا خلال محادثاته مع وسائل الإعلام، قائلًا إن الخطر الأكبر هو أن «اليسار الرجعي» مستعد للتخلي عن حرية التعبير «خوفًا من الإساءة للأقليات»، الأمر الذي سيؤدي إلى الرقابة التي تفرضها تلك الأقليات، نقلًا عن تصريحات الصحفي الأمريكي چلين چرينوالد حول حادثة الهجوم الإرهابي على صحيفة شارلي إبدو كمثال. يعتبر هارِسْ أن رضا أصلان ونعوم تشومسكي من اليسار الرجعي.
ذكرت صحيفة واشنطن تايمز في أكتوبر عام ٢٠١٥ أن كلًا من الممثل الأمريكي الكوميدي ومقدم البرامج بيل مار وعالم الأحياء البريطاني والمؤلف الملحد ريتشارد دوكينز «يرثي اليساريين الرجعيين الذين فشلوا في فهم أنهم ليسوا ليبراليين عندما يتعلق الأمر بالإسلام».

[3] المجموعة الإثنية (أو الإثنية، أو العرقية "حسب الترجمات العربية") هي فئة من الناس الذين يُعَرِفون بعضهم البعض على أساس أوجه الشبه مثل السلف، اللغة، المجتمع، الثقافة أو الأمة. عادة ما تكون الإثنية حالة موروثة على أساس المجتمع الذي يعيش فيه الفرد. الانتماء إلى مجموعة إثنية يميل

إذا رفض صاحب مخبز أبيض أن يخبز كعكة حفل زفاف لزوج من المثليين فسينعته الجميع بالتزمت ويؤكدون أن هذا أمر غير مقبول. لكن عندما تفعل مخابز المسلمين ذلك يكون ردُّ الفعلِ الصمتَ المطْبِقَ. انها ثقافتهم وعلينا احترام معتقداتهم وإلا صرنا إسلاموفوبيين متعصبين!

لا يوجد غباء أو ازدواجية في المعايير أكثر من هذا في العصر الحالي. علينا أن ننظر إلى الفعلة والحادثة، لا لون بشرة أو عرق أو إثنية أو دين مرتكب الفعل. لا علاقة لهذا بالأمر. الفعل غير الأخلاقي يظل غير أخلاقي بغض النظر عن هوية فاعله. يجب علينا جميعًا أن ننتقد التعصب والتمييز الجنسي وتعنيف الأطفال وكل الأفعال الأخرى المعادية للإنسانية. لماذا نهتم بهوية مرتكب الفعل؟ في كل الحالات فإن الفعل خاطئ بنفس الدرجة. إن خفض سقف التوقعات[١] [اتجاه فئة من البشر] هو أشنع أنواع العنصرية وعلينا أن نحاكم كل البشر حسب نفس المعايير.

كانت هذه أول مرة في حياتي أحاول فيها أن أستقلَّ بنفسي. كنت قوية وكنت مصرة على أن أنظر الى منير في عينيه في المحكمة لكن لم تسنح لي الفرصة قط. بالكاد وقفت قليلًا على قدمي للحظة قبل أن تقطع دولتي رجلَيَّ وترغمني على العودة إلى الجثوِّ على الأرض. تركني هذا شاعرةً بأن هذا مكاني الطبيعي الذي سأمكث فيه الى الأبد. كنت أكثر من محطَّمة. أحسست بصدقٍ أن ذلك كان أملي الوحيد ولم يكن لي أي أمل آخر. لم يكن لدي أي شيء آخر أعيش لأجله.

سوف أُعاقَب بقسوة على خيانتي بني قومي والتجائي للكفار. فهذه أعلى درجات الخيانة. كانوا دائما يعلمونني أن الحياة معركة بيننا وبينهم. وأنا قد لجأت للعدو لطلب المساعدة. هذا كان أمرًا لا يُغْتَفَر.

للإسلام مفهوم متصلب جدًّا عن القَدَر. كل شيء مقدَّر مسبقًا. كل مسعى لمحاولة لصنع قدرك بنفسك لا معنى له. ما يريده الله سيحدث في النهاية. كل حياتك مكتوبة قبل حتى أن تتنفس نفسك الأول وقد قوَّى ومتَّنَ هذا الموقف هذه التعاليم والمعتقدات فيَّ. لم أكن مسيطرةً ولا قادرةً على تغيير نصيبي في الحياة. كان علي فقط أن أقبَلَ فقط أن هذا ما أراده الله. لم يكن هنالك أي معنى أو منطق في مواصلة المعركة.

أخرجتني أمي من المدرسة في نهاية تلك السنة كما كانت قد توعدت. كل ما فعلتُهُ ذهب هباءً ولم يُجْدِ. قبلت بالأمر الواقع. لم أعد أحس بالعالم من حولي. عندما تسلب الناس إحساسهم بإرادتهم الحرة فإنك تسلبهم أي دافع لمواصلة المقاومة. ما الجدوى؟ لن يضعوا نصب أعينهم أي أهداف أو يحاولوا تحقيق أي شيء لأن لو كان ذلك مقدَّرًا له أن يحدث فسوف يحدث. فيسيرون دون تفكير عبر الحياة التي تنكشف أمام أعينهم دون أمل أو محاولة لتغيير حيواتهم.

إلى أن يكون محددًا بالاشتراك بالتراث الثقافي، أو السلف، أو أسطورة الأصل، أو التاريخ، أو الوطن، أو اللغة، أو اللهجة، الأنظمة الرمزية مثل الميثولوجيا والطقوس، المطبخ، أسلوب الملابس، والفن. المجموعات الإثنية المستمدة من نفس تأثير المؤسس التاريخي، غالبا ما تستمر في تكلم لغات مرتبطة وتتبادل تجميعة الجينات متماثلة. عن طريق التحول اللغوي، التثاقف، والتبني، يمكن أحيانا للأفراد أو الجماعات ترك مجموعة إثنية معينة وأن يصبحوا جزءا من مجموعة أخرى (باستثناء المجموعات الإثنية التي تؤكد على النقاء العرقي كمعيار أساسي للعضوية. يعتبر العرق والإثنية مفاهيم متصلة. غالبا ما يفترض أن تكون الإثنية نوعا من الهوية الثقافية لمجموعة ما، كثيرا ما تقوم على أساس النسب واللغة والتقاليد الثقافية، في حين يفترض أن يكون العرق تصنيفا بيولوجيا صارما يستند إلى الحمض النووي والبنية العظمية.

[١] عبارة أو مصطلح مستمد من جملة للكاتب والخطيب التلفزيوني الأمريكي مايكل جيرسون Michael Gerson في قوله (التعصب الناعم الخاص بخفض سقف التوقعات) "the soft bigotry of low expectations".

بعد سنوات كثيرة، بعد ثلاثين سنة، عاودت الاتصال بالسيد/ فابرو. لحظةَ رأيتُه انفجرتُ في البكاء. لم يكن لديه أي فكرة عما حدث لي. لقد افترض أني قد أودِعْتُ دارَ رعايةٍ. كاد لا يصدق أن النظام القضائي قد خذلني. قضينا اليوم في المطعم الذي يعمل به ابنه مديرًا تنفيذيًّا وتحدثنا عن كل شيء. دعاني أنا وزوجي الى بيته حيثُ قابلنا زوجته. تذكرت هي أيضًا تلك الأيام التي مر عليها الكثير من الزمن. كان الأمر أشبه بالحلم. كنتُ سعيدة للغاية وتجتاحني المشاعر بعودته إلى حياتي. قضيت اليوم التالي لأن كل الذكريات عادت إلى السطح واندفعت إلى رأسي بعدما قابلته. بكيت لأجل تلك الفتاة الصغيرة [التي كنتُها]. قبل أن أغادر بيته قال لي السيد فابرو باقتناع: "كنت لأتبناك".

"نعم كنا لنفعل ذلك" وافقته زوجته.

تحطم قلبي لذلك إلى شظايا. كم كانت حياتي لتكون مختلفة.

لم تسمح لي أمي بالعودة إلى المدرسة السنة التالية. وبحلول الوقتُ الذي عدتُ فيه لها، كان السيد فابرو قد غادر. لم يتقاطع طريقانا مجددًا إلى أن بدأت كتابة هذا الكتاب.

الأمهات

قضيت سنتي الدراسيةَ التاسعةَ أجول مع أمي في المدرسة الاسلامية كمساعدتها الخاصة. إذا كانت قد رُقِّيَتْ إلى منصب رئيسة قسم الدراسات العربية والإسلامية. و أخيرًا صار لها دور في المجتمع تنال فيه التقدير والاحترام. كانت تأخذ عملها على محمل الجد وتتخيل نفسها على أنها أحد أعمدة المجتمع. ولفترة طويلة ظل هذا الدور الذي تلعبه متماسكًا قويًّا. فاقتنع الناس به وساعدوها على لعبه، وعاملوها باحترام وتقدير ومهابة.

أخذت المدرسة الإسلامية تكبر أكثر يومًا بعد يوم. وسرعان ما صارت هناك حافلات مدرسية تجلب أطفالًا من مناطق تبعد أميالًا. كنا لا نزال ليس لدينا منهج تعليمي مناسب أو فصول أو أي شيء يجعل منها مدرسةً. في لحظةٍ ما، لاحظت الدولة ذلك، وصارت المدرسةُ مهددةً فجأةً بالإغلاق. لكن ما لبث أن أخذت الأموال تتدفق من المملكة العربية السعودية. فمكَّنَ ذلك المالُ من تشييد مبنيين مخصصين لمدرستين ابتدائية وثانوية مجهزتين بأحدث التكنولوجيات المتاحة. ومع المال السعودي أتت أيضًا التعاليم الدينية السعودية الوهابية. المسلمون المتطرفون أو الأصوليون الذين سمعتم عنهم بلا شك. أولئك الذين يفجرون المباني ويحرقون أطفال المدارس أحياءًا ويلقون بالمثليين من على أسطح البنايات. كلهم ينتمون الى نفس المدرسة الفكرية.

أُعْفِيَ المدير الهندي السابق من مهامه وحلَّ محلَّهُ مصريٌّ ذو لحية طويلة وله زوجة تغطي كامل جسدها حتى وجهها ويديها بالأسود. كانت أول مرة نرى فيها منظرًا مماثلًا، وكان بعض الأطفال يلقبونها بالبطريق أو الخُفَّاش، والبعض الآخر بالنينجا.

صار لأمي عدوة حينذاك. مصرية مثلها من بلدها تحاول الانقضاض وانتزاع مكانتها منها كقائدة للنساء في مجتمعنا. توقف الناس عن طلب النصح من أمي وصاروا يُقبلون على النينجا بدلًا منها. كانوا يعتبرون النينجا أكثر تقوى من أمي لأنها تغطي مساحة من جسدها أكثر من أمي. لم أكن أكترث للمنافسة التي تخوضُها أمي، بيد أنها حاولت إقحامي في الموضوع، لكني كنت متآمرة لا فائدة منها. فقد كنتُ تخليت عن الحياة ولم يعد لدي ما أعطيه.

كانت تراودني أفكار انتحارية يوميًا لكن لم تكن لدي الطاقة لتحقيقها. كنت صَدَفةً خاويةً. لم يعد يتبقى لدي حتى أي غضب. كنت أمر كشبح وكريشة عبر تيارات الحياة، وكان كل شيء فاقدًا لطعم ولون الحياة. لم تكن لدي رغبات أو آمال أو طموحات أو أفكار أو أحاسيس. كنت فقط موجودة.

نجحت أمي _بمساعدة النظام القضائي لكولومبيا البريطانية_ في كسري وكانت فخورةً بذلك. كانت تفاخر بذلك وهي تأمرني بالقيام بعملٍ مهين تلو الآخر. لم أقاوم قط وكنت أقوم بما يُطْلَب مني. تطلب الأمر منها عشر سنوات لكنها في النهاية أخضعتني. كانت في الصباح تأمرني بأن أركع عند قدميها وأقبلهما. ثم أعد لها شاي توينيجز لوس إيرل جري[١] بحسب ما تحدده وتحبه. أي مقدار غير مضبوط يعرِّضني لضربةٍ على رأسي. ذات مرة تحطم الكوب بفعل الحرارة وامتلأت عيناي دمًا إذ نزفت الجروح منهما كالنافورة. توسلت إليها أن تتصل بالإسعاف لكنها رفضت.

[١]شاي أسود ذو نكهة حمضية ليمونية معد بنكهة فاكهة البرجموت (برتقال البيك، الليمون الشعيري).

صرخَتْ فيَّ: "بالتأكيد! حتى يلقوا بي في السجن، أليس كذلك؟ أتعتقدين أني لا أعرف ما تريدين؟ أتريدين أن تجربي مرة أخرى؟"
صرت العدوة وكنت أُعامَل على ذلك الأساس.

يوميًّا _بينما كنت أمسد قدميها_ كانت تخبرني كيف أنني دمرت حياتها. كيف أنها لم تُرِد لي أن أولد. كيف أنها تمنت أني لم أولد قط. كيف أني لم أجلب لها إلا وجع القلب.كيف أن وجودي لم يسبب لها إلا البؤس. كيف أنها لن تتمكن أبدًا من التخلص مني لأنه لا يوجد أي رجل يريد أخذي منها. كيف أني سمينة وقبيحة ولا أستحق حب أي أحد. كانت حقنة وريدية من السم والتي لم تتوقف أبدًا.

بعد العديد من السنوات وعندما صرت ناشطةً في المجتمع المدني لاحظت أن هذا الأمر مشترك. فالعديد منا نحن الفتيات أساءت لنا أمهاتنا وآذيْنَنا نفسيًّا. المرأة التي لا سلطان لها على حياتها تتوُقُ إلى التحكم، وتوجد فقط مجالات قليلة تكون فيها سيطرتها مقبولة. في حدود عائلتها المباشرة وأقاربها الأقربين لا يحق لها ممارسة السلطة على زوجها أو ابنها لكن لها أن تفعل ما تريد ببنتها. فتفرغ جام عدوانيتها وإحباطاتِها في ذلك الاتجاه الوحيد.

و بما أنه بحسب الحديث "الجنة تحت أقدام الأمهات"[١] فإن للأمهاتِ أن يُقرِّرْنَ مصير أبنائهن بين الجنة أو الاحتراق في الجحيم إلى الأبد. هذه سلطة هائلة جدًّا بالنسبة لاستخدامها على طفل. يمكن أن يكون لهذه السلطة نتائج تراجيدية مأساوية إذا تحصلت عليها أم مسيئة. حيث يمكنها أن تسيء استغلال هذه المكانة وتستعملها للتحكم والتلاعب. عليك أن تصبحي أَمَةً (أو عبدًا) مطيعة لتحصلي على عطفها ودعمها وقبولها ولكي _وهذا الأهم_ تدخلي (أو تدخل) الجنة ذات يوم. ولها أن تسحب منك مباركتها متى شاءت ومن ثَمَّ تتحكم فيك طوال الحياة.

شاهدت مؤخرُا فيلمًا تماهيت معه كثيرًا اسمه "ما الذي سيقوله الناس". الفيلم حول فتاة باكستانية بريطانية تُرِكَتْ في باكستان ضد إرادتها. لقد شعرت بالعجز وقلة الحيلة. في مشهد من الفيلم تضرب دون سبب قِطًّا بعنفٍ. إنه مشهد قصير لكنه من النوع الذي يعلق بذاكرتك. في ذلك المشهدِ رأَيْتُ فتاةً صغيرةً لا سلطان لها بتاتًا على حياتها تبحث عن متنفس. لقد كان فيلمًا يصيبك بالغثيان وانقباض القلب. لكنه واقعي دون تجميل.

في بيتنا كنت أنا القطة. كان الأمر كأن أمي كانت تسمتع بطريقة سادية بتعذيبي. كان ذلك يرضي حاجةً مَرَضِيةً لديها. و_للأسف_ لم تكن هي الوحيدة. عندما تحدثت مع نساء مسلمات سابقات وجدت أن هذا النمط السلوكي شائع لدى الأمهات المسلمات على نحو ملحوظ. أخبرتني بعض النساء السعوديات كيف أن أمهاتهن كن يحبسنهن في غرفهن لأشهر. هذا يَسْهُلُ فِعلُه على نحو غير عادي في بلد مثل المملكة العربية السعودية حيث لا توجد أي حماية قانونية للفتيات اللواتي تُساء معاملَتُهُنَّ. أخبرتني امرأة أخرى كيف أنها بعد هروبها الى الولايات المتحدة الأمريكية بدأت تواعد

[١] هذا الحديث وإن كان إسناد لفظه ضعيفًا إلا أنه ورد بمعناه حديثٌ آخر صحيح؛ رواه الإمام أحمد في مسنده، والنسائي -واللفظ له- وابن ماجه في «سننهما»، والطبراني في «المعجم الكبير» بإسناد حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأقره المنذري، من حديث معاوية بن جاهمة: أنه جَاءَ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ، وَقَدْ جِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ، فَقَالَ: "هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ"؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "فَالْزَمْهَا؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلِهَا".
من الشروح: قال الإمام المناوي في (فيض القدير): "الأمهات يُلتمس رضاهن المبلغ إلى الجنة بالتواضع لهن، وإلقاء النفس تحت أقدامهن والتذلل لهن".
وأما ما رواه ابن عدي، ونصه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الأمَّهَات؛ مَن شِئن أَدْخَلْن، ومَنْ شِئن أَخْرَجْن"، قال ابن عدي: موسى بن محمد المقدسي منكر الحديث

رجلًا أمريكيًّا. وذات يوم تعثَّرَت فسقطت وأخذت تنزف من الموضع الذي اصطدمت عليه. أتى صديقها راكضًا فأجفَلَت (فَزِعَتْ). لقد توقَّعَتْ منه أن يصرخ فيها أو يخبرها كم أنها غبية وأن يسألها لماذا هي خرقاء للغاية ولا تعرف كيف تمشي. ذُهِلَتْ عندما كان أول كلامه: "هل أنتِ بخيرٍ؟. لم تكن تلك ردة الفعل التي اعتادت على سماعها.

أشعر بنفسي مرتبطة شعوريًّا بحكاياتها. لقد فهمت (وتعرضت لـ) مستوى الإساءة الذي يجعل أنك مهما فعلتَ ومهما حدثَ فسوف يعتبرونك أنت المخطئة ويهاجمونك أو يوبخونك لأجل ذلك.

توجد امرأة أخرى تسمي نفسها على تويتر بالاسم المستعار "السيدة المرتدة" Sayeda Murtad حكت لي كيف أن أمها كانت تمارس عليها سيطرة سادِيَّة منذ سن الثالثة أو الرابعة. حاولت أمها جعلها تتوقف عن استعمال عضَّاضتها فلم تتوقف، فوضعت لها الفلفل الأحمر الحار في فمها. وإذا بكت كانت أمها تُقْحِمُ خُفَّها القذر في فمها. لم تبالِ بمقدار الألم الهائل غير القابل للقياس الذي احتاجت لإيقاعه بابنتها طالما أنه سيُمَكِّنُها من التحكم فيها والفوز في النهاية.
تصاعد هذا العنف بنية التحكم إلى أن أصبحت تلقي عليها الأشياء وتخنقها وتغرس أظافرها في رقبتها حتى تنزف دمًا. وكانت تصفعها وتمسكها من شعرها وتضرب رأسها في الجدار وتضربها بالصنادل[1] والملاعق الخشبية. ذات يوم كسرت الشوبك (مرقاق العجين) الخشبي على ساق ابنتها وانفجرت ضاحكةً:
"هذه العاهرة لا تشعر بشيء" هكذا قالت عن ابنتها "سيدة".
لو استسلمت سيدة لتحكم أمها بها مثلما فعلت أختي لأرضى ذلك رغبات أمها الشيطانية. لكنها _ مثلي_ قاومت. وكانت المقاومة هي ما جعل أمهاتنا يَصِرْنَ أكثر وحشيةً معنا. كنا الشيء الوحيد الذي يمكنهن ممارسة السيطرة عليه وقد فشِلْنَ في ذلك.

كانت أمُّ "سيدةَ" تكره زوجها العنيف وتكره حياتها ونفسها. كانت ممتلئة بالغضب المكبوت وكانت سيدة متنفسها الوحيد. كانت كثيرًا ما تخبر "سيدة" أنها تتمنى لو كانت أجهضتها. وكثيرًا ما قالت لي أمي أنها تتمنى لو أني لم أولد. ولسنوات كنت أوافقها الرأي.

[1] الصنادل: القباقيب

الاكتئاب ١

بدون تمهيد، حُرِّرْتُ من استعباد أمي لكي يُسمَح لي بالعودة إلى المدرسة الحكومية في سبتمبر التالي. يومًا كنت عبدتها واليوم التالي صرت تلميذة في المدرسة الثانوية. لم يؤثر فيَّ هذا كثيرًا في البداية. ما أذكره على نحو رئيسي عن تلك الفترة هو أني كنت أحس نفسي خاويةً.

بعد سنوات علمتُ أن بطلي كان صديقًا للعائلة والذي لاحظ أني مكتئبة. أعتقد أن الأمر كان بديهيًّا _إن لم يكن واضحًا مباشرةً_ للذين كانوا الأقرب مني. كان لديه بنتان في حوالي نفس سني وكان قد رآنا نكبر معا. هدد بأن يخبر السلطات بزواج أمي التعددي غير قانوني إذا لم يسمحوا لي بالذهاب الى المدرسة. حدثت مشكلة كبيرة بسبب ذلك، وتسبب ذلك في قطع الصداقة التي دامت لعقودٍ بين عائلتينا. إلى اليوم لا أدري لما فعل ذلك لأجلي. لم يتحدث إلي قط عن الأمر. نادرًا ما كنتُ قد تحدثتُ إليه إذْ كان دائما يُفصَل بين الرجال والنساء. كانت أمي متحيرةً مثلما كنتُ. وقد عبَّرَت عن هذا بنفس طريقتها الحاقدة السامة المعتادة لها:

نظرت لي برِيبةٍ[1] وقالت: "لماذا يهتم أيُّ أحدٍ بأمرك؟، لِمَ قد يتخلى أحدهم عن صداقةٍ لأجلِكِ؟"

ويبدو أن إحساسها بأنها مهددة في أمنها مرة أخرى بسببي أعطاها سببًا إضافية لتكرهني. كنت [في نظرها] لعنة غير عادية في حياتها والتي هي السبب اللانهائي للأذى والصدمات لها. لم تدرك أو تقبل قط الاعتراف بدورها في التسبب هذه المواقف لنفسها. وهكذا _في ظل التهديد بالعواقب القانونية_ سُمِحَ لي بالعودة الى المدرسة الحكومية في سبتمبر.

كانت تلك السنة _سنتي الدراسية العاشرة (تعادل الأولى الثانوية)_ سنةً قاسيةً عليَّ. كان الظلام يخيم على نفسي من كل اتجاه. صارت لي صديقة اسمها آمبر. وكنت أنا وإياها نمشي متهاديتين معًا ونحن نغني أغاني إينيا أو سينياد أوكونور ونضيع في عوالم الروايات الرومنسية التاريخية. لم أكن في الحقيقة أستمتع بالموسيقى أو الكتب. كنت فقط أتبعها في كل ما تريد القيام به أيًّا ما كان. لم تكن لي رغبات أو تفضيلات شخصية. ربما كنتُ قد أُطْلِقَ سراحي من السجن جسديًّا لكنني كنت لا أزال سجينة داخل عقلي. لم يكن هناك جدوى في أن أريد أي شيء لأنني لن أحصل عليه أبدًا في كل الحالات، ولذلك كان الأسهل ألَّا أريدَ أي شيء.

مرت سنتان منذ أن خانني ذلك القاضي ولم أفكر حتى في إمكانية أن أشفى من حالتي النفسية في أي وقت. قبلت فقط حياتي الجديدة المفرغة. وأني يومًا سوف أُزَوَّج لرجل غريب وسوف يصير لدينا أطفال أعلمهم الصلاة لكي يتجنبوا الاحتراقَ في الجحيم.

في ذلك الصيف الذي بين الصفين الدراسيين العاشر والحادي عشر[2] تناولتُ حفنةً من حبوب تايلينول[3] آمِلةً أنْ أُنْهِيَ بؤسي. كنت حقًّا خائفة من أني قد أموت بالفعل لأن الانتحار طريق مباشر الى جهنم ولذلك فكرت في أن أتناول أكثر من اللازم "من غير قصد". لكن الله يعرف ما تفكر فيه ومن ثَمَّ فهو يعرف أني أردت تناول الحبوب. كنت ضائعة

[1] الريبة: الشك

[2] يعادلان على الأرجح في بعض دول العالم العربي الصفين الأول والثاني الثانويين.

[3] دواء مسكن وخافض للحرارة، في نشرته الطبية: إذا تناول المريض جرعة زائدة يتعرض لتسمم كبدي خطير وقد يكون مميتًا في بعض الأحيان.

وعالقة. كرهت حياتي لكني لم أستطع إنهائها. كل الطرق تؤدي إلى الجحيم سواء هنا على الأرض أو في الآخرة. لكنني تناولت الحبوب في النهاية. إذا أراد الله لي الحياة فسأحيا. سأترك الأمر له.

بعد ساعات استيقظت مترنِّحةً ومتعرِّقةً. أُحْبِطْتُ لأن المحاولة لم تنجح. لم أعرف ما إذا كان علي أن أشعر بالارتياح أو العكس. قررت أنه عليَّ أن أجد لي مخرجًا من هذه الظلماتِ بطريقة أو أخرى.

وجدت كراسةً قديمةً وقد تبقت بها بضع صفحات، وبدأت أكتب. كتبت كل الطرق المحتملة وكل الحواجز التي تعيقني. في النهاية وبعد أن فحصت مأزقي من كل الزوايا أدركت أن المخرج الوحيد من هذا هو أن أتحمل السنوات القليلة المتبقية. كان سن البلوغ يبدو لي بعيدًا لكنه كان الضوء الوحيد في نهاية هذا النفق المظلم.

وصرت لكي أهدهد نفسي حتى أنام، بدلًا أن أتخيل نفسي أطعن منير وأريق دمه، صرت أجبر نفسي على تخيل المنزل الذي سوف يكون لي يومًا من الأيام. كنت أتخيل نفسي داخلةً من الباب الأمامي، وكانت هنالك سلالم على اليمين تقود الى الأعلى وغرفةُ معيشةٍ على اليسار. عندما استدرت لأنظر الى غرفة المعيشة رأيت ظهر الأريكة والتلفزيون أمامي. تخيلت نفسي على أني سأجلس دائمًا على تلك الأريكة و آكل الفشار أو المثلجات. كنت أتخيل نفسي أقف وأذهب الى المطبخ. أحيانا كنت أذهب إلى غرفة النوم وأزينها بنفس الطريقة كل ليلة وأضيف وسائد جميلة وأضع بطانية. كانت هنالك نافذة ناتئة بارزة إلى الخارج (نوع من الشرفات) في غرفة نومي، حيث كنت أجلس وأقرأ كتابًا في ضوء الشمس الملقي بتألقه على غرفتي. كنت أستطيع سماع أصوات الأطفال وهم يلعبون في الشارع في الأسفل.

لم أحصل قط على فرصة العيش بمفردي لكن هذه الأحلام جلعتني أواصل الحياة وأنا أكافح عبر الأيام لسنوات.

تيفرز[1] (تدليل تيفاني)

عندما بدأ الصف الدراسي الحادي عشر لم تكن لدي أي آمال. افترضتُ أن السعادة شيء يشعر به الأشخاص الآخرون، وقبلت قدري فقط: هذا ما قدره الله لي.

كانت تلك السنة التي تعرفت فيها على تيفاني. ساعدتني على اكتشاف أن قبسًا من النار ما زال يتقد داخلي. لقد سكبت الوقود بحماس على تلك الشرارات الصغيرة وأخرجتني من اكتئابي الرَمادي. لا أستطيع أن أكتب عن تيفاني دون أن أُغرِقَ لوحة مفاتيح كمبيوتري بدموعي. فقدتها منذ بضع سنوات و لن أكون كما كنت من بعدها.

رغم أنني كنت قد صرت ملحدة منذ سنوات قبل وقت فقداني إياها، فعند فقدان تيفاني كانت المرة الأولى منذ تركت الإسلام التي تمنيت فيها لو أني كنت لا زال أؤمن بالجنة. لأخفف من وطأة الأمر على نفسي لوقت قليل كنت أتخيل أن هذا صحيح وأن هناك جنةً وأنني سوف أرى تيفرز مرة أخرى حقًّا. لكن هذا لا يجوز في الإسلام في كل الحالات. كنا لنحترق معًا في الجحيم [بحسب عقيدة الإسلام]. أردت الايمان بالجنة كما يتصورها المسيحيون، لكني بقدر ما أردتُ الإيمانَ كنت أعرف أنها كلها أكاذيب تشعرنا بالارتياح. كانت تيفاني لتحس بالإحباط بسببي. كانت لتعود فقط ليطاردني شبحها لتقول لي أنني أتصرف بغباء.

كانت أول شخص يخبرني أن هناك خيارًا متاحًا بألّا أؤمن. لم علم أن هناك شيئًا كهذا حتى. شعَرَتْ بالفضول وبعد مشاهدتها لي أصلي وسألتني بلطف أسئلةً عن سبب قيامنا بأمور غريبة مثل سبب وضعي يدي على ركبت في جلوس التشهد (بعد السجدتين) ثم رفعي إصبعي السبابةَ بطريقة متكررة. لن تشعر بسخافة شيء حتى يشير أحدهم إلى ذلك.

"لم يتشنج اصبعك في النهاية؟"

"أوه، لا أدري. هذا ما نفعله فقط"

"لم؟"

"ليست لدي أدنى فكرة"

"هذا غريب بعض الشيء. ألا تظنين؟"

"نعم أعتقد ذلك."

غيَّرَتْ حياتي وفَتَحَتْ عينَيَّ. أيقظَتْ فيَّ روحًا كانت قد تضاءلت حتى كادت تصير لا شيء. كانت أقوى امرأة سارت على هذا الكوكب بالنسبة لامرأة ضعيفة جسديًّا. كانت تيفاني تعاني من مرض خلقي في القلب. كانت كل سنة تعيشها معجزة تترك الأطباء في حيرة لانهائية من أمرهم. لكنها كانت غير خائفة. كانت لديها شجاعة تكفينا نحن الاثنتين، ثم وبعض الأخريات كذلك غيري. أذكر أنني قرأت عن سلمان رشدي الذي أكل وهو صغير سندويتشَ لحم خنزيرٍ سرًّا ثم عندما اكتشف أنه لم يحدث له أي شيء سيء استنتج أن الإسلام مجرد أكاذيب. كان شجاعا حقًّا في قيامه بهذا وحدَهُ!.

[1] تدليل تيفاني، ومعنى تيفرز الشيء الثمين الذي لا يدرك الناس العاديون قيمته.

لكن حتى مع القوة التي كنت أكتسبها من تيفاني وهي تدفعني إلى القيام بأشياء مماثلة كنت لا أزال متشربة بالتعاليم الدينية بعمقٍ شديدٍ.

"ما رأيك لو تجربي فقط هذه المرة دخول الحمام بساقك اليسرى أولًا بدلًا من اليمنى ثم تخرجين بساقك اليمنى؟ فلنرَ ما إذا سيحدث أي شيء".

"لا لا أستطيع. أنت لا تفهمين..." [أقول لنفسي:] لهذا كانت أفضل ألا أخبر الناس عن حياتي. صار لزامًا عليَّ الآنَ أن أتعامل مع هذا الضغط.

"حسنًا، أطيعيني فقط".

"أوه، يا إلهي. لا. أنا خائفة للغاية". تمنيت لو أني كذبت عليها ولم أخبرها أي شيء عن حياتي.

"و لا تتمتمي بأي أدعية أيضًا. فقط ادخلي الحمام الملعون يا ياسمين. هذا ليس صعبًا".

"سوف يلبسني شيطان وسيكون هذا بسببك كليًا". تذمرت نصفَ مازحةٍ فقط. لقد علموني أن الناس الذين يدخلون الحمام بالقدم الخطإ أو دون أن يتلوا الدعاء القصير سوف تلبسهم الشياطين الذين يعيشون في الحمام.

"هل تدرين كم مرة تغوطت في حياتي؟ هل أبدو لك ممسوسةً؟ أتعتقدين أن كل هؤلاء الناس الذين لا يتلون دعاءً قصيرًا قبل دخول الحمام بأقدامهم اليسرى ممسوسون؟"

"لا أدري". قلت لها. لكني ما استطعتُ إنكارَ أنها قدمت حجةً قويةً.

دخلت الحمام بحذر بقدمي اليمنى أولًا خائفةً للغاية، وقلبي يخفق كالطبل. انتهيت من الأمر بأسرع ما يمكن وخرجت جريًا في النهاية لاهثةً بصوتٍ عالٍ.

"هل أنت ممسوسةً الآن؟"

"لا".

"حسنًا، فلنذهب لتناول بعض الغداء."

تبدو كتابة هذا الكلام سخيفةً الآن، لأني لم أعد مغسولةَ الدماغِ. لكن كانت بيني أنا وتيفرز حوارات كثيرة والتي أنا متأكدة تمامًا أني ما كانتُ لأفكر في خوضها مع أشخاص آخرين. كانت معتنيةً مثابرةً للغاية معي. لا أدري كيف فعلت ذلك. كنت لأترك هذه الفتاة المجنونة وأنضم الى بعض الأصدقاء العاقلين لكنها وقفت إلى جانبي. وحاولت أيضا أن تجعلني أدرك أن شيئًا يحدث بين أمي و "عمي".

"لا...لا. هو صديق للعائلة فقط".

"صديق للعائلة تمارس معه الجنس"

"لا. لا... هو متزوج"

"لا يمكن لامرأة أن تسمح لرجل بأن يفعل هذا بأطفالها إلا إذا كانت تحصل على شيء بالمقابل"

"لا يا تيفرز. صدقيني. الأمر ليس كذلك".

لم أدرك كم كان الأمر واضحًا. لم أشك قط أن أمي مخربة بيوت، ولا مرة. كنت حقًّا أصدق كل الأكاذيب التي كانت تخبرني بها.

لكن تيفاني زرعت في بذورً الشك. بذورًا تطلب الأمر سنوات حتى تثمر في النهاية.

بعد حوالي سنة من تعرفي على تيفاني تراخت صلابة الإسمنت حتى صرت أستطيع تحريك أصابع قدمي عبره. كانت تيفاني حبل النجاة بالنسبة لي. كنت أستمد القوة والشجاعة منها لكن لم أكن قد صرتُ قادرةً بعدُ على السير بمفردي.

ينبغي أنه ليس من المفاجئ معرفة أن تيفاني كرَّسَتْ حياتها لحيوانات الملاجئ. كان بيتها مليئًا بالحيوانات التي رفضت أن تتخلى عنها لتُقتَلَ. وعندما كان بيتها وحديقة بيتها على السواء لا يعودان كافيين لاستيعاب أي حيوان آخر، كانت تعطي كل الأنواع من الحيوانات المنبوذة والضعيفة مما تساعده لعائلتها وأصدقائها. كان لديها العاطفة والشغف والصبر والقدرة على إعادة تأهيل الحيوانات التي أُسيئت معاملتها وأُهْمِلَتْ. و لعلي كنت أول الحالات التي تعاملت معها.

كان الصف الدراسي الثاني عشر _آخر سنوات المدرسة الثانوية_ سنة اختلطت فيها مشاعري. كنت أعلم أنها كانت آخر فرصة لي في أن يكون لي علاقة هشة بالواقع. لقد علمتُ أنه حالما تنتهي المدرسة فسوف أُزَوَّجُ، وهو تهديد كان يَلُوحُ دائمًا. أخبرتني أمي كثيرًا أني حالما أنتهي من المدرسة وأبتعد عن براثن (ودعم) أصدقائي الكفار فإنها سوف تتخلص مني. عرضت علي تيفاني أن تسمح لي بالانتقال معها إلى بيتها. كان لدى أسرتها منزل ضخم من ثلاثة طوابق به مسبح ويطل على المحيط. لكني لم أستطِعْ قبولَ عرضِها. كنت متأكدة أنها كانت مجرد لفتة مهذبة. ما كانَ أحد لِيريدَ حقًّا هذه القمامةَ لتعيشَ معه في منزله. حاولت الاستمتاع بسنتي الأخيرة بأقصى قدر أستطيعه. فقد علمتُ أنها آخر سنة لي أتذوق فيها طعم الحرية.

في تلك السنة قدم خالي (أو عمي) الحقيقي لزيارتنا من نيويورك، وأقنع أمي بأن تغادر القبو. لقد عاتبها على تربيتها أطفالها في مثل هذه الظروف. لقد ساعدنا على حزم أغراضنا وانتقلنا أخيرًا.

كثيرًا ما كانت أمي تتذمر من تكاليف كل عناصر المعيشة وتهددنا بالعودة بنا إلى القبو. تمكنت في النهاية من إقناعها بأن تسمح لي بعمل كمتلقية لمكالمات الطلبات في محل للبيتزا لكي أساعد في النفقات. كنت أعطيها كل أجري ولم أحتفظ قط بقرش واحد لنفسي. كنت سعيدة بخروجي من قبو ذلك المنزل، وكان ذلك أكبر أجر يمكن أن أحصل عليه. وطالما كان ذلك سيساعد في عدم العودة أبدًا للعيش في قبو الرعب، فإني كنتُ سعيدةً بالمساعدة في ذلك.

كان المنزل الذي أجَّرْناه على مرمى حجر من المدرسة ويبعد حوالي ١٥ دقيقة عن بيت تيفاني. ومن ثَمَّ كنت أنا وتيفرز نسير معًا منتصف المسافة إلى المنزل ثم ننفصل لكي تسير كل منا باقي طريقها إلى منزلها. أخبرتني في إحدى مرات سيرِنا بأنها سمعت كلمات أغنية ذكرتها بي. كانت مترددة في إخباري لخوفها من أن تؤذي مشاعري، لكنها في النهاية قالتها. كانت جملةً من أغنية لبيتي ميدلر بعنوان "الوردة"[١]:
"الروح التي تخاف الموت لا تتعلم الحياة"

---

[١] Bette Midler's song "The Rose"

حسنًا، هذا كان يصفُنِي _إن لم يكن وصفًا لكل مسلمٍ ومسلمة_ بإيجازٍ. نخاف كمسلمين على نحوٍ لا نهايةَ له. يخاف المسلمون اللهَ والجحيمَ واللعنةَ والكبائرَ والكفَّارَ واليهودَ والشيطانَ ويومَ الدِينِ (الحسابِ). يا للهول! إن هذه المخاوف لا تنتهي. كان هنالك خوف ينتشر في أفكاري كالسرطان طوال الوقت ويمنعني من عمل أي شيء، ويجعلني خائفةً للغاية من أنْ أتحرك.

وما كنا لنتعلم كيف نعيش لأن ذلك لم يكن الهدف. الهدف كان أن تموت وآنذلك سوف تبدأ الحياةَ [في الحياة الأخرى]. فما هذه الحياة إلا امتحان. إنها وهم ومتاع الغَرُور. لا شيء يهم. الحياة الحقيقية المهمة تأتي لاحقًا.

كل مرة أسمع فيها بيتي ميدلر تغني أي شيء أنفجر باكية. كانت تلك أغنيتنا. كنت أنا وتيفرز نغنيها بصوتٍ عالٍ معًا لبعضنا البعض بينما كنا نشرع السير في اتجاهين مختلفين كلٌّ منا إلى منزلها.

"البعض يقول أن الحب..."

"هو نهرررر..."

منبوذة

بينما يتحدث بقية المتخرجين من الثانوية عن الذهاب إلى الجامعة أو اتخاذ سنة استراحة، أجبتهم عن كل أسئلتهم عن خططي الخاصة بي بعبارة "لا أعرف". وذلك لأنني لم أعرف حقًّا. لم أعرف ما تخططه لي أمي. لم تبلغني أو تشاورني وتسألني عن رأيي يومًا. فبالطبع لم يكن لي أي رأي في أي مسألة، على أي حال.

كنت خائفة للغاية من أن هذه ستكون نهاية حياتي ولن تكون لي فرصة أخرى أبدًا للحياة إذا لم أقتنصها الآن. سألتني صديقة ما إذا كان يمكنها أن تضع لي مكياجًا وتصفف لي شعري، ثم نجلب أصدقاءنا ونرى ما إذا كانوا سوف يتعرفون عليَّ. كنت مرعوبة لكنني وافقت. ضبَّطَت هيئتي ثم نادت أصدقاءنا. كان من بينهم ولد كنت معجبة به، لكن ما الجدوى من إعجابي بولدٍ؟ سينتهي بي الأمر إلى طريق مسدود، إلى بركة من الدموع وكسرٍ للقلب. ومن ثم لم أسمح لنفسي حتى بالاستمتاع (أو بقبول)إعجابي الساذج به. لكنني كنت أراقب ردة فعله باهتمامٍ. كان يتصرف بلامبالاة أمام أصدقائه لكنه أخذ يعاملني بطريقة مختلفة بعد ذلك. كان يبتدع الطرق لكي ننفرد ببعضنا البعض. وذات مرة كدنا نقبل بعضنا في سيارته لكنني كنت خائفة للغاية من أسمح لهذا بالحدوث. ما الجدوى؟ السنة الدراسية قاربت على الانتهاء. لم أخاطر بعذاب أبدي في جهنم لأجل خليل أقضي معه فقط بضعة أيام؟

أردت الذهاب إلى حفلة تخرج الثانوية بشدة وكنت خططتُ في الحقيقة أن تأتي لي صديقة بالسيارة وتصطحبني. لكن في الليلة التي سبقت الحفلة ذهبت عائلتي إلى بيت أسرة صديقة لنا في مدينة مجاورة وبتنا عندهم ليلتين مبيتًا مُرتَجَلًا. كم كان ذلك محطمًا لقلبي. لقد حرمتني أمي من فرصتي في أن يكون لي نهاية سعيدة لفترة حياتي مع أصدقائي.

حصلت على ثلاث شهادات جامعية منذ ذلك الوقت وفاتتني كل حفلة من حفلات تخرجها أيضًا. ما الفائدة من الوقوف على المنصة لاستلام الشهادة إذا لم يكن هنالك أحد بين الحضور يهتم لأمرك ويصفق لك ويلتقط لك الصور ويجلب لك الورود و يهنئك؟ كان ذلك ليكون مجرد تذكير مؤلم لي بأنني وحيدة في العالم. ولذلك لم أذهب قط إلى أيٍّ من حفلات توزيع شهاداتي.

بعد التخرج من المدرسة الثانوية ذهبت تيفاني إلى أفريقيا ثم أورُبا، وذهبت أنا مع عائلتي إلى مصر للمرة الثانية في حياتي. في مصر ظل الجميع يسألونني عن خططي للمستقبل تمامًا مثل أصدقاء المدرسة الثانوية الذين تركتهم في كندا، وكنت كذلك أجيب بأني لا أعرف.

"ما الذي تريدين فعله؟". كان سؤالًا سخيفًا للغاية وكان كثيرًا ما يُسْأَل ويتكرر. ما الفارق الذي سيصنعه ذلك؟ لم أتوقف يومًا لأفكر فيما أريده. كان ذلك ليكون عبثيًّا. هل يُسْأَل العبد عن وجهته لعطلة الصيف؟ لم أدرك قط أن لدي خيارًا في الأمر. كان عليَّ أن أنتظر وأرى ما سيحدث مثل أي أحد غيري.

كانت أختي (المتزوجة الآن) في الجامعة و أخي كذلك. ولذلط سألت أمي إذا ما كنت أستطيع الذهاب إلى الجامعة أنا أيضًا. فأجابت: "إن شاء الله". لكنها عَنَتْ بذلك فعليًّا "في أحلامك". لم تمنحني أي إشارة إلى أنها سوف تسمح لي بالذهاب الى الجامعة لكنها لم تعطني أيضًا أي تلميح لي عن الماهية الحقيقية لما تخططه لي.

.

لم تكن مصر ممتعة هذه المرة كما كانت عندما كنت في سن السابعة. كانت لا تزال حارة المناخ وقذرة[١]. كنت بالكاد أفهم اللغة. كنت أعرف أني كان عليّ أن أشعر ببعض الصلة مع العالم المحيط بي لكني لم أشعر بذلك. لا شيء بدا لي جيدًا أو مُرْضِيًا فيها. لقد وُلِدْتُ ونشأتُ في كندا. ورغم أني ذهبت إلى المدارس الاسلامية وحاولت أمي جاهدةً أن تربيني في فقاعةٍ بمعزل عن محيطي إلا أنني كنت ولا أزال كندية. الثقافة المصرية مختلفة جدًّا عن ثقافة ڤانكوڤر، ومختلفة تماما عن كيفية وصف أمي لها.

لطالما أطالت القول عن كيف أن مصر أفضل بكثير وأن المصريين أفضل بكثير [من وجهة نظر متشددة]، لكنني لم أر أي دليل على هذا. حتى نقدها المتواصل لطريقة عيش الكفار لم تكن مبررة بتاتًا. ففي ذلك البلد المسلم كانت توجد نساء لا يلبسن الحجاب وكانت موسيقى عمرو دياب تصدح في كل مكان، وكان الرجال والنساء يختلطن في الحفلات. حتى أنني حصلت على أول كعكة لعيد ميلادي في مصر. احتفلوا بعيد ميلادي الثامن عشر بكعكة آيس كريم و كان كل أقاربي يغنون "هابي بيرثداي" بطريقة غريبة بلكنتهم الجميلة التي بالكاد يمكن فهمها. لم أكن معتادة على أي من هذا. كانت تقاليدهم مربكة، ووجدت الخرافة تطغى لديهم. لم أفهم كل تلك المعايير الثقافية.

لي عم صياد جن تمامًا مثل سام ودين وينشستر في مسلسل "سوبرناتشورال". كان الناس يتصلون به كلما اعتقدوا أن بيتهم يسكنه جنيٌّ أو كان لديهم طفل يتصرف بطريقة غريبة أو إذا لم تتمكن امرأة من الحمل ولكل أنواع المشاكل الأخرى. كان لديهم اعتقاد جاد بأن الجن في كل مكان. يذكر القرآن أن الجن كائنات تعيش معنا وأن بعضهم يسببون الخراب ويثيرون المشاكل والمتاعب، بينما يتجول البعض الآخر فقط. يقع بعضهم في الحب مع البشر فيتصرفون كالملاحقين المترصدين بهنَّ (أو كالملاحقات المترصدات بهم). أحست إحدى النساء أن الجن داخلها كان يعيق حملها من زوجها لأن الجنيَّ الغيورَ كان يحبها!

هؤلاء أشخاص بالغون ومتعلمون. كانوا ناجحين في حيواتهم وعاقلين بكامل مداركهم العقلية لكنهم كانوا يؤمنون بهذا بنفس القوة التي أعتقد بها أنا وأنت بأننا نحتاج الأوكسجين لكي نعيش. لقد كان هذا [في اعتقادهم] حقيقة لا نقاش أو تشكيك فيها. كان لبس الجن والرقي الشرعية وطرد الشياطين منتشرًا هناك مثل عدوى البرد المنتشرة. حالما تشرَعُ في الحديث عن حكايتك مع الجن تجد الجميع لديه علاج لك.

"هذا صحيح. جدتي عانت من هذه المشكلة مرة. وتبيَّنَ أن جنًّا كان يسكنها".

[١] هكذا هي انطباعة المؤلفة مع الاعتذار كمترجم لمواطنيَّ المصريين لكنهم أدرى بحال الوطن. كانت مساكن أقارب المؤلفة في منطقة شعبية كما يبدو لنا، وتتسم هذه الأماكن بالإهمال التنظيمي في إدارة المخلفات بدرجات متفاوتة، فلو كانت في حي من الأحياء المشهورة بثراء سكانها وارتفاع مستوى دخولهم أو حتى مناطق أعلى قليلًا في مستوى دخول سكانها، لكانت وجدت نفسها في مصر في وسط أكثر نظافةً، وهي سمة الطبقية الاجتماعية والإهمال والتقصير الحكومي وغوغائية عامة الشعب الفقير كذلك. أما انتشار خرافات الجن كتفسير للأمراض الجسدية والنفسية والعلاج بالقرآن فممارسات لا تزال شائعة في مصر، رغم مناقشة بعض أفلام السينما المصرية لها كفيلم (البيضة والحجر) لأحمد زكي، نتيجة الفقر والجهل والتعليم الحكومي المجاني المصري الذي كعدمه ويضحمل أكثر أكثر والطبقية

كنت بين أولئك الناس أشعرُ أنَّ خطبًا ما يعتريني[1]. لم يخطر على بالي قط بأن المشكلة فيهم هم. لكن كل ذلك بدأ يتغير. بدأت أفهم تدريجيًّا أن البالغين قد يقولون أو يفعلون أو يؤمنون بأشياء غبية.

كان عمي يأكل قطعة شيكولاتة يومًا وقال:

"أتساءل ما هذه الأشياء المقرمَشة التي بداخل الشيكولاتة؟".

أجبته: "إنه الأرز المنفوش"[2].

فصاح ضاحكًا: "ماذا؟"

"إنه الأرز المنفوش. مثل أرز كريسبيز المقرمش. هل لديكم يا قوم حبوب فطور أرز كريسبيز في مصر؟"

قال مستهزئًا: "ما الذي تقولينه؟ أرز؟ لعلي إذن أجد خضارًا ودجاجًا مشويًا أيضًا بداخلها؟". كان يضحك بشدة حتى أنه بالكاد استطاع أن يكمل الشيكولاتة.

قلت له: "اقرأ المكونات".

"لا تكوني سخيفة"

قلت له مرة أخرى: "اقرأ المكونات".

"لا تكوني غبية. لا أحتاج قراءةَ المكونات. أعلم أنه ليس أرُزًّا". استمر في الضحك بينما تدور عيناه ورمى غلاف الشيكولاتة.

هذه عقلية المسلمين باختصار: لا أحتاج أن أعلم الحقيقة فأنا أعلمها مسبقًا. لا أحتاج قراءة المكونات. لا أحتاج قراءة الكتب العلمية. لا أحتاج تعلُّمَ أي شيء آخر لأنني أعلم مسبقًا. و ما أن تظن أنك تَعْلَمُ حتى تنتفي لديك الرغبة في تعلُّمِ أيٍّ شيءٍ.

ذات صباح عندما ذهبت لأرتدي ملابسي لم أجدها في أي مكان. كنت أبقيها في حقيبة زرقاء لكني لم أجد الحقيبةَ في أي مكانٍ. بدأت أسأل مَن حولي، وفي النهاية وجدت الحقيبة في الغرفة التي تمكُثُ فيها أمي. تنفست الصعداء لأنني أستطيع الآن ارتداء ملابسي. لكني عندما فتحت الحقيبة لم يكن أيٌّ مما فيها مما يخصني.

سألْتُ أمي: "أين كل أشيائي؟"

"احتجتُ الحقيبةَ".

"حسنا لكن أين كل ملابسي؟"

"ليس لديك أي ملابس"

"ماذا؟ نعم، لدي ملابس. كانت كلها في هذه الحقيبة!"

"لقد منحتُها كلَّها أقاربَكِ"

"لماذا؟ كيف؟ وما الذي سأرتديه أنا؟

---

[1] أو بترجمة أسهل: كنت أشعر أن هناك خطأً فيَّ أنا.

[2] الأرز المنفوخ أو المقرمش أو المفرقع يُصنَع من حبوب الأرز المنفوخة التي تُتناوَل على نحوٍ شائع في المأكولات التقليدية لجنوب شرق آسيا وشرق آسيا وجنوب آسيا. كما تُنتَج تجاريًّا في الغرب منذ عام ١٩٠٤ وهو مشهور في حبوب الإفطار والأطعمة الخفيفة الأخرى. تشمل الطرق التقليدية لنفش الأرز أو فقعه القلي بالزيت. عادة ما يصنع الأرز المنفوش التجاري الغربي عن طريق تسخين حبات الأرز تحت ضغط عالٍ في وجود البخار، ورغم اختلاف طريقة التصنيع على نطاق واسع، فإنه يؤكَل إما كحبوب سائبة أو يُحوَّل إلى كعك أرز منتفخ أو كحشواتٍ لأطعمة أخرى.

"تستطيعين شراء ملابس جديدة. كانت كلها تبدو قبيحة عليك على أي حال. أنت بدينة جدًا وقبيحة. يحرجني أنك ابنتي"

امتلأت عيناي بالدموع. كانت دموع غضب وارتباك وشعور بالإهانة والنقمة. بدأت أجادلها لكنها كالعادة سبتتني بأفظع الكلام لإسكاتي.

"لقد تبولتك. هل تسمعيني؟ أنت بولي. لستِ إلا فضلاتِ جسمي. لقد تغوطتك. أنت مجرد غائط كان علي التخلص منه. لا يحق لك أن تسائليني. أنتِ لا شيء".

لم أعتد على أن تعاملني كإنسانة. لكن حتى بالنسبة لها كان هذا أدنى مستوى وصلت له . لم أدر كيفية رأب صدع ذلك.

سألتها وأنا بالكاد أغالب صوتي المرتعش: "إذن سنذهب لأشتري ملابس جديدة تلائم مقاسي عندما نعود إلى كندا؟"

"نعم بالتأكيد. إن شاء الله. و الآن اغربي عن وجهي".

"و ما الذي سألبسه اليوم؟ أو على متن الطائرة غدًا؟"

"لا يهمني. اغربي عن وجهي"

كنت غاضبة للغاية لدرجة أن أقاربي جاؤوا إلي خَجِلينَ محرَجين معتذِرين وحاولوا إعادة ملابسي لي. فاسترجعت بعضّ المفضَّل منها فقط، وتركت لهم البقية. في كل الحالات كنت سأشعر بأني قبيحة وسمينة في تلك الملابس بعدما صبت أمي الملح على ذلك الجرح القديم. لقد علِمْتُ أني لن أشعر بنفس الارتياح إذا عدتُ إلى ارتدائها مرةً أخرى. بالإضافة إلى ذلك، فيمكنني أن أذهب في جولة تسوقية عندما أعود الى كندا. كنت أتطلع إلى ذلك. لكنني شكَكْتُ في وعدها، بما أن أغلب ملابسي كانت ملابس أختي المستخدَمة المشحَّتة لي. كان لدي فقط القليل من الملابس التي اشتُرِيَتْ خصيصًا لي. ولذلك كنت مترددة جدًا في التصديق بأن أمي سوف ترغب فجأةً في أن تشتري لي مجموعة كاملة من الملابس.

لكن ما أهمية ذلك؟ سوف نغادر غدًا. كنت لا أطيق الانتظارَ للعودة الى البيت ورؤية تيفاني والاستماع إلى حكيها عن كل رحلاتها. وربما أنجح في الضغط على أمي لتركي أذهب إلى الجامعة. أستطيع العمل لدفع نفقات دراستي، كل ما عليها فقط أن تَسمَح لي بالخروج. ذهبت إلى الفراش تلك الليلةَ غاضبةً وحزينةً ومتشوقة ومشوَّشة ومرهقة في آن واحد. لقد أتعبني الوقت الذي قضيته في مصر وكنتُ أتطلع للعودة إلى الوطن.

استيقظت على صمت شديد في البيت صباحًا. شعرت بالاستغراب لأن الشمس كانت قد أشرقت. قلت في نفسي: "يا إلهي! هل فاتتنا الطائرة؟ كان علينا المغادرة إلى المطار منذ ساعات!

خفَق قلبي بينما أسرعت بحثًا عن أمي. لم أجدها ولم أجد الحقائب. اختفت أختي أيضًا وكذلك أخي. ما الذي يحدث؟

شعرتُ بالضيق المألوف في صدري والصعوبة في التنفس والتعرق البارد وتشوش بصري. إنها نوبة هلع أخرى تعتريني.

وجدت أخت أمي التوأم. ورغم أني علِمْتُ الإجابةَ بالفعل، إلا أني أمطرتُها بأسئلتي بطريقة هستيرية.

"أين الجميع؟ ما الذي يحدث؟ هل ذهبوا الى المطار بدوني؟ أين عائلتي؟"

فقالت باقتضابٍ[١]: "لقد غادرَتْ".

[١] باقتضاب: باختصار وجفاف أو جفاء.

الاكتئاب ٢

لم يكن الاكتئاب جديدًا علي لكن هذه الظلمة التي عشتُها كانت أشد على نحو خاص. في السابق كان لدي سبب أستيقظ لأجله في الصباح. سواءُ لاتباع أمي أينما تمضي في المدرسة الإسلامية أو للذهاب إلى المدرسة الإعدادية/ الثانوية أنا نفسي. كان يجب علي أن أكون في مكان ما أفعل شيئًا ما. لكن هنا في مصر لم يكن لدي ما أغادر الفراشَ لأجله، ولذلك لزمت الفراش.

تركتني أمي في رعاية أختها التوأم. كان من الصعب تحديد أيهن تستحق وصف التوأم الشريرة، فكلاهما كانت متساويتين في الشر والتلاعب.

كان الشيء الوحيد الجيد في مصر أن رمضان كان أقل عذابًا لأن النهارات هناك كانت أقصر. خلال شهر رمضان لا يسمح للمسلمين بالأكل منذ شروق الشمس حتى غروبها. في كندا كان يمكن أن أصوم حوالي ١٥ ساعة في مواسم الصيف. وبالتأكيد يكون الأمر أسهل بكثير إذا شارك في ذلك كل من في البلد. لا إعلانات لمكدونالدز على الشاشة أو أشخاص يأكلون الطعام شهي الرائحة من حولك.

لشهر كامل يستحيل النهار ليلًا والليل نهارًا في كامل البلد. في النهار ينام الناس وحالما تغرب الشمس يأكلون ويشاهدون التلفزيون والمسلسلات ويخرجون مع الأصدقاء الخ... كان رمضان وقت فرح وبهجة في مصر لأنه لم يقتصر على تجويع النفس وتلاوة القرآن كما كان الأمر في نشأتي. فجأة صار رمضان يتعلق أكثر بالأطعمة الخاصة المتميزة والموسيقى والمسلسلات الجديدة.

في كندا، كانت أمي تقضي كامل الشهر في النوم. كنا نرقب الساعة الحائطية و عندما تقارب الشمس على الغروب نعد لعشائنا باكتة[1] من مستر نودلز (أندومي) أو كرافت دينر (مكرونة سريعة التحضير بالجبن). كان العيد رتيبًا على نحو مماثل في كندا. لم تكن هنالك ولائم مع العائلة أو الأصدقاء كالتي يقيمونها بها في مصر. كانت العائلات والجيران في مصر يتداولون على طبخ الأطعمة لبعضهم البعض لكي لا يضطروا للطهي يوميًا[2]. كنا في أغلب أيام الشهر نذهب الى منزل أحدهم لتناول وليمة إفطار ضخمة.

خلال نشأتي كطفلةٍ كانوا يخبرونني أن الهدف من رمضان هو أن نحس بما يحس به الفقراء الذين لا طعام لهم. وعلى نحو طبيعي، كان سؤالي التالي يكون عن سبب وجوب الصوم على الفقراء؟ أليسوا يعلمون ذلك الشعور بالفعل؟

---

[1] عبوة أو كيس

[2] مع تسارع وتيرة الحياة وارتفاع الأسعار وضيق حال وأخلاق الناس لا أظن معظم مسلمي مصر لا يزالون يتبعون تلك العادات الجميلة، لكن لعل بعض الزيارات والولائم يظل قائمًا وراسخًا في معظم الأوساط، وبمصرمع مرور الوقت منذ ما بعد عصر الملك فاروق وثورة ١٩٥٢ يزداد الناس سوء حال واقتصاد وأخلاق في العموم وأغلب المجالات، ويالها من عادات جميلة يفتقدها أغلب المجتمع المصري المسلم اليوم في حدود ما أرى كمنشق قديم عنه- المترجم

لم أحصل قط على إجابة مقنعة. سألتُ أيضا لماذا لا نعطيهم فقط طعامًا بدلًا من تجويع أنفسنا. أما كان هذا ليكون أكثر عمليةً؟ لكن لم أحصل كذلك على إجابة مقنعة.

علمت لاحقًا أن السبب الحقيقي هو تدريب الأمة على الحرب وظروفها. إذا استطعت أن تقضي نهارًا كاملًا بدون طعام فستصير جنديا أكثر كفاءةً بكثير. سوف تصير مُعَدًّا جاهزًا لتحمل شدائد الحرب وظروفها القاسية عندما يأتي الوقت الذي تدعى فيه للقتال من أجل إرساء الخلافة. لهذا حدثت معظم المعارك [الإسلامية] في رمضان. هذا مقنع أكثر بكثير.

قضيت شهوري الأولى في مصر مضيِّعةً أيامي في النوم والأكل دون هدف. لم يكن لي هدف أو صلة بالعالم الخارجي. أذكر أني فكرت أني يومًا سأصير عجوزًا وسأتذكر كل الأشياء التي كان يجب علي فعلها وكل الوقت الذي ضيعته وسوف أستاءُ حقًّا على كل الأيام التي ضُيِّعَتْ.

كانت لدي شرفة في غرفتي وكانت متنفسي الوحيد. كنت أجلس هناك أشاهد حركة السيارات بالأسفل قدر ما أستطيع قبل أن تعيدني الحرارة الحارقة أو الرمال التي تدخل عيني أو الرائحة النتنة للصرف الصحي إلى الفراش مرة أخرى. لم يكن هنالك إيميل آنذاك ولا وسائل تواصل اجتماعي ولا آيفون. لم تكن هنالك أي طريقة للتواصل عبر المسافات البعيدة. حتى الاتصالات بعيدة المسافاة لم يكن يمكن عملها من المنزل. كان عليك الذهاب الى مكان (سنترال عمومي) به هاتف عمومي تدفع له مسبَقًا لكي تدخل غرفة كابينة هاتف وتصرخ في الهاتف حتى يستطيع الشخص الذي على الجانب الآخر متلقي المكالمة سماعَكَ وسط ضجيج زحام الناس المحيط بك. لم تكن بالضبط أفضل وسيلة اتصال بالأصدقاء في وطني كندا. وأحسست بالعزلة التامة.

لمحت بصيصًا من الأمل عندما أخبرتني إحدى الجارات عن جهاز جديد اشترته يدعى الفاكس. صرت أستطيع أن أراسل تيفاني عبر الفاكس. كنتُ مبتهجةً. تحمست بجنون وأنا أشاهد أحرف رسالتها تظهر ببطئٍ من آلة الفاكس. لقد وجدت أخيرًا صلة بالعالم الخارجي! كتبت لها رسائل طوال الوقت إذ لم يكن لدي أي شيء آخر أفعله. أخبرتني في رسائلها عن مغامراتها حول العالم وصرت مرة أخرى أعيش على نحو غير مباشر عبرها. أما أنا فلم تكن لدي أي أخبار أحدثها عنها. كنت فقط أسألها عن مغامرتها وأخبرها عن مدى اشتياقي إليها و كيف لا أطيق الانتظار لرؤيتها مرة أخرى.

عندما كنت أذهب الى بيت الجارة لاستخدام الفاكس الخاص بها، كثيرًا ما كنت ألتقي ابنها صدفةً. كان لديها ثلاثة أولاد لكن هذا الشاب كان يبدو موجودًا في المنزل دائمًا كلما ذهبت. صرنا في النهاية صديقين. كان يسألني عن حياتي وسبب عدم مغادرتي المنزل لفترات طويلة. كان لطيفًا أن أجد شخصًا يهتم بي. كان أيضًا يسألني عن سبب عدم عودتي إلى كندا وكل أنواع الأسئلة الأخرى التي لم أستطِع الاجابة عليها.

اكتشفت خالتي أننا نتحدث فبدأت في حبسي في الشقة. على نحو واضح، بالنسبة إليهم أن يتحدث ولد وبنت فهذا سيقود بالضرورة الى الجنس خارج إطار الزواج ثم سنحترق جميعنا في الجحيم. ومن ثَمَّ أغلقت علي الشقة كما لو كنتُ سجينةً في قلعةٍ أو سجن. في كندا تُصنَع الأبواب لمنع الغرباء من دخول المنازل، لكن الأبواب في مصر يمكن أن تحبس الناس داخل المنازل أيضًا.

كانت أخت أمي التوأم تمنعني من الوصول إلى الشيء الوحيد الذي يبقيني على قيد الحياة، أي جهاز الفاكس. كانت لديها نفس القدرة العجيبة _مثل أمي_ على إطفاء أي قبس ايجابي لأملٍ قد يبدأ في الاتقاد بداخلي. كرهتها بنفس قدر كرهي لأمي لكنني لم أَخَفْ منها كما أخاف أمي، ولذلك كانت لدي تلك الأفضلية.

شككت أن من جملة أسباب كرهها الشديد لي أني أخبرتها أنني لن أتزوج ابنها أبدًا. ارتعشت وضحكت بينما أكشر وجهي باشمئزاز وقلت لها أني لن أتزوج أحد أقاربي من الدرجة الأولى أبدًا، ناهيك عن ابن أخت أمي التوأم. لقد كان عمليًّا أخًا لي!. كان ابنها الوحيد ومن وجهة نظرها (في مجتمع يشيع فيه زواج أقارب الدرجة الأولى[1]) فقد اعتبرت اشمئزازي من الفكرة نفسها على أنه موجَّه لابنها المحبَّب لها على وجه التخصيص. فكيف أقدر أنا ومن أنا لكي أرفض أميرها الصغير؟

كان علي أن أبتكر طريقةً لكي أغادر تلك الشقة وأفلت منها [عمتي]. قررت أن أجد طريقة لكي أعيش مع خالة أخرى لي، أخت أمي الصغرى، لأنها كانت عادية أكثر. كلمت أبناء خالتي (أو أقاربي) في الأمر، فأخبروني أنها سوف تسمح لي بالبقاء معها. كما أخبرني ابن الجيران أنه سوف يساعدني على إيجاد عمل. كانت خطتي تعمل جيدًا. وبمساعدة الجميع غادر ذلك المنزل ووجدتُ عملًا وأوقَفْتُ إضاعةَ حياتي.

في المرة التالية التي ذهبنا فيها الى بيت خالتي الصغرى للعشاء رفضت العودة. ضربتني توأم أمي بقبضتيها المغلقتين وكان وزنها أكثر من ٣٠٠ رطل (١٣٦ كيلوجرام). لم أكترث لذلك. لم أكن لأغادر إلا اذا كانت مستعدة أن تحملني حملًا عبر السلالم لتلقي بي في سيارة تاكسي. أنا لن أغادر.

بعدما أطلقت عنان لسانها بالسباب والشتائم والصراخ المتكرر استَسْلَمَتْ في النهاية وغادَرَتْ. خاطرت خالتي ايمان بتحدي أختها الكبرى ووفرت لي مكانًا في بيتها، وكم كنت ممتنة لذلك. لم تعد لي غرفتي الخاصة بي بعد الآن؛ إذ صار علي أن أتشارك غرفةً مع ابنتيها، لكنني لم أمانع ذلك. إذ مع خالتي الشريرة كان لي غرفتي الخاصة بي لكني لم أشعر إلا بالوحدة. كنت سعيدة بتشارك الغرفة مع بنتَيَّ خالتي الصغيرتين. وكنت أكثر سعادةً بالهروب من تلك الحيزبون المستبدة.

[1] في المجتمعات غير المسيحية أو غير التي كانت من أصول ثقافية مسيحية فإن زواج أقارب الدرجة الأولى كما في مجتمعات المسلمين واليهود والهندوس والبوديين وغيرهم شيء عادي، لكن ربما تكون خفَّت في العصر الحالي حدة تأثر مجتمعات الأغلبيات الإلحاديات/ أو المسيحية العلمانية الأورُبية ذات التاريخ المسيحي وخلفية التقاليد الاجتماعية المسيحية في هذا الجانب بعض الشيء، وما تطرحه المؤلفة هو تفضيلاتها الشخصية بالتأكيد.

الوقوف على قدمي

لأول مرة في حياتي غيرت قدري. نجحت في تغيير المسار الذي تتخذه حياتي. رغم ذلك، لم أكن قد عرفتُ أهمية تلك اللحظة. لم آخذ الوقت لأدرك أني كنت قد صرت آنذاك قد اكتسبت التحكم في حياتي. كنت سعيدة لكن كان كل الفضل باعتقادي يعود لله. كنت ممتنة لأنه سمح لذلك بالحدوث.

اتصلت بابن الجيران وكان عند وعده إذ وجد لي عملًا كموظفة استقبال في شركة يملكها صديقه. الحمد لله أن كل شيء سار على ما يرام. عملت مع امرأة أخرى وكانت تقوم بالعمل الحقيقي كله لأنها كانت مؤهلة تأهلًا حقيقيًا. كنت فقط أجيب على مكالمات الهاتف لأثير إعجاب العملاء بلغتي الإنچليزية المثالية. كنت ألتقي العملاء وأجلس معهم في الاجتماعات بدون سبب إلا ليروا أن لدى شركتهم موظفة تتكلم الإنچليزية بإتقانٍ تامٍّ.

عملت هناك لبضعة أشهر وفي ذلك الوقت بدأت أتعافى. كانت حياتي إلى ذلك الحين تبدو لي سلسلة من الخيبات والصفعات العنيفة. كنت كطفلة كلما حاولت الوقوف على قدميها يعيدونها إلى الأرض . وفي آخر الأمر حاولت الوقوف على قدمي مرة أخرى أيضًا وأنا مراهقة وحدث نفس الأمر. بعد كل ضربة كنت أحتاج وقتًا أقلَّ فأقلَّ لكي أتعافى. ثم هُجِرْتُ وتُرِكْتُ في مصر لسنة واحدة فقط فصرت أقوى.

ثرت لكرامتي وقررت أني سئمت ركوب الحافلة يوميًّا إلى العمل والتعرض للتحرش من قبل أعداد غفيرة من الرجال المقززين في بلد مزدحم للغاية. لا تسلم منهم أي امرأة تسير دون رجل يصحبها مهما كان سنها ومهما كان جسدها مغطى. بدا الأمر كأن كل الرجال يمارسون نفس السلوك المتشابه، يتحرشون بالنساء كأنه واجب وطني عليهم. تظهر الدراسات أن ٩٩.٣% من النساء في مصر في الاستبيانات أَبْلَغْنَ بتعرضِهِنَّ للتحرش الجنسي.

فقررت إيجاد عمل قريب أستطيع الذهاب إليه سيرًا. كانت هنالك مدرسة دولية خاصة قريبةٌ من بيت خالتي فذهبت لأكلم مديرها. أخبرته أنني حصلت على الشهادة الثانوية فقط، لكني أريد تدريس الإنچليزية. حاول إقناعي بتدريس التلاميذ في السنوات الأعلى لكني رفضت. وفضلت أن أدرس أطفال روضة الأطفال، لأني كنت أحب الأطفال الأصغر سنًّا، ولأني لم أكن واثقة في قدراتي التعليمية (التي كانت لا وجود لها آنذاك). لانَ في النهاية لكن بشرط أن أقبل أجرًا أقل. كنت أحصل على ١٠٠ دولار شهريًّا مقابل التدريس لدوام كامل. وكنت سعيدة.

بدأت أجد بهجةً في الحياة. صارت لي صديقات من زميلاتي المدرسات وصرت أخرج معهن وأعيش مثل إنسان حقيقي. صرت أزورهن في منازلهن ونذهب للتسوق معًا. كنا نتجول معًا ونتحدث عن خطيب هذه وصديق تلك. تناهى هذا إلى سمع أمي فسارعت لكي تنهي ذلك فورًا. [ففي نظرها] إذ سُمِحَ لي بالتجول مع النساء العاملات فإني سوف أتلوث ويلحقني العار.

سألتني بصوت أجش ضاغطةً على كلامها: "هل أولئك النساء مسلمات أو مسيحيات؟"
"لا أدري". رددتُ عليها وأنا أرفع صوتي داخل حجيرة الهاتف للتغلب على الضجيج في الخلفية.

"هل يَلْبَسْنَ الحجاب؟"
"لا"
"إذن تقصِّي الأمرَ"
سألتُها: "و كيف لي أن أعلم؟"
هل يقلن ان شاء الله؟"
"نعم..."
"حسنًا، لا يمكنك التأكد أبدًا. بعضهم يعتقد أن الله يعني إلههم المسيحي أيضًا. قولي شيئًا عن سيدنا محمد لتتأكدي. المرة القادمة عندما تكونين معهن قولي لهنَّ "صلي على النبي".
"وكيف ستتسنى لي الفرصة لأقول هذا؟ ولم سأفعل هذا؟ لا يهمني اذا كُنَّ مسلماتٍ أو غير مسلمات".
"ذلك لأنك تحبين الكفار. اذا لم يُجِبْنَ بـ "صلى الله عليه وسلم" فذلك يعني أنهن لسن مسلمات.
"حسنًا"
"إذا لم يكن مسلمات فلا يُسْمَحُ لك بمصادقتهن!"
لم أختبر قط إيمانهن بكلمة سر المسلمين. وأخذت أمي تفقد صبرها بسبب استقلاليتي الجديدة. بدا أنه لا يمكن إيقافي. ألبستني الحجاب وأخرجتني من المدرسة وتركتني في بلاد أجنبية لكنني لم أتوقف عن أن أكون قويةً قادرةً على التعافي على نحوٍ مزعجٍ لها. فقررت أمي الانتقال إلى إجراءات أقسى.

وبما أن حملة تزويجي لابن خالتي الأول فشلَتْ، بدأت أمي وعائلتها حملة جديدة لتزويجي من ابن خالتي الثاني. كنت في الثامنة عشرة من عمري، ولم أرغب في الزواج. لكن أمي كانت متعنتةً مصرةً. لقد كانت قد تركتني في مصر لترويضي وإخضاعي. كانت الخطة هي ترويضي. لكن بدلًا من ذلك نجحت في التحرر من سيطرة أختها التوأم وصرت الآن أعمل وأجني المال وصرت واثقةً من نفسي وأقوى ومستقلةً. لم يكن أي شيء يسير كما خططت له. فصار لزامًا عليها أن تضع نهاية لهذا على نحو فوري. لم يكن الضغط آتيًا منها فحسب، بل وكذلك من خالاتي وأخوالي وأقاربي وحتى الجيران.

"ما الذي ستفعلينه غير الزواج؟ لا يمكنك العمل فقط لبقيةِ حياتك. عليك أن تتزوجي". كان أقاربي يلحون.

كما ذكَرْتُ من قَبْلُ، فإنهم يعلمون المسلم(ة) أن يتجاهل مشاعره الداخلية. وتُنْسَبُ هذه المشاعر في العادة إلى الشيطان. الشيطان هو الذي يهمس في أذنك ويجعلك تشعر بتلك المشاعر والأحاسيس. من ثَمَّ تتعلم أن تتجاهل مشاعرك "الشريرة" وتفعل ما تؤمر به فقط. يخبرونك أن الآخرين الذين حولك أذكى منك وأكثر تجربة. ولا يكون لك ثقة في قدرتك على اتخاذ قرارات على أي حالٍ، فتلك المهارة لا تُشجَّع أو تُنمَّى بفاعليةٍ قط.

قبلت نصيبي (قدري الذي خططه الله لي) وتركتهم يدفعونني إلى دوامة الاستعدادات للزفاف. كان علي اختيار فستاني ومجوهراتي والأزهار وغير ذلك. و كان علي أن أكون مطيعة وأقبل كل ما قد أُكْرِهْتُ عليه في الحقيقة. لم تكن لدي أي رغبة أو اهتمام لكنني لم أقاوم ذلك. لم تكن هنالك بدائل. كان هذا ما يتوقعونه مني وكان الجميع سعداءَ للغاية. وطبعًا تركتُ عملي.

ذات يوم عبر الهاتف طلبت من أمي أن ترسل لي تذكرة طائرة لكي تمكنني من العودة إلى الوطن لتوديع كندا لمرة أخيرة.

فقالت: "أوه، نعم، بالتأكيد. لكي تأتي إلى هنا ولا تعودي الى مصر، صحيح؟ أتظنينني غبية؟ أنت تحاولين الهرب من ذلك الزواج فقط".

لم أكن قد فكرت في ذلك قط لكنها بدت لي كخطة ممتازة.

لم أطلب منها مجددًا أن أعود إلى الوطن. كنت أثرثر بحماس لها فقط عن خطيبي وتحضيرات الزفاف. كانت مقتنعة بأنني أقول الحقيقة لأنني لم أظهر لأحد أي دلالة على أن لي أي اهتمام بالعودة إلى الوطن[١].

بدأت الأمور تصير خطيرةً عندما طلب مني خطيبي أن أختار معه شقة. كان سيدفع عربونًا ليشتريَ شقة كبيرة للغاية بالنسبة إلى رجل أعزب. بدأت أقلق من أن خطتي لو نجحت وعدت إلى كندا فسيجد نفسه متورطًا في هذه الشقة الفسيحة. حذرته أن عليه أن يختار شقته وحده لأن من يدري ما قد يحدث بيننا، فأنت لا تستطيع أبدًا أن تعرف ما قد أعدَّهُ الله. ماذا إذا انتهى به الأمر مع خطيبة أخرى ولم يعجبها ذوقي في الشقق؟ لم أستطع إخباره أني آمَلُ مغادرة مصر وعدم العودة لها أبدًا. ثم فكرت أنَّ لا ضير في أن تكون له شقة كبيرة جميلة. كان من الخطر للغاية إخباره بالحقيقة.

عقدنا الخطوبة وأقمنا الحفلة وكل شيء. لبست إكليلًا من ورود بلاستيكية فوق حجابي وشعرت أني (وبدوت) كالغبية. لم يعرف أي أحد بأدنى فكرة عما أخطط له. لم تكن لدي أي فكرة عما إذا كانت خطتي سوف تنجح أم لا فكنت أتصرف بحذر كأني سوف أبقى في مصر كي لا أجد نفسي في مأزق إذا فشلت خطتي ولم أستطع العودة إلى الوطن.

لكن خطتي _أو بالأحرى خطتها_ نجحت. وافقت أمي على منحي تذكرة إلى الوطن (كندا). تمكنت من التلاعب بأمي كما كانت قد تلاعبت هي بي من قَبْلُ مراتٍ لا حصرَ لها. نجحت مرة ثانية من تغيير قدري. اتخذت قرارًا وعملت على تنفيذه ونفذته. لعل هذا ممكن وحقيقي فعلًا و ليس مجرد حظ!

ما أن صارت التذكرة في يدي حتى أخبرت خطيبي بالحقيقة. لم يكن رجلًا سيئًا لكني ما كنت لأنجذب إليه أبدًا أيضًا. وبالتأكيد ما كنت لأتزوج ابن خالتي. الأمر مقبول تمامًا في مصر وفي كل أنحاء العالم الاسلامي. فقد كاد أخي أن يتزوج من ابنة خالته، لا أحد [من المسلمين] يرفض هذا النوع من الزواج أو يتحفظ فيه. لكنني ما كنتُ لألد طفلًا ذا ثلاثة أعين. أخبرته أنني عائدة الى كندا وأني في حاجة الى أن يكتم السر. وأخبرته أني لا أريده أن يشعر أني قد هجرته. أعدت له الشبكة، وهي مجوهرات يعطيها الخطيب لخطيبته، وهي نوع من أنواع المهر أو البائنة في مصر.

"إذا تركتني فلن أتزوج امرأة أخرى أبدًا".

[١] كندا.

"بلى ستتزوج"، قلت متنهدة. كيف يمكنه أن يكون دراميًّا هكذا بينما نحن بالكاد نعرف بعضنا البعض.
"لا. لن أتزوج. سأموت وحيدًا وسيكون ذلك بسببك. سيتعين عليك أن تعيشي مع ذلك الإحساس بالذنب".

اعتذرت إليه بشدة وودعته. شعرتُ بالذنب لكني لم أكن لأسمح لذلك باثنائي. أعددتُ حقائبي بنشاطٍ وأنا أكاد أقفز فرحًا.
قال ابن خالتي الصغير: "لم تأخذين كل شيء؟ سوف تعودين بعد شهر فقط".
"لا. لن أعود إلى هذا البلد أبدًا".
"ماذا؟ حقًّا؟ لم؟ متى سأراكِ مرة أخرى؟"
"قد أعود بعد عشر سنوات أو نحو ذلك، لكن ليس بعد شهر بالتأكيد".

ومرة أخرى جعلت قريبي يقسم على أن يكتم السر. لم أرد لأي شيء أن يحول بيني والمطار. كنت ألمس تذكرتي بعاطفة وأقرأ شروطها وأحكامها المكتوبة بخط صغير مرارًا وتكرارًا، وأستذكر شعار الخطوط البريطانية، وأقرأ تفاصيل مسار الطائرة. كنت أعد الدقائق.

الوطن

عندما استقللت الطائرة أخيرًا كنت أكاد أقفز فرحًا! كنت أنوي أن أقول لأمي نفس الكلام الذي قلته لتوأمها الكريهة مثلها: "ما لم تكوني عازمةً على حملي حملًا إلى الطائرة العائدة إلى مصر، فإني لن أذهب إلى أي مكان!".

ما أن أعود الى كندا حتى أحصل على قرض طلبة وأذهب إلى الجامعة ثم أصير معلِّمة حضانة أطفال حقيقية. كان مستقبلي مشرِقًا وما كنتُ لأسمح لأحد بأن يقف في طريقي مرة أخرى أبدًا!

عندما حطت الطائرة أخذت أفحص الحشود بحثًا عن أمي. لمحتها وقد اصطحبت معها زوجها المزيف ليستقبلني في المطار. شعرتُ بالغثيان[1].

حالما عدنا إلى شقتها وجدتُ أن "وجبة الترحيب بي" كانت سمك السلمون. كانت مطبوخةً بكاملها في الفرن بدون نزع العيون. كم هذا مقزز. كانت تعلم أنني لا أحب السمك أصلًا، لكنه كان طعامه المفضل. لقد استغلت على الأرجح مناسبة عودتي كمبرِّرٍ لانتزاعه من زوجته و كانت تحاول الظفر باستحسانِه. لا أدري إن شعر بعدم ارتياح أكثر مما شعرتُ، لكن شعوره كان مقاربًا لنفس درجة شعوري يقينًا (متبادَلًا مع شعوري).

استمعت بإخبار أمي بأني لن أعود الى مصر. لم أكن أنوي قول أي شيء الى أن يحين وقت الرجوع، لكني غضبت للغاية لأنها أحضَرَتْ الرجلَ الذي آذاني بوحشية إلى المطار ثم جلبته معها إلى شقتها، أردتُ أنْ أبصُقَ انتصاري في وجها بأسرع ما أستطيع.

صُدِمَت في البداية.

"لكنْ ماذا عن الزواج؟! والمجوهرات؟! والشقة؟!" كانت تصيح تقريبًا.

"لا أهتم لأي من هذا". قلت ذلك وأنا أنظر في عينيها. فتغير أسلوبها فورًا:

قالت بنبرة مظلمة ومليئة بالغِل: "كنت أعرف هذا"، "كنت أعرف أنك فتاة مريضة شيطانة. كنت أعرف أن هذه خطتك. أنت ملعونة. لن تذهبي إلى الجنة أبدًا بدون رضاي!. سوف أحرص على أن تحترقي في الجحيم إلى الأبد. لطالما كرهتُكِ دائمًا. لم تعودي مرحبًا بك في منزلي! أخرجي من منزلي أيتها العاهرة[2] القذرة".

قلت لها: "حسنًا. أنا أيضًا لا أريد البقاء هنا، لكن ليس لدي مكان آخر أذهب اليه". سئمت كرهها لي وكنت أقاومها بطريقة لم تعهدها من قبل. في مصر لم أكن ابنةَ أحدٍ و لم يكن يملي علي أفعالي. طوال السنة الماضية لم يصرخ أحد علي أو يشتمني. لم يُهِنِّي أحد. جربتُ لأول مرة إحساس أن تُعامَلَ كإنسان ولم أكن لأتنازلَ عن ذلك. لكنني كنت عالقة باضطراري للعيش في بيت أمي، على الأقل بالنسبة لذلك الوقت.

---

[1] الغثيان: الرغبة في التقيؤ، الاشمئزاز

[2] الكلمة الإنجليزية المستعملة هنا هي filthy cunt ، وهي شتيمة سوقية بذيئة تشبهها بعض الشتائم المصرية والعربية التي تأتي بمعنى العاهرة والقحبة لكن بلفظ أكثر سوقية.

ورغم أن أمي حاربتني في كل خطوة إلا إني تمكنت من الحصول على قرض طلابي وبدأت أدرس في الجامعة المحلية. كانت قد مرت سنتان منذ أن غادرت كندا ومن ثَمَّ فقد تفرق كل أصحابي من الثانوية واتخذوا سُبُلَ حيواتِهم المختلفةَ. تعرفت على أصدقاء جدد في الجامعة وبدأت حتى أعمل في متجر "دولار ستور" في المول المقابل لجامعتي.

كانت الأمور تسير بسلاسة. لم تكن لدي خطة على المدى الطويل. كنت أعيش كل يوم لنفسه. حاولت تجاهل تذمر أمي اليومي من كوني خيبةَ أملٍ لها.

"لم تذهبين الى الجامعة؟ أتظنين أنك سوف تتركين المنزل وتجدين عملًا وتعيشين بمفردك كعاهرة؟"

"اريد أن أصير كاتبة"

"تريدين أن تصيري كاذبة؟ ألا تعلمين أن الكذب حرام؟"

"لقد قلتُ أني أريد أن أصير 'كاتبةً'"

"نعم، من ثمَّ فسوف تصبحين كاذبةً. الكتاب يحكون حكايات لا أكثر. هل حكاياتهم صحيحة؟ لا بالتأكيد. كلهم كاذبون."

حاولت دون جدوى ألا أسمح لهذا بأن يؤثر بي. في النهاية غيرت تخصصي من الكتابة الإبداعية الى الأدب الإنجليزي لإرضائها. لاحقًا غيرته مرة أخرى إلى اللغة الإنجليزية عندما قررت أنني سوف أُدَرِّس اللغة الإنجليزية. التعليم مهنة مقبولة بالنسبة إلى امرأة مسلمة.

قضيت أيامي أَحْضُر الحصص وألتقي مع أصحابي فيما بين الحصص. ذات يوم في الكافيتيريا حدثَّتْنا فتاة اسمها سارة قليلًا عن حياتها. إنها من عائلة مسلمة ولذلك لديهم دائمًا تلك القواعد "الصارمة" عندما يتعلق الأمر بالأولاد. أضع كلمة "الصارمة" بين شارتين معقوفتين لأن بالمقارنة بحياتي في منزل أسرتي، فإن منزلها لم يكن صارمًا على الإطلاق.

أخبرتنا أنها تريد وشم نفسها برسم ورقة شجرة القيقب لأنها ممتنة لوجودها في كندا، وكيف أنها تحدت والديها طوال الوقت، وكانت تخطط للهرب مع خليلها.

حسدتها على هذا. تمنيت لو كان لدي خليل أهرب معه. أردت الهروب بشدة لكنني خِفْتُ من فعل ذلك معتمِدةً على نفسي. كان كل أصدقائي الذين عرفتهم في الجامعة في نفس الوضعية مثلي. كانت إحداهن من عائلة صينية صارمة و الأخرى من عائلة سيخية متشددة. تشاركنا كلنا الرغبة في الهروب من حيواتنا الحالية آنذاك، لكننا كلنا كنا خائفاتٍ من عمل أي شيء حيال ذلك. لم يكن يُسْمَحُ لأيٍ منا بالذهاب إلى بيوت الأخريات، ولذلك كنا نلتقي فقط في المول بين حصص المحاضرات. لكننا لم نشجِّعْ بعضَنا البعضَ على الهروب لأننا لم تكن لدى أي منا الشجاعة للقيام بذلك.

حاولت التواصل مع أصدقاء قدماء قد يساعدونني على ترك المنزل. لكن إعادة التواصل كانت صعبة في تلك الأيام. كان عليك أن تتمنى أن تكون أرقام هواتف منازلهم ما زالت هي نفسها، وأن تتصل بوالديهم وتطلب منهما بيانات الاتصال الجديدة الخاصة بهم.. كانت تيفاني بالتأكيد أول من اتصلت به، لكن والديها أخبراني أنها صارت تعيش في

السويد مع صديقها. فاتصلت بأصدقائي المقربين الآخرين. ووجدت أن أحدهم انتقل إلى جزيرة ڤانكوفر مع صديقته، بينما صار الآخر يعيش في مونتريال آنذاك. لم أجد حبل نجاة في أي مكان.

ذات يوم التقيتُ صديقًا قديمًا من الثانوية. كنت أحس بالشجاعة على نحوٍ خاصٍ في ذلك اليوم، فأخبرته أني معجبة به. لكنه أخبرني أنه ليس منجذِبًا لي. بالتأكيد، هو لا يجدني جذابة جسديًّا. ولن ينجذب لي أي شخص آخر. كنا صديقين مقربين لكنه لم يرتَضِ أن يتغاضى عن قبحي الجسدي[1]. و كيف يمكن لأي أحدٍ له بصرٌ أن يتغاضى عن هذا الغطاء على رأسي ويجدني جذابة فيريد أن نصير معًا، إذا كان حتى أصدقائي المقربون جدًّا لم يستطيعوا التغاضي عن ذلك؟

البحث عن أمير يحقق لي أحلامي ويدعمني في مسعايَ للخروج من وضعيتي التي كنتُ فيها آنذاك لم يكن هدفًا واقعيًّا. لم يكن أي أميرُ أحلامٍ ليهتم بالفوضى (أو "الهرجلة") التي كنت عليها. لم تكن لدي الثقة في النفس أو الشجاعة للاعتقاد أو التفكير في أني يمكنني مغادرة منزل أمي بالاعتماد على نفسي. لم أستطع رؤية مخرج من مأزقي.

كان الثابت الوحيد منذ عودتي من مصر هو تذمر وإلحاح أمي عليَّ بالتوقف عن إحراجها وأن أتزوج سريعًا. صرت تقريبا ذات عشرين سنة وقد تجاوزت بالفعل "تاريخ صلاحيتي" وكان إلحاحها يصير سخيفًا.

"من تخدعين بذهابك الى الجامعة؟ بأيِّ هدفٍ؟ ما الجدوى؟ هل تظنين أنك سوف تخرجين من المنزل أو تعملين لتعيلي نفسك؟ توقفي عن هذا الهراء وتزوجي كامرأة محترمة!"

كان هذا طقسًا يوميًّا، وفي النهاية تمكنت من إنهاكي. وبما أنه لم يكن لدي أي شيء يسحبني في الاتجاه المعاكس خضعت لوابل نقدها الذي لا ينتهي. هذا صحيح. من أخادع؟ ما هي خطتي النهائية على أي حال؟ لن يعجب بي أي فتى عادي أبدًا. فلم لا أوافق على مقابلة الرجال المقززين الذين ستحضرهم؟

قابلت بعضهم وكان كل منهم أفظع (أو أقبح) من سابقه. لم أستسغ فكرة الاستسلام، لكني كنت قد تعبت أيضًا من المقاومة. الحقيقة هي أنني كنت مرهقة. وكنت لا أزال أريد أن تحبني أمي وتفخر بي. و أردت أن أعيش حياة سلسة هادئة لمرة. أردت إخماد هذا الرفض المستمر الذي كان يختلج في قلبي وروحي وعقلي. وما الذي أقاوم لأجله على أي حال؟ ما هدفي النهائي؟ ما أردته في الحقيقة أكثر من أي شيء هو أن أحس بالحب والتقبل. وبدا أن الطريقة الوحيدة للحصول على هذا هي الاستسلام والانقياد لأمي.

قررت في النهاية أن أصغيَ إليها بقلب مفتوح. لا مزيد من المقاومة بعد الآن. سوف أتبع طريقها وأرى إلامَ[2] سيقود. لعلي أجد السلام والحب اللذين أتوق إليهما. ربما إذا فعلت كل ما تريده لن تشعر بالتقزز بعد الآن عندما تنظر لي. لعلها سوف تحبني. لعلي أشعر أخيرًا بشعور المعاملة التي تُعامَل بها أختي.

---

[1] بالنظر إلى المؤلفة في صورها فهي ليست قبيحة عمومًا وإن كانت ذات طبيعة ممتلئة قليلًا، وإنما هذا على الأرجح كان نتاجَ التعنيف اللفظي والعقد التي زرعتها فيها أم مسيئة، وهي هنا تحكي مشاعرها قبل أن تكتسب استقلالها في حياتها وشخصيتها وتكتسب السلامة النفسية والثقة في النفس لاحقًا.
[2] إلامَ: إلى ماذا سيؤدي، إلى ما سيؤدي إليه.

زوجت أختي الكبيرة الصالحة بطاعة بابن الرجل الذي كان يضربني ويتحرش بي وأنا طفلة. أذكر أنني كنت مرعوبة وساءلت أمي، فقالت:

"لا شأن لك بمن تتزوج"

"هل أخبرتها بما فعله بي حموها (أبو زوجها) المستقبلي؟"

"لا علم لي بما فعله بك". وكان إنكارها حاسمًا.

بعد سنوات، بعدما تزوجته وأنجبت ثلاثة أطفال، وبعدما خانها الكثيرَ من المراتِ، وطلقها في النهاية، وجدتها على الفيسبوك فأخبرتُها بالحقيقة، فردت علي:

"لم إذن لم يفعل بي نفس الشيء؟".

كان هذا ردها: الإنكار والمراوغة. لا أدري لِما آلمني هذا. كان علي أن أعرف أن هذا سيحدث. أحسست أنها خرجت من الكمبيوتر وطعنتني في الوجه والقلب. بعد كل هذه السنوات وجدتُ أخيرًا الشجاعة للحديث جهرًا وكان هذا ردَّها.

لم تكن أختي أبدًا شخصًا من النوع الذي كنت لأقتدي به لكنها كانت مهجة أمي. وأردت أن أحس نفس الإحساس.

لم تقاوم أو تتشاجر أختي مع أمي في أي شيء. لقد أصغت لها واتبعت نصائحَها دائمًا مهما كانت درجة جنون تلك النصائح. بعد عملية بضع الفرج[1] اقترحت عليها أمي أن تجلس في حوض (بانيو) مليء بالماء المالح وفعلت ذلك. أذكر أنني كنت أحدق فيها باستغراب مفتوحة العينين وهي تحكي ذلك لي.

"لقد وضعت الملح على الجرح المفتوح حرفيًا يا "ريما"!. كيف أمكنك فعل ذلك؟"

"أمي قالت لي ذلك"

"نعم. لكنك كنت تعرفين أن ذلك سوف يؤلمك."

"اعتقدت أنه سيؤلمني لكن أمي أدرى مني ولذلك اعتقدت أنني كنت مخطئة"

"كيف يمكنك أن تنقادي لها بعَمَىً دائمًا؟".

لم أستطع أن أفهم كيف أن شخصا أتشارك معه الجينات يمكن أن يكون عكسي تمامًا.

لم تتغير أختي قط. واصلت اتباع أوامر أمي رغم أن نصائح أمي قادتها إلى المآزق والضياع والبؤس. أقنعتها أمي بأن تتخلى عن أطفالها لأبيهم إثر الطلاق لأنه "لا يوجد رجل أبدًا يريد امرأة لها ثلاثة أطفال". أخذ زوجها الأطفال ورحل بهم إلى بلد مسلم يستطيع فيه الزواج من زوجات عديدات بحرية.

آخر مرة رأيت فيها أبناء أختي، كان عمر صغراهم (أو صغراهما) أربع سنوات وكانت هي وأختها ترتديان الحجاب.

---

[1] بضع الفرج أو شق العِجان episiotomy: شق جراحي مخطط على العجان وجدار المهبل الخلفي خلال المرحلة الثانية من المخاض. ويُعمَل الشق بزاوية ٩٠ درجة من الفرج باتجاه فتحة الشرج أو بزاوية مائلة، تحت مخدر موضعي، ويُخاط بعد الولادة. وهي إحدى أكثر الإجراءات الطبية شيوعًا، رغم انخفاض معدل استعماله في العقود الأخيرة.

لكنني لم أكن أعرف أن أيًّا من هذا سوف يحدث [مع أختي]. كل ما كنت أعرفه هو أن أختي كانت الابنة المحبوبة والمُحْتَفَى بها، بينما كنت أنا الإزعاج البغيض. فقررت تقليد أختي والحذو حذوها والطاعة.

الإخضاع ٣

واصلت مقابلة طالب الخطوبة تلو الآخر ورفضتهم جميعًا لسببٍ أو لآخر. كنت قد اعتزمت الزواجَ إرضاءً لأمي لكني أمِلْتُ على الأقل أنْ أتزوج من شخصٍ لائقٍ.

قابلنا طالبَ خطوبةٍ آخَرُ، لترحب به أمي كالمعتاد. عندما أخذ يتحدث مع أمي بالعربية انفصلت ذهنيًّا. فقد كنت قد اتخذت قراري مسبقًا بعدم الزواج من شخص لا يتقن الإنجليزية، لذلك توقفت عن الانتباه. وبينما أحدق في نمط السجادة وأفكر في أحد الواجبات الجامعية التي يجب علي القيام بها، قفزت أمي من كرسيها، قائلة:
"أنت هو! أنت الذي كنت أبحث عنه طوال حياتي!"

نظرت إلى الرجل الذي بدا متفاجئًا بقَدْرِي. لا أعلم ما الذي قاله لها ليثير حماسها بهذه الطريقة لكنها بالتأكيد كانت متحمسة لهذا الشخص.

حاولت لاحقًا أن تجلعني أوافق على الزواج منه لكني ظللتُ أرفض. لقد وجدته منفِّرًا (مقزِّزًا).

"لا، لن أتزوجه. إنه لا يتحدث الإنچليزية حتى!"

وصل الأمر إلى أن تهددني بطردي من البيت، لكني تمسكت برفضي. فجربت تكتيكًا مختلفًا:

"عشت كل حياتي لأجلك. لم اتمكن من أن أعيش حياتي لأنني ضحيت بحياتي لأجل سعادتك. كنت أستطيع ترككم جميعًا مع أبيكم و الزواج مرة أخرى والاستمتاع بحياتي ونسيانكم تمامًا كما فعل هو! لكني بدلًا من ذلك عانيت كأم عزباء لثلاث أبناء عاقِّين، وحيدةً في بلاد غريبة، كل ذلك لأجلكم. كل ما أطلبه منك هو أن تفعلي هذا الشيء الوحيد من أجلي، ولا يمكنكِ فعل ذلك؟"

كانت عمليات إشعاري بالذنب والابتزاز العاطفي دائما أكثر فاعليةً من التهديدات. أردتُ فعلًا إسعاد أمي. وظننت أن هذا هو ما سيحقق ذلك. لعلي إذا تزوجتُ هذا الرجل سوف تحبني أخيرًا. أو لعلها سوف تتوقف على الأقل عن كرهي تلك الكراهيةَ الشديدةَ أخيرًا. كنت ألِينُ قليلًا لكني ظلَلْتُ لا أستطيع إجبارَ نفسي على الموافقة.

قالت لي: "افعلي هذا لأجلي، أنا لا أستطيع الزواج منه. لكنْ إذا تزوجتِهِ أنتِ وعشتُ معكِ فسوف أستطيعُ أن أكون معه".
كان هذا كلامًا عجيبًا جدًّا لكني كنت لا أزال غير معتادة على تحديها بجدية.

لأشهر بعد ذلك استمرت في الالتقاء به. كنت لا أكون موجودةً حتى. لقد كانت كما يُفتَرَضُ تُدَقِّقُ فيه لأجلي.

"أنتِ تضيِّعين وقتكِ. لن أتزوجه"

"أنا لا أضيع وقتي. أحب بالحديث معه. أنت غبية للغاية. أنت لا تدرين قيمة الرجل الذي ترفضين. لن تجدي أبدًا رجلًا آخَرَ مثله. إن لي خبرةً وأعرف الرجال! أنتِ لا تعرفين أي شيء. أنا أقول لك أنك لن تجدي أبدًا شخصًا جيدًا مثله وسوف تندمين على مقاومتكِ لي".

كانت هذه كلمات قوية. وكشخص لم يعلمني أحد أن أقدر آرائي الشخصية أرعبني كلامها. كنت على يقين من أن أمي تعرف أكثر مني وكنت خائفة من ارتكاب خطإٍ، لكني ظللتُ رافضةً رغم ذلك.

لم يضعف ضغطها المتواصل قط. لو أني اعتقدتُ أنها كانت سامةً شريرةً قبل ذلك، فقد كانت وردةً رقيقةً تمامًا مقارنةً بما صارت عليه آنذاكَ. لقد كانت قاسيةً خلال الأشهر التالية في ضغطها علي لكي أتزوج هذا الرجل. كما أُضِيفَ ضغطٌ منه هو أيضًا. كان يخبرها كيف أن رآني في حلمٍ أقرأ له القرآن وغيرها من العلامات بأني ينبغي علي أن أتزوجه.

لقد استخدَمَتْ كل أوراق الابتزاز العاطفي التي لديها وكل تكتيك للإجبار في جعبتِها. كانت ترفض الرد إذا كلمتها. كانت حتى تتناول الطعام في الخارج ولا تشتري البقالة. كانت تتجاهلني تمامًا إلا إذا أرادت أن تصرخ في وجهي أو تبصق علي لأنني خيبت أملها وحطمت قلبها.

يعلمنا الإسلام أن الجنة تحت قدم أمك[١]. إذا لم تُرْضِ أمَّكَ فلن تدخل الجنة. كان هذا الادعاء يحكم حياتي وكنت مرعوبة من أنها قد تحرمني من فرصة دخول الجنة وتحكم علي بالعيش في العذاب الأبدي. كانت لديها السلطة لفعل ذلك [من المنظور الإسلامي].. كانت بالنسبة لي تجسدًا لله. كانت علاقة الحب والخوف التي كان يُفْتَرَضَ أن أشعر بها اتجاه الله، اشعر بها في الحقيقة اتجاهها هي. كانت تمسك آخرتي بيدها.

"أعدك أنك ستحترقين في جهنم إلى الأبد. إنْ لا تتزوجيه فلن أدعك تضعين قدمكِ في الجنة أبدًا. لن تشمي حتى رائحة الجنة! لن يكون لي أي علاقة بكِ. لن يُسمَحَ لكِ حتى أن تحضري جنازتي! سوف أحرص على أن يعلم الجميع أنك لم تعودي ابنتي.".

كانت هذه أقوى حيلها، ورقتها الرابحة: "لن تري الجنة أبدًا. سوف تحترقين في النار إلى الأبد". كيف لي أن أقاوم مثل هذا النوع من الإجبار.

أمي مفارقة غريبة. كنت أدعوها الأميرة المضطَهَدة. كانت دائما قادرة على أن تكون المسيطِرة وفي نفس الوقت الضحية. تطلب مني الأمر الكثير من الوقت لإدراك هذا الانفصام. أُدرك الآن أنها ليست الوحيدة الحاملة لهذه العقلية. أرى عددًا كبيرًا من المسلمين يمكثون بارتياح في نفس هذا الدور. في الأخبار ترى المسلمين غاضبين ميالين

[١] روى الإمام أحمد في مسنده، والنسائي -واللفظ له- وابن ماجه في «سننهما»، والطبراني في «المعجم الكبير» بإسناد حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وأقره المنذري، من حديث معاوية بن جاهمة: أنه جَاءَ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ، وَقَدْ جِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ، فَقَالَ: "هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ"؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "فَالْزَمْهَا؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلِهَا".

للمجابهة والعدوانية بسبب كوكاكولا الحمية[1] أو رفض بعض نسائهن المصافحة في مراسم منح الجنسية[2] أو حق [المنتقبات من] نسائهن في تغطية وجوههن في أثناء مراسم منح الجنسية.

طلبكَ مطالباتٍ في بلدٍ أنت لست حتى أحد مواطنيها عجرفة وتعالٍ إلى أقصى حد[3]. بيد أنه يُعلَن عن هذه المواقف ـعلى نحوٍ غير مفسَّرٍ أو مبرَّرٍـ على أنها حالات اضطهاد وأنهم ضحايا. كيف لأحد أن يكون ضحية في نفس الوقت ينضح تعاليًا وتبجحًا واللذان يقوِّضانِ بالتأكيد ادعاءَهم أنهم ضحايا؟!

الاغرب أنهم ينجحون في هذا. لأن بشرتهم سمراء أو غير بيضاء يُعتبَرُون تلقائيًّا أقلية مضطَهَدة. فيستعملون عقدة ذنب الرجل الأبيض غير المنطقية لصالحهم. طالبت امرأة في كندا بالحق في تغطية وجهها في أثناء مراسم منح المواطَنة رغم أن هذا كان ضد القانون. و في النهاية نجحت في تغيير قوانينا (قبل حتى أن تصبح مواطنة). هي تعلم جيدًا أنها ليست مضطهدة في كندا وتعلم أنها هي التي تمارس التسلط والاستئساد. لكنها تلعب دور الضحية كلما صلُحَ ذلك كوسيلة ملائمة لتحقيق هدف.

انظر إلى حالة المسلمين الذين تظاهروا في المملكة المتحدة (بريطانيا) غاضبين لأن زوجة إرهابي معروف أخذتها الشرطة لاستجوابها. لقد صاحوا في مكبرات الصوت بصوتٍ عالٍ وعدوانيةٍ قائلين: ″فلتذهب بريطانيا الى الجحيم. فلتذهب الشرطة البريطانية إلى الجحيم″. ورفعوا أعلامًا سوداء ولافتاتٍ تقول ″الشريعة هي الحل″ و ″الشرطة البريطانية إرهابيون ومتطرفون″. بعد أن انتهت امرأة منتقبة من توبيخ امرأة بريطانية لأنها تسير في الشارع "عاريةً" على حد قولها (كانت في الحقيقة تلبس رداءً طويلًا) وسألتها "من الذي تحاولين إغراءه؟" و قالت لها أيضا "ضعي بعض الملابس". نفس هذه المرأة قالت في المظاهرة لاحقًا مفسِّرةً سببَ المظاهرة بأنها "رسالة لإيقاف الاضطهاد". هذه المفارقة المثيرة للسخرية كانت لتكون مضحكةً لولا أنها محزنةٌ للغاية.

---

[1] تلمح المؤلفة هنا على الأرجح إلى قصة داعية تدعى فاطمة أحمد أقامت زوبعة لأنها على أحد خطوط الطيران لم يقدموا لها العبوة المعدنية الخاصة بالكوكاولا الدايت أو الخاصة بالحمية غير مفتوحة كما طلبت، وهو ما فُهِمَ على أنه لاعتقادهم أنها يمكن استخدامها كسلاح على الطائرة! في حين قدموا لمن كان بجوارها عبوة الجعة أو البيرة المعدنية غير مفتوحةً كما طلب! وقامت حملة إسلامية لمقاطعة شركة خطوط الطيران تلك وقتئذٍ! وبالتأكيد اعتذرت شركة الطيران وأقالت المضيفة مرتكبة الفعل من العمل لديها.

[2] لعل المؤلفة تشير إلى حالة حدثت في فرنسا قبل ظهور فَيْرس كورونا كوفيد-١٩، حيث كانت مراسم منح الجنسية تتضمن مصافحة المسؤول الحكومي، فرفضت امرأة جزائرية كانت ستحصل على الجنسية ذلك بحكم التعاليم الإسلامية في نسختها الأصولية والمنتشرة في هذا العصر في المجتمعات المسلمة على نطاق واسع حتى أكثرها تمدنًا والتي لم تعرف تلك العادات في عصور الملكيات والانتدابات الاستعمارية، فكانت النتيجة حرمانها من الحصول على الجنسية بدعوى أن رفضها المصافحة يدل على عدم اندماجها مع المجتمع الفرنسي، وعندما طعنت المرأة الجزائرية التي لم يُذكَر اسمُها في الإعلام على القرار، حكمت المحكمة الإدارية العليا الفرنسية بتأييد قرار منع منحها الجنسية عام ٢٠١٨، وهي متزوجة من مسلم فرنسي (حيث يكثر نسبيًّا المسلمون الفرنسيون ذوو الأصول الجزائرية والمغاربية في فرنسا) منذ عام ٢٠١٠. أو قد تكون المؤلفة تشير إلى حالات وقصص مشابهة في كندا أو أي دولة أخرى فيها نفس هذه المراسم.

[3] لو توقف الأمر عند ما أوردته المؤلفة من أمثلةٍ فهذه حرية شخصية للمسلمين، لكن نرى الأمور تطورت إلى أكثر من ذلك، ففي فرنسا مثلًا ارتُكِبَتْ تفجيرات واغتيالات لصحفيي ورسامي صحيفة شارل إبدو، على يد بعض المسلمين الذي استضافتهم فرنسا وربما حتى منحت الجنسية لكثير منهم وهم لا يمكن أن يقبلوا قيم حرية الرأي والتعبير والكلام والنقد والفكر. وحدثت مظاهرات وعنف وقتل وحرق كنائس في أنحاء العالم الإسلامي مرتبطة بالغضب من رسوم شارل إبدو الساخرة من محمد والإسلام، وللعلم فرنسا دولة علمانية يقال حسب حصائيات أن نصف سكانها ملحدون ولها تاريخ عريق ودور كبير في بزوغ فكر الإلحاد المعاصر وبعض مناهجه وأطروحاته الفكرية والسياسية، نفس القصة في حالة الرسام الدنماركي في دولة أغلبيتها الساحقة ملحدون، وكالعادة فجر بعض المسلمين كنائس مواطنيهم المسيحيين الذي لا علاقة لهم بالأمر وقتلوا من فيها بذلك، ظنًّا منهم أن الدنمارك مسيحية، وحتى لو كانت كذلك فما ذنب مواطنيهم المسيحيين العرب والشرقيين وما دخلهم في الموضوع؟! وحدثت مؤخرًا حالات ضرب عنيف وحشي مبرح لنساء وفتيات فرنسيات في الشارع من مسلمين في فرنسا لأنهن غير محتشمات في نظر بعض لمسلمين الذي استضافتهم فرنسا وفتحت لهم أبوابها فبدؤوا يحاولون فرض قيمهم بالقوة والعنف على المجتمعات غير المسلمة، فلم يكتفِ الأصوليون المتشددون بنشر وبائهم وتعصبهم وذكوريتهم بالعنف وغسل المخ في العالم الإسلامي في دول لم تكن تنتشر فيها تلك الثقافة المتشددة في العموم كمصر وسوريا وغيرهما.

لا أدري أي أكاديمية لغسل الدماغ ذهب إليها هؤلاء كلهم والتي علَّمَتهم نفس طريقة التفكير والعمل، لكنني أرى نسخًا من أمي في كل الأخبار يوميًّا. لقد دعا كريستوفر هِتْشِنْز ذلك "الثالوث المرعب لكراهية الذات والتعالي الأخلاقي والإشفاق على الذات". كأنه قد ربته عائلة مسلمة. كيف أمكن له أن يحلل هذه العقلية ويضرب في الصميم بمثل هذه الدقة[1]؟

كان لدي شيء إضافي على ذلك لكوني ربتني امرأة تملك تعاليًا لا ينبع فحسب من كونها تتحدث العربية (إذ فضل الله أن يوحي بالقرآن بالعربية لأنه يحب العرب أكثر من غيرهم. إذ يقال في القرآن أن الله اختار رسوله من بين "أفضل القوم" أي العرب[2]، والصلوات لا يمكن أن تؤدَّى إلا بالعربية وباتجاه شبه جزيرة العرب (مكة) وغير ذلك.)، بل وأيضًا كانت من أصول مصرية. يتفاخر المصريون بأن بلادهم حسبما يعتقدون هي أم الدنيا. كانت أمي تعاني من عقدة حب سيطرة تنافس بها محمدًا نفسَهُ!

استَمَرَّت أمي في ممارسة الضغط علي دون انقطاع متراوحة بين "واحزناه. أنت لا تريدين أن تريني سعيدةً" و "أرجو أن تستمتعي بالعيش في جهنم لأنك لن تري السعادة أبدًا". على نحو محتوم تعبت من هذا الضغط المستمر. كان هذا عكس ما أردتُ. أردت السلام، وأردت حبها وقبولَها لي. افترضت أنها سوف تلين لكنها لم تَلِنْ قط، والبيت السام الذي كنت أعيش فيه صار لا يُطاق. أردت منها فقط أن تتوقف عن كرهي.

قلتُ لها باكيةً أني قد استسلمتُ. فلم تنتقص دموعي من فرحتها. تخليت منذ وقت طويل عن أمل أن تحميني أمي، لكن ذلك كان ضربًا غير مسبوق من الخسة المعتادة منها. اكتشفت حينذاك أن أمي تضعني دائما بحماس في مواقف وأوضاع أكرهها لكي تستمتع بذلك. عانقتني وأخبرتني أنها أخيرًا صارت فخورة بي وأنها سعيدة للغاية لأني اتخذت القرار الصحيح. شعرتُ بالغثيان. كنت مكتئبةً قانطةً للغاية لأنها لم تلاحظ درجة بؤسي ناهيك عن أن تهتم لذلك. كل ما كانت تراه هو رغباتها التي تتحقق. لكن ربما الآن أخيرًا سأشعر بطعم حب الأم.

---

[1] لأن طيب الذكر الفقيد الحي بكتبه ومقالاته وتسجيلاته، كريستوفر هِتْشِنز عاش سنواتٍ طوالٍ كمراسل صحفي متميز في دول ومجتمعات إسلامية كإيران ولبنان وفي وسط أكثر الأحداث سخونةً، بالإضافة إلى أنه كان مثقفًا كبيرًا كثير الاطلاع ورفيع الذكاء والوعي- المترجم.

[2] ولعلي في موسوعتي (القبر المحفور للإسلام) لؤي عشري/ مجلد: قريش القبلية المقدسة المندثرة، ذكرتُ الكثير من النصوص الأهم عن العنصرية الإسلامية والعربية سواءُ في تعاليم ونصوص الأحاديث المحمدية وكذلك بعض ممارسات الحكام المسمَيْنَ بالخلفاء من بعد موته، ولعل مسألة اختيار محمد من خير الأقوام وردت في كتب الحديث والسيرة كسيرة ابن هشام، وليس القرآن، ففي صحيح مسلم: [٢٢٧٦] "... عن أبي عمار شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم". أخرجه أحمد في مسنده ١٦٩٨٦، والبخاري في "التاريخ الكبير" ٤/١، وفي "الصغير" ٩/١، والترمذي (٣٦٠٦) ، وابن أبي عاصم في "السنة" (١٤٩٥) و (١٤٩٦) ، وفي "الآحاد والمثاني" (٨٩٤) و (٨٩٥) ، وأبو يعلى (٧٤٨٥) و (٧٤٨٧) ، والطبراني في "الكبير" ٢٢/ (١٦١) ، والبيهقي في "السنن " ٣٦٥/٦، وفي "دلائل النبوة" ١٦٥/١ و١٦٦، وعند الشيعة الاثناعشرية في أمالي المفيد:......عن واثلة بن الاصقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه واله: إن الله اصطفى إسماعيل من ولد إبراهيم، واصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى قريشا من بني كنانة، واصطفى هاشما من قريش، واصطفاني من هاشم. وتوجد رواية شبيهة بإسناد آخر في مجالس المفيد. في بحار الأنوار للعلامة المجلسي الشيعي ج١٥/ص١٢٠: ....وما أخرجه الحافظ أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمى في فضائل العباس من حديث واثلة بلفظ (إن الله اصطفى من ولد آدم ابراهيم واتخذه خليلا، واصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل، ثم اصطفى من ولد اسماعيل نزارا، ثم اصطفى من ولد نزار مضر، ثم اصطفى من مضر كنانة، ثم اصطفى من كنانة قريشا، ثم اصطفى من قريش بنى هاشم، ثم اصطفى من بنى هاشم بنى عبد المطلب، ثم اصطفاني من بنى عبد المطلب).. وفي القرآن بسورة يوسف: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧)}، وفي سورة الشعراء {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)}. وكان العرب لا يقبلون بتولي غير العرب في العموم لأي حكم أو قضاء ويسمون غير العرب بالموالي وهي كلمة كانوا يطلقونها في الأصل على العبيد المعتَقين! وكانوا يرفضون زواج المسلمة العربية من المسلم غير العربي أو ذي الأصول غير العربية، هذه العنصرية والانغلاق والتعالي متغلغل في أغلب القوميات الناطقة بالعربية إلى اليوم وانضاف عليها اليوم بالإضافة إلى رفض الزواج من غير العرب في المعظم، رفض زواج أغلبهن وأغلب أسرهن من أي شخص من جنسية غير جنسية دولتهم.

بعدها مباشرةً تقريبًا كتبنا الكتاب، ومن التقاليد الملزمة بين أسرتي العريس والعروس أن يقدم العريس مبلغًا كمهر. في حالتي، قدم لي القرآن كمهر، والذي كنت مؤمنة متأكدة أنه أثمن هدية يمكن له أن يهديها لي. لم يعترف هو ولا أمي بأنها كانت إحدى مئات آلاف النسخ التي تطبعها وتوزعها السعودية مجانًا في شتى أنحاء العالم.

اتفق عصام مع أمي على تأجيل الزواج (الدخلة) الى أن نصبح متزوجين رسميًّا وفقًّا للقانون الكندي. لكن كتب الكتاب حلل لنا أن نكون معًا في نفس الغرفة.

أخذ يأتي دوريًا من أجل دروس في الإنچليزية وحاول أن يجعلني ألعب بعضوه الذكري أو أمنحه جنسًا فمويًّا، لكن طلباته كانت غير مُجْدِية [رفَضْتُها]. لم أكن أعلم كيفية تحقيق مطالبه، لم أكن حتى قد قبَّلْتُ رجلًا من قَبْلُ.

لم يكن بالغ السوءِ في مرحلة "التعارف" هذه. حتى أنه اتصل بي في عيد ميلادي ليهنئَني، وهو تصرف فيه معصية [بحسب عقيدة المتشددين المتطرفين] لأن أعياد الميلاد حرام ولا يجوز الاحتفال أو الاعتراف بها.

كثيرًا ما تساءلتُ لماذا كان مسيطِرًا على نفسه في تلك الفترة. هل كان خائفا من مخالفة بنود العقد الذي عقده مع أمي؟ هل كان خائفا من أن تلغي الزيجة؟ الزواج مني كان بالنسبة اليه تذكرة نحو المستقبل لأنني في النهاية طريقه نحو الجنسية الكندية. لكن حالما صارت الزيجة رسميةً، لم يَعُدْ أيٌّ من هذا مهمًا، لقد اغتصبني بالقوة باعتباره حقَّه وفقًّا للشريعة الإسلامية.

كانت مراسم الزواج الإسلامية زفافًا غريبًا وغبيًّا. كانت كل النساء في الطابق العلوي وكل الرجال في الطابق السفلي. لم أرَ حتى المخلوق الذي أتزوجه. جلستُ فقط في غرفة المعيشة مرتديةً الأسود من رأسي الى أخمص قدمي. سألني الإمام الأسئلة المعتادة. لم تكن موافقتي ضرورية إذ أن الصمت حسب الشريعة الاسلامية موافقة[1]. وفي غضون دقائق صرت زوجته، ملكيته.

وعلى نحو ملائم، في نفس غرفة نوم زوجها المزيف حيث أُجْبِرْتُ على أوضاع خسيسة عندما كنتُ طفلةً. أُجْبِرْتُ على وضع خسيس وأنا بالغة، أي الاحتفال بزواجي. جلست هناك بينما ضبَّطَتْ امرأة لا أعرفها شعري ومكياجي. ظللتُ أبكي مفسدة عملَهُنَّ لكنهن ظلَلْنَ يُعِدْنَ عملَهُ. لم تفكر أي من تلك الحيزبونات عديمات الرحمة في أنَّ من الغريب أن هذه الشابة تستمر في البكاء. لم تفكر أيٌّ منهنَّ في أن تقول لأمي: "ما الذي تفعلينه بها؟". على الأرجح لأنهن كلهن يفعلْنَ نفسَ الشيءِ ببناتهن دون تردد.

[1] في الحقيقة بحسب الأحاديث المنسوبة إلى محمد (مثل: لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن- صحيح مسلم وغيره) وما ورد في كتب الفقه فإن رضا المرأة شرط أساسي للزواج، والصمت نوع من الموافقة، ولم يسمح فقهاء المسلمين بإرغام الأنثى على الزواج بلا خيارٍ لها إلا في زواج الطفلات غير البالغات الذي يسمح به شرع الإسلام، وبعض دول الإسلام كمصر تمنعه قانونيًّا منذ فترة، لكن من معيشتي بمصر أعلم أن بعض الأوساط خاصةً الريفية وغير القاهرة يشيع فيها أكثر تزويج الفتيات والنساء بالإكراه وقد سمعت شخصيًّا قصصًا عن عنف جسدي وتعذيب بشع لإجبار فتيات على الزواج بالإكراه والرضوخ، وليس كل المجتمع المسلم المصري ولا كل المجتمعات الإسلامية على هذه الشاكلة، وراجع باب أو مجلد "مما تركه الإسلام وهو من دينهم وشريعته" من موسوعتي "القبر المحفور للإسلام" وفيه نماذج أحاديث منها حالة تطليق محمد لامرأة من زوجها الذي زوجه لها أبوها بالإكراه- المترجم المراجع.

كان هناك طعام لكنْ بدون موسيقى لأنها حرام. لم تُلْتَقَطْ أي صور أيضًا لأن الأحمق الذي كنت أتزوجه كان يعتقد أن الصور حرام أيضًا. أي شيء به وجوه محرم حتى الدُمى.

كان كبحي لدموعي أمرًا صعبًا لم أستطعه. كان علي أن أتركها تنهمر. كان علي أن أتخلص من الضغط وإلا كنت سينتهي بي الأمر في نوبة هلع تامة أخرى، وكان علي تفادي ذلك مهما كان الثمن. نوبات الهلع مؤلمة ومرعبة للغاية. ورغم أني علمت أن أمي ستغضب مني لإحراجي إياها إلا أنني أطلقت العنان لدموعي التي كنت أحبسها. أدار الضيوف ظهورهم لي. أظن أنهم أحسوا بعدم الملاءمة والانزعاج لرؤيتي جالسة هناك باكيةً على ذلك النحو، ولذلك تجاهلوني فقط وملؤوا صحونهم بالمزيد من الطعام. جلست هناك أحدق في هذا المشهد السريالي العبثي الجاري من حولي محاولةً منع نفسي من فقدان الوعي.

بعد سنوات كثيرة _عندما صار هناك وجود للإنترنت_ وجدت صورًا لا حصرَ لها لعرائس مسلمات يبكين في أعراسهن. وعلى الرغم من أني أحسست بالوحدة ذلك اليومَ، فإني أعلم الآن أني لم أكن وحيدة. كنت أنضم إلى ملايين الفتيات اللاتي سبقنني والملايين اللاحقات من بعدي اللاتي أرغمن على زيجاتٍ لا يُرِدْنها. إنها ليست دموع فرح كما نرى في الأعراس العادية في الغرب. بل هي دموع غمٍّ وشعور بالخيانة ويأس.

كان هذا مختلفًا تمامًا عن الزواج القسري الذي كنت قد تفاديته في مصر. عصام لم يكن لطيفًا. كان مخيفًا ونذيرًا بالشر. لم أحس بأي طاقة ايجابية تنبعث منه. أردتُ أن أبعدَ عنه بأقصى ما يمكن. أخبروني بأنه يكبرني بخمس سنوات لكن بعد سنوات كثيرة، علمت من ويكيبيديا أنه يكبرني بأربعة عشر سنة! إنها كذبة أخرى من أمي.

حاولتُ أن أجد أسبابًا متفائلةً لقبول قدري. ذكَّرْتُ نفسي بأن النساء المطلقات يتمتعن بالكثير من الحرية في العالم الإسلامي. ما أن تفقد النساء عذريتهن حتى لا يهتم بهن أحد بعد ذلك. إنهن بضاعة مستعملة. لذلك افترضتُ أني سأحاول إنجاح الزواج (وعلى نحو واضح لم يكن لينجح، لكن على الأقل عندئذ سأُثبت لأمي أني قد حاولتُ). وبعد طلاقنا سوف تتركني وشأني. أخبرت نفسي أني قد أحصُلُ حتى على طفل من هذا. شخص صغير مني أحبه ويحبني أخيرًا.

علِمْتُ أيضًا أن هذه المشاعر والتسويغات التي أقنعت نفسي بها منتشرة للغاية. لقد تقابلت مع نساء وقرأْتُ عن أُخريَاتٍ حدَّثْنَ أنفسهنَّ بنفس الأشياء عندما كن في نفس الوضع. يا لها من صلة حزينة تكون لك مع الكثير من الناس. كلنا شعرنا بأننا وحيدات تمامًا وعلى نحوٍ موحِشٍ لا يُصدَّق، بينما الحقيقة هي أن هنالك الملايين مثلنا في شتى أنحاء العالم.

بدأ تقليد كتب الكتاب عندما أراد محمد الزواج من عائشة ذات الست سنوات. لكنه لم يكن ليدخل بها إلا في الموعد المتفق عليه أي في سن التسع سنوات. وقد ورد في القرآن تحليل الزواج من الطفلات كشيء عادي: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ...(٤)} سورة الطلاق:٤، فهكذا وضع عدة طلاق للطفلة التي لم تبلُغ بعْدُ! وفي صحيح البخاري وغيره أحاديث تصف زواج

محمد من عائشةَ طفلةً ذات تسع سنوات لا تدرك شيئًا وتلعب بالدمى والأرجوحة ومع صواحبها الصغيرات مثلها[١]. والمضحك هو أن المدافعين عن الإسلام يصرون على أن البنات يبلغن أسرع في الصحراء وهذا غير صحيح بوضوح. رغم السمعة التي يتمتع بها محمد بين المسلمين كقدوة لكل الإنسانية في كل العصور، فإن قرار محمد باغتصاب طفلة دمر حياة الملايين ـإن لم نقل المليارات_ من البنات في شتى أنحاء الكوكب خلال الأربعة عشر ألف سنة الماضية.

[١] انظر موسوعة (القبر المحفور للإسلام)/ باب تربية الأطفال في الإسلام، ونذكر منه ما رواه البخاري: ٣٨٩٤ .....عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: "تَزَوَّجَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ فَنَزَلْنَا فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ، فَوُعِكْتُ فَتَمَرَّقَ شَعَرِي، فَوَفَى جُمَيْمَةً فَأَتَتْنِي أُمِّي أُمُّ رُومَانَ، وَإِنِّي لَفِي أُرْجُوحَةٍ، وَمَعِي صَوَاحِبُ لِي، فَصَرَخَتْ بِي فَأَتَيْتُهَا، لاَ أَدْرِي مَا تُرِيدُ بِي فَأَخَذَتْ بِيَدِي حَتَّى أَوْقَفَتْنِي عَلَى بَابِ الدَّارِ، وَإِنِّي لَأُنْهِجُ حَتَّى سَكَنَ بَعْضُ نَفَسِي، ثُمَّ أَخَذَتْ شَيْئًا مِنْ مَاءٍ فَمَسَحَتْ بِهِ وَجْهِي وَرَأْسِي، ثُمَّ أَدْخَلَتْنِي الدَّارَ، فَإِذَا نِسْوَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فِي البَيْتِ، فَقُلْنَ عَلَى الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ، وَعَلَى خَيْرِ طَائِرٍ، فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِنَّ، فَأَصْلَحْنَ مِنْ شَأْنِي، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضُحًى، فَأَسْلَمَتْنِي إِلَيْهِ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِنْتُ تِسْعِ سِنِينَ". وفي الكافي للكليني من كتب الشيعة/الروضة من الكافي ج٨/حديث إسلام علي: ...فقلت لعلى بن الحسين (ع) فمتى زوَّجَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله فاطمةَ من علي (ع) فقال: بالمدينة بعد الهجرة بسنة وكان لها يومئذ تسع سنين.... وفي بحار الأنوار للمجلسي ج١١٣/٩، نقلًا عن إعلام الورى بأعلام الهدى: وكان لفاطمة عليها السلام يوم بنى بها أمير المؤمنين عليه السلام تسع سنين..
أما تفسير المؤلفة لنشأة كتب الكتاب فهو اجتهادها الشخصي، وإلا فكتب الكتاب كسجل للزواج لم يبدأ إلا في بعض عصور حكم الخلافات الإسلامية مع زيادة عدد الناس الذين هم في الدولة، فلم يعد الأمر مقتصرًا على قبيلة عربية صغيرة أو في يثرب المدينة مثلًا فقط، بل دول مدنية كبيرة كالعراق ومصر والشام، فلزَمَ التسجيل لحفظ الحقوق كلها للطرفين، وخاصةً المرأة وأطفالَها في الزواج والطلاق على السواء.



حفل خطوبة والديَّ (١٩٦٨)



عندما كان أخواي يدغدغاني (١٩٧٧)

أيامنا السعيدة قبل أن يصير كشف الشعر والجِلد حرامًا (١٩٧٨). أنا الصغرى التي على اليسار في الصورة.



I have decided to write a book.
it may be too late now since
Most of My life has already
passed. This book will be
written solely on Memories.
Let Me Introduce My self I wont
say My name for I hate it
with a passion, but If I havent
changed it by the time this
is published it will be on the
front cover. I am 14 years old
Its Christmas Time now, almost
the new year. Christmas has
no effect on my life for
I'm a Muslim (I'll explain
later right now I'm not in the
mood) anyway Christmas doesn't
Change me in any way at all.
I live With My Mother and My

قطعة من مذكراتي (١٩٨٨)

Before, when I used to hear about people wanting to commit suicide, I thought they were dumb, stupid and cowardly. I never thought I'd understand one day - like today.

I know, I know every cloud has a silver lining, but sometimes those clouds can get so damned black and the silver is hardly visible those are the times when I just give up hope.

I'm sure everyone at least once in their life felt like dieing. when your report card is full of fails, when you slip and fall in the middle of a crowd, when you find out a good friend may not be so good.

But when things come at a daily basis it really becomes unbearable and that's when people just have had enough and want out but their is no other way.

Well, I'm lucky I'm 15 (and a half) I have my whole and I mean whole life ahead of me I mean I haven't even been at the crossroads yet.
I have a right to live, to live a good life and no one is going to change that or make me change that so my other choice is wait.

Wait, till I'm at the crossroads and choose my way. I'm sort of looking forward but I'm dreading it even more. I'm a very hard person to understand.

قطعة أخرى من مذكراتي (١٩٩٩)

ترجمة قطعة المذكرة:

سابقًا، عندما كنت أسمع عن أشخاص يريدون الانتحار، كنت أعتقد أنهم أغبياء وجبناء. لم أتصور أني سأفهم هذا يومًا، مثلما صرت أفهمه اليوم. إني أعلم أن الإنسان قد تحيطه السحب المظلمة حتى يستحيل عليه رؤية النور، هذه هي الأوقات التي كنت أفقد فيها الأمل.

أنا متأكدة أن كل شخص لمرة واحدة في حياته شعر كأنه يموت. عندما تمتلئ حياتك بسجل الإخفاقات، عندما تتعثَّر وتسقط في وسط الزحام، عندما تجد أن من تحسبه صديقك أو صديقتك المفضَّل الأكثر قربًا منك ليس صديقًا حقيقيًّا.

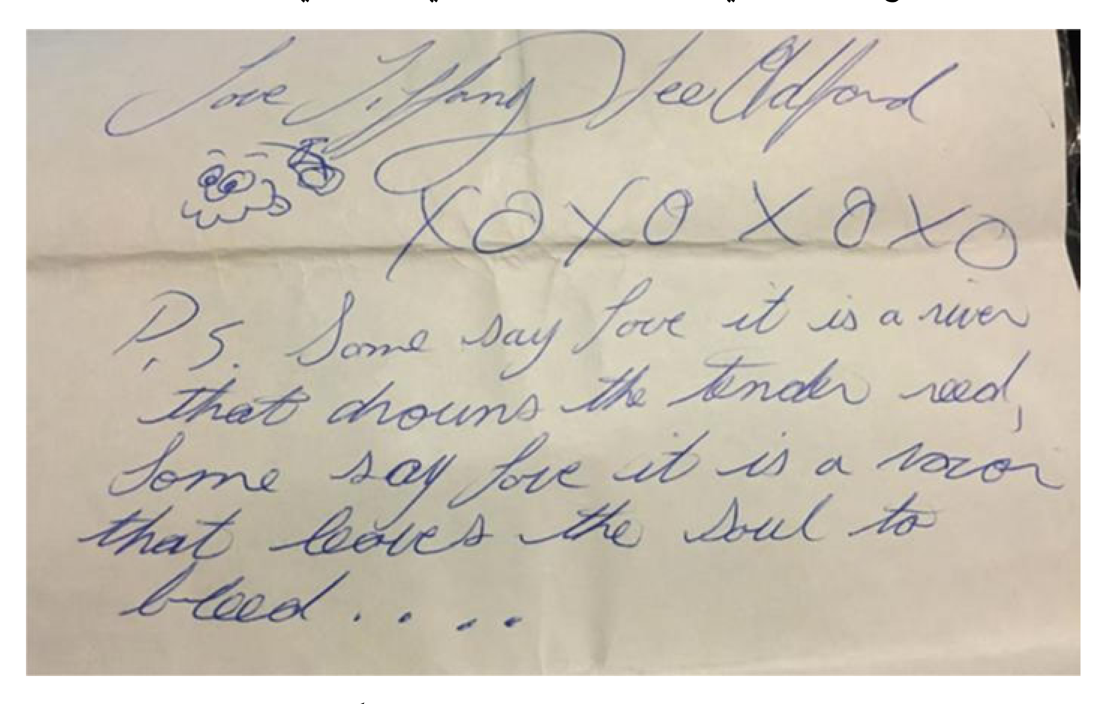
لكن عندما تصير الأمور غير محتمَلة ومتكررة يوميًّا، فإن الحياة تصير غير محتمَلة فعلًا وهذا عندما يكون الشخص قد تحمل ما يكفي ويريد العثور على مخرج [من بؤس حياته]، لكنْ لا يوجد مخرج.

حسنًا، أنا محظوظة لأني لا يزال لدي كل حياتي أمامي حقًّا، فأنا لم أصل إلى مفترَقِ الطرق بَعْدُ. إن لي الحقَّ في أن أعيش، أن أعيش حياةً جيدةً، ولا أحد له أن يغيِّر ذلكَ الحقَّ أو ينتزِعَهُ، أو يجعلَني أغيِّرُه، لذلك فإن خياري الآخرَ [بدل الانتحار] هو الانتظار.

الانتظار إلى أن أصل إلى مفترق الطرق لأختار طريقي. إني أتطلع قُدُمًا لكني أخشى ذلك أكثر. إني شخصُ يَصْعُبُ فهمُهُ.



مع بعض صديقاتي من المدرسة الثانوية (تيفاني على يساري) (١٩٩٢)



Love Tiffany Dee Oldford

XOXO XOXO

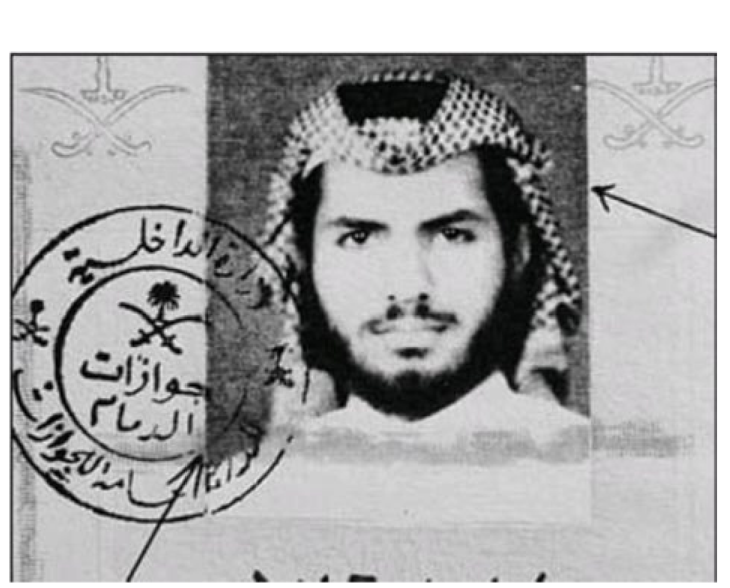
P.S. Some say love it is a river
that drowns the tender reed,
Some say love it is a razor
that leaves the soul to
bleed....

جزء من رسالة من تيفاني، أرسلتها لي عندما كنتُ عالقةً في مصر (١٩٩٣)



عصام حافظ وصل محمد مرزوق، صورة أرشيفية من مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمِرِكِيّ (غير معلومة التاريخ)





صورتان لعصام مرزوق، إحداهما من جواز سفر سعودي مزوَّر كان يحمله وضُبِطَ به



عصام مرزوق أمام النيابة المصرية (١٩٩٧)



أنا وتوشا (إلى اليسار) في نادٍ ليليٍّ مع صديقاتنا (٢٠٠٢)



أنا وتيفاني، وبناتنا



في حفل زفافنا (٢٠٠٧)



نخرج كلنا في الإجازات التي كنتُ لا يُسمَح لي بالاحتفال بها (الكريسماس أو عيد الميلاد عام ٢٠١٢)



يُعتقَد في الإسلام أن الكلاب نجسة، أما نحن فنحب صغيرَنا "نوربِرْت"

العنف ٢

في البداية، كانت الخطة أن ننتقل ثلاثتنا للعيش معًا. وبتلك الطريقة تستطيع أمي أن تعيش مع هذا الوحش الذي بدت أنها مندفعة للتقارب معه. لكن بما أنه كان صعبًا أن نجد منزلًا يتسع لنا، فاكتَفَيْنا بالاستقرار في شقتين منفصلتين في نفس البناية. كانت أمي في شقة في أحد الأدوار الأدنى، بينما عشتُ أنا والوحش في الطابق السابع عشر، أي في أعلى البناية.

في غضون الأسبوع الأول من زواجنا عاد الى المنزل ليجد الستائر مفتوحة على مصراعيها في يوم مشمس وضيء، فقال لي:

"هل أنت عاهرة؟"

"ماذا؟" لم أعرف ما الذي قَصَدَه.

"هل تريدين من جميع الناس أن يروك متبخترةً مكشوفةَ الشعر؟"

"إني لم أغادر هذه الشقةَ طوالَ اليوم"

"الشبابيك! ألا تعتقدين أن الناس يستطيعون رؤيتك؟ أتعتقدين أن الشبابيك غير كاشفة؟ هل أنت غبية؟ تسيرين هكذا مثل عاهرة غبية عارية؟"

فهمت في النهاية مشكلته، فقلتُ له: "إنه الطابق السابع عشر! لا يستطيع لأحد أن يرى الطابق السابع عشر في الأعلى ومن داخله. هل أنت قلق من وجود شخص يركب هيليكوبتر تطير..."

ثم ضربني. لم أكن متفاجأة تمامًا، لأني اعتدت أنْ أُضْرَبَ طوالَ حياتي. كان الأمر بالأحرى محبِطًا. ها قد عدنا إلى الضرب من جديد. لم أعتقد أن الزواج منه سيكون مهربًا لي من حياتي المليئة بالعنف ضدي، لكنها كانت لتكون مفاجأةً سارَّةً.

قلت له: "انتظر حتى أخبر أمي. هذا الزواج قد انتهى. كيف تجرؤ على وضع يدك علي؟". حزَمْتُ حقائبي وأنا أخبره أني سأذهب إلى شقة أمي ولن أعود أبدًا. كنت دائخةً من الانفعال وأنا أنزل في المصعد . كان لدي عذر ممتاز. كان هذا سهلًا جدًّا. لم يتطلب الأمرُ إلا أسبوعًا لكي يضربَنِي (ترجمة بديلة: ليُخْفِقَ)!

قالت دون اكتراث: "وما المشكلة؟ ألا تعرفين أن الله حلَّلَ للرجل أن يضرب زوجته؟ ألا تعرفين قرآنك؟ كيف لك أن تكوني مسلمة دون أن تعرفي هذا؟ لم يرتكب زوجك أي خطأ".

"إنه مجنون! إنه يظن أن أحدهم سيستطيع رؤيتي وأنا في الطابق السابع عشر غيرَ لابسةٍ الحجابَ. لن أعود الى هناك أبدًا".

"بلى ستعودين. عليك أن تعودي. لا يمكنك البقاء هنا".

"لم تفعلين هذا؟ لم لا تحميننى؟"

"أحميك من ماذا؟ من زوجك؟ أنت ملكه وله كل الحق في فعل أيًّا ما كان ما يريده بكِ"

"لا أكترث لماهية حقوقه. لن أعيش معه"

مكَثْتُ في شقة أمي أيامًا بينما هي تحاول إصلاح ما بيننا. لم يكن هنالك ما يمكن إصلاحه. لقد رفض الاعتذار لأن الضرب ضمن حقوقه. وقفت أمي في صفه تمامًا. فحسب القرآن في الآية ٣٤ من سورة النساء يوجِّهُ اللهُ الرجال أن يضربوا زوجاتهن إذا كن "ناشزات" أي: عاصيات مغرورات أو مترفِّعات.

فاقوني عدديًّا وكنتُ خائفةً. كيف لي أن أحارب تعاليم الله الواضحة؟ لكنني ظللت أرفض العودة إلى شقته في الأعلى.

"حسنًا"، قالت أمي. وبما أن تكتيكها القسري فشل فقد لجأت إلى الابتزاز العاطفي المجرَّب. "اذهبي وعيشي معه لوقتٍ أطولَ قليلًا. إذا انتهى الزواج مبكرًا هكذت فسيظن كل الناس أنه طلقك لأنك لم تكوني عذراء".

"لا أكترث لما سيظنه الناس!."

"أنا أكترث. أنا امرأة محترمة في هذا المجتمع. هل تريدين تلطيخ اسمي في الوحل؟ هل تريدين لي العار؟ بعد كل ما فعلته لكي أصل إلى مكانتي في هذا المجتمع؟ ألا تعرفين أن بعض الناس سيحبون أن يعرفوا شيئًا سيئًا عني ليتحدثوا به عني؟ امكثي معه لبضعة أشهر فقط حتى تنتفي الشكوك."

و مرة أخرى أرهقني إكراه أمي المستمر اللجوج. وضعت احتياجاتها قبل احتياجاتي مرة أخرى وبقلب مكسور وعلى كراهةٍ قلت لنفسي أن ليس لي خيار إلا العودة للعيش مع ذلك الوحش. كنت مرعوبة من العودة. قد تضيع مني فرصتي في المغادرة إلى الأبد. كنت خائفة من أن هذه قد تكون فرصتي الأخيرة. كنت خائفة من أني قد أحمل منه ثم أضطر لأن أظل متزوجةً منه. أخبرت أمي بكل مخاوفي فقالت:

"لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام. لا أحد يحمل بهذه السرعة."

"حسنًا، لن أتركه يلمسني، من باب الاحتياط." غمغَمْتُ وبابُ المصعدِ يُغْلِقُ خلفي.

"لا يمكنك فعل ذلك"

"ما الذي تعنينَه؟"

"لا يسمح لك برفضه. إنه حرام. أنتِ ملكه. إذا رفضتِهِ فستلعنُكِ كل الملائكة إلى الصباح"

أحسست بأني سجينة في ذلك المصعد. و كأنه لم يعد هنالك هواء في العالم كله. كل قوانين الإسلام موضوعة بوضوحٍ لكي تسجن المرأة في زواج قسري مع رجل يضربها ويغتصبها. كل هذا يصادِق عليه الله[1] بحسب زعم الإسلام.

إنه لشائع جدًّا في شتى أنحاء العالم ذي الأغلبية المسلمة أن يضرب الرجال زوجاتهن. الأمر منتشر في الحقيقة إلى درجة أن برنامجًا يوميًا مشهورًا في المغرب بثَّ فقرةً حول كيفية تغطية المرأة للعين المتورمة بالمكياج. ضرب الزوجة ليس مخالفًا للقانون في أغلب الدول المسلمة[2] لأن لا إنسان يمكن له أن يحرِّم ما حلله الله. في مصر توجد حوارات على

[1] يصادق عليه: يشرِّعه أو يشرعنه، يعطيه الشرعية، يوافق عليه، يسمح به، يُجيزه، يقبله، يستصوبه، يؤيده.

[2] وحتى في الدول التي تجرمه كمصر، فغالبًا ما يكون القانون حبرًا على ورقٍ، بفعل العرف الاجتماعي والتعاليم الإسلامية، ولا يُنفَّذ القانون إلا نادرًا. ورغم قبول واستسلام الكثير من الزوجات للتعرض للضرب من الأزواج وقبول أهاليهن بهذا الوضع، فيجب القولُ أني رأيت بنفسي أسرًا، ليس بالضرورة كلها من أوساط ثرية ومتوسطة الدخل، بل وكذلك من أوساط بسيطة التعليم والطبقة الاجتماعية، لا يرتضون أن يضرب الزوج ابنتهم ويتشاجرون معه ويطلقونه منها لو فعل ذلك، بعض الآباء المتحضرين في مصر يقول لخطيب ابنته بكل مودة واحترام: "إذا لمست شعرة من ابنتي، ضربتها أو شتمتها، ثق أني سأقتلك، بنتي غالية عندي". وهكذا في بعض الحالات رأيت قيم الإنسانية وأخلاقها، الأخلاق الحقيقية، تنتصر على القيم الباطلة الظالمة الإسلامية، فهؤلاء الناس الإنسانيون بالفطرة والحس السليم لم يُبالوا بهراء القرآن في هذه المسألة وضربوا به عرض الحائط. على النقيض يوجد مؤيدون لضرب الزوجات والأبناء، وقد عملت فترةً في عمل إداري مدني مع مأمور قسم شرطة سابق متقاعد كان يعتقد جازمًا أن منع القانون المدني المصري (على الورق وشكليًّا في كثير من الحالات) لعقوبة الضرب واستعماله مخالفة لشرع الله بحسب القرآن مستدلًّا بإباحة القرآن لضرب الزوجة! هذه العقلية هي التي تؤدي إلى ما يحدث بالدول العربية من تعذيب لأشخاص من بعض السلطات.

التلفزيون حيث تحاول نساء بها القول أنَّه يجب على الرجال عدم ضرب زوجاتهن، لكنْ سرعان ما تُفْسِد محاولاتِهنَّ الآية ٣٤ من سورة النساء الرابعة[1] فتصبح حجتهن باطلة. لا يستطيع إنسانٌ منازعةَ ما هو كلمة الله الحرفية بحسب اعتقاد المسلمين. يحاول البعض الإصرار على أنه الله قَصَدَ الضربَ الخفيفَ، بيد أن كلمة خفيف لا ترد إطلاقًا في الآية. كما أن الخفة مفهوم ذاتي جدًّا. وفي نهاية الأمر لا يجوز لأحد أن يضرب زوجته أبدًا. لكن هذه الحجة لن تصمُدَ أبدًا في مجتمعات قد قبلت بالعكس.

بالإضافة الى الضرب، تُهاجَم النساء في باكستان وإيران على نحو شائع بإلقاء حمض الكبريتيك (ماء النار) عليهن بسبب مخالفات مثل ارتداء الملابس الغربية للغاية أو عدم ارتداء الحجاب أو قص شعورهن. لا يسمح للنساء حتى بحرية اختيار ما يرتدين على أجسادهن. ليس لهن أي سلطان وحكم مستقل على أنفسهن.

كل هذا ينبع من تعاليم ثقافة الشرف. وهي ثقافة تشرِّعُ هذا التحكم في النساء. جزء كبير من هذا الجهد هدفه التحكم في النساء حتى لا يفقدن عذريتهن قبل أن يعطوها لأزواجهنَّ.

بعد عشرين سنة من القلق والخشية بسبب الشعور بالذنب بسبب الأفكار "النجسة" والحفاظ "على نفسي" لأجل زوجي، والكبت المتراكم لعشرين سنة. لم يكن يمكن للإحباط أن يكون أكثر من ذلك في الناحية الجنسية[2]. لم تكن قبلتي الأولى جميلة ورائعة مثل مشاهد أفلام ديزني. كانت قسرية ومقززة ومخيفة. لم يعجبني هذا الرجل ولم أرد أن يلمسني لكن ديني كان واضحًا: ليس لدي الحق في المقاومة. ليس للمرأة أن تمنع نفسها عن زوجها حتى لو كانت على قتب جمل[3]. كنت تعيسة ومحبطة أن هذا هو النصيب الذي كُتِبَ لي. تمنيت لو أني كنت قد قبَّلْتُ ذلك الفتى من الثانوية الذي كنتُ معجَبةً به في سيارته. عندئذ كنت سأكون على الأقل قد جربت قبلة واحدة جميلة قبل موتي. لكنني

---

[1] {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)} النساء: ٣٤
ولمن زعموا في كتب الفقه من عقلاء الفقهاء الذين حاولوا حل المشكلة وتعطيل الشرائع الإسلامية البشعة الفاسدة، أقول قد أوردتُ في القبر المحفور للإسلام/ باب "عنصرية الإسلام ضد المرأة "حالة من كتب الحديث في عصر محمد كان فيها كسر الزوج لذراع زوجته بدون أدنى مساءلة جنائية أو حساب من محمد، واكتفى فقط بالحكم بالتطليق مع رد المرأة للمهر. روى النسائي في سننه الكبرى: ٥٦٩١ - .... أن الربيع بنت معوذ بن عفراء أخبرته: أن ثابت بن قيس بن شماس ضرب امرأته فكسر يدها وهي جميلة بنت عبد الله بن أبي فأتى أخوها يشتكيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثابت فقال له خذ الذي لها عليك وخل سبيلها قال نعم فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تتربص حيضة واحدة فتلحق بأهلها. وروى أبو داوود: ٢٢٢٨ ... عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت عند ثابت بن قيس بن شماس فضربها فكسر بعضها فأتت النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصبح فاشتكته إليه فدعا النبي صلى الله عليه وسلم ثابتا فقال: "خذ بعض مالها وفارقها" فقال: ويصلح ذلك يارسول الله ؟ قال: "نعم" قال فإني أصدقتها حديقتين وهما بيدها فقال النبي صلى الله عليه وسلم"خذهما ففارقها"ففعل.

[2] يوجد هنا تلاعب لفظي جميل من المؤلفة، وكل تعبيراتها مليئة بالفصاحة الإنجليزية. the climax could not have been more anticlimactic

[3] روى البخاري: ٣٢٣٧ ... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ» تَابَعَهُ شُعْبَةُ، وَأَبُو حَمْزَةَ، وَابْنُ دَاوُدَ، وَأَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنِ الأَعْمَشِ // وروى أحمد بن حنبل ١٩٤٠٣ وابن ماجه ١٨٥٣، واللفظ لأحمد:... قَدِمَ مُعَاذٌ الْيَمَنَ، أَوْ قَالَ: الشَّامَ، فَرَأَى النَّصَارَى تَسْجُدُ لِبَطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا ، فَرَوَّى فِي نَفْسِهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَقُّ أَنْ يُعَظَّمَ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْتُ النَّصَارَى تَسْجُدُ لِبَطَارِقَتِهَا وَأَسَاقِفَتِهَا، فَرَوَّأْتُ فِي نَفْسِي أَنَّكَ أَحَقُّ أَنْ تُعَظَّمَ، فَقَالَ: " لَوْ كُنْتُ آمُرُ (١) أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، وَلَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا كُلَّهُ، حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا عَلَيْهَا كُلَّهُ، حَتَّى لَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى ظَهْرِ قَتَبٍ لَأَعْطَتْهُ إِيَّاهُ. صححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١٥١٥ وصحيح الترغيب ١٩٤٣ ، لكن ضعفه آخرون كلجنة محققي طبعة الرسالة لمسند أحمد.
وفي جامع أحاديث الشيعة للبروجردي، نذكر كمثال من ج٢٠/ ص٢٢١، من الكافي ومن لا يحضره الفقيه: ٧٠٣ (٢) كا ٥٠٧ ج ٥ - وفقيه ٢٧٦ ج ٣ مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله فقالت يا رسول الله ما حق الزوج على المرأة فقال لها (أن - كا) تطيعه ولا تعصيه ولا تصدق من بيته الا بأذنه ولا تصوم تطوعا الا بأذنه ولا تمنعه نفسها وان كانت على ظهر قتب ولا تخرج من بيتها الا بأذنه وان خرجت (من بيتها - كا) بغير اذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها....ومن لفظ ٧٠٥ (٤) كا ٥٠٨ ج ٥ فقال أن تجيبه إلى حاجته وان كانت على قتب (٥) ولا تعطي شيئا الا بأذنه فان فعلت فعليها الوزر وله الأجر ولا تبيت ليلة وهو عليها ساخط قالت يا رسول الله وان كان ظالما قال نعم. قالت والذي بعثك بالحق لا تزوجت زوجا أبدا.

لم أكن معتادة على الحصول على أشياء جيدة. يعطيني "الله" في العادة أسوأ الظروف، ولذلك فقد اعتدت الأمر. لم أشتك وتحملت. على أن هذه التضحية ستقرِّبُني من الجنة وتُبْعِدُني عن النار.

ثم حدث ما لم أكن أتوقعه. حملت منه. كنتُ عالقة. لكنني أيضًا كنت معتادة على الاستسلام لقدري، ولذلك ركزت على كم هو رائع أن يكون لي طفل صغير أحبه ويحبني بالمقابل. تمنيت أن تكون بنتًا. كنت أعرف أنني سأصبح أمًّا عزباء في يوم ما وسيكون من الأسهل التعامل مع بنت. بلا شكٍّ، سأكون أنا وبنتي أعز صديقتين لبعضنا البعض.

انتقلنا ثلاثتنا للعيش في بيت من طابقين وانتقلت أمي معنا. ما أن وصلنا حتى جال في المنزل ولصق على كل النوافذ ورقَ تغليف اللحم البني ليحجُبَ الشمسَ ويمنع أيَّ أحدٍ من رؤيتي بالصدفة. ثم غطى النوافذ بستائر أيضًا لكي يتأكد أكثرَ.

لم أغادر المنزل من ذلك الحين قط إلا للذهاب إلى طبيب النساء والتوليد. صارت تلك الخروجات فرصتي الوحيدة لاستنشاق بعض الهواء المنعش، لكنْ بقدر ما تستطيع تنسم الهواء من خلال قطعة قماش تغطي وجهك. مرة في الشهر كنت ألبس ذلك الرداء الذي أتى بكامله تقريبًا من السعودية: جوربان أسودان سميكان وعباءة سوداء وحجاب ونقاب أسودان. كان النقاب قطعة قماش سوداء مربعة من القماش الأسود ذات طبقتين. طبقة تغطي كل وجهي إلا عينَيَّ وأخرى أرفع فوقها لكي تغطي عينَيَّ. وكان الجزء الأخير من الرداء قفازين سوداوين. عندما كانت كل بوصة من جلدي تصير مغطاة بالأسود، كنت أصير جاهزةً لمغادرة المنزل مستعدة لزيارة الطبيبة مع رجل مَحْرَم بالتأكيد.

وبالتأكيد كان لزامًا أن تكون طبيبةً امرأةً، إذ من الحرام أن أخاطب رجلًا إلا في الحالات الملحة الاضطرارية. "مثلًا، لو أن رجلًا على وشك الوقوع في بئر، فيجوز لكِ أن تقولي: 'احذر' لكن بصوتٍ غير شديدِ العلوِّ"[1]. هذا كلام اقتبسته أمي حرفيًّا، مترجَمًا عن العربية.

[1] هذا جزء من فتوى أحد شيوخ الإسلام ردًّ على سائلة مهووسة دينيًّا تسأل هل يجوز أن تكلم ابن عمها للاطمئنان عليه عبر الإنترنت:
ولذا فقد نص الفقهاء رحمهم الله على المنع من التكلم مع المرأة الشابة خشية الفتنة، فقال العلامة الخادمي رحمه الله في كتابه: بريقة محمودية وهو حنفي قال: التكلم مع الشابة الأجنبية لا يجوز بلا حاجة لأنه مظنة الفتنة. وقال صاحب كشاف القناع من الحنابلة: وإن سلم الرجل عليها ـ أي على الشابة ـ لم ترده دفعا للمفسدة. ونص فقهاء الشافعية على حرمة ابتداء الشابة الرجل الأجنبي بالسلام، وكذا ردها عليه، وكرهوا ابتداء الرجل لها بالسلام، وعللوا التفريق بينها وبينه أن ردها عليه أو ابتداءها له مُطمِع له فيها. فالحاصل إن من مقاصد الشريعة سد الذرائع التي قد توصل إلى الحرام، وعليه فلا ينبغي لك محادثة الشباب ولو أبناء عمك عبر الإنترنت فيما ذكرت من مواضيع عامة كمعرفة أحواله أو طرح مشاكل بعضكم على بعض لان في هذا- بلا شك - توسعا وتساهلا قد يجر إلى ما لا تحمد عقباه ؛ فإن وجدت حاجة فلا بد أن يكون ذلك في حدود الأدب والأخلاق، وإن استخدمت الإنترنت لحاجة فاقتصري على محادثة النساء وفيما ينفع وفق الضوابط الشرعية.
- ومن فتوى متشددة أخرى: وكان يتأخر - عليه الصلاةُ والسلامُ - عن الخروج من المسجد هو وأصحابه، حتى يدخل النساء في بيوتهن، فكُن أولُ من يخرج من المسجد، قبل خروج الرجال، وكُن لا يُحَقِّقْنَ الطريق، بل يلتزمْن حوافَّه؛ فعن أبي أسيد الأنصاري أن رسول الله - ﷺ - قال للنساء: "اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ؛ فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ"؛ رواه أبو داود وحسنه الألباني.
كل ذلك لمنع اختلاط الرجال بالنساء؛ وهذا كله في أماكن العبادة التي يكون فيها الإنسان - عادةً - أبعدَ ما يكونُ عن ارتكاب الرذيلة، أو الهمِّ بها، فيكون غيرُها من الأماكن أولى بالمنع. ونهى - ﷺ — عن الدخول على النساء؛ ففي الصحيحين: "إيَّاكُم والدخولَ عَلَى النِّسَاءِ"، فقال رجلٌ من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحَمْوَ؟ قال: "الحموُ الموتُ"؛ فمنع - ﷺ - أقاربَ الزوج؛ كالأخِ، والعمِّ، والخالِ، وأبنائهم من الدخول على زوجات أقربائهم.
- وبالتأكيد توجد فتاوى وآراء أكثر اعتدالًا بقليل وأكثر عقلانيةً من الرأي الوارد أعلاه، فهو في الأكثر رأي الوهابيين والمتشددين بالذات.

صرت أَنْفُرُ من الخروج من البيت. في البيت كنت أشاهد أوبرا لأجد لي صلةً بالعالم الخارجي. ورغم أن هذه الصلة كانت أحادية الجانب إلا أنها كانت شبيهةً بالتفاعل الاجتماعي. كنت أتماهى مع أوبرا وضيوفها وكان ذلك يلهمني ويجعلني أحس أنني جزء من العالم ككل. كنت أتعلم منهم جميعًا.

بينما كنت عندما أخرج إلى العالم الحقيقي، عندما كنت أسير في حر الصيف مغلَّفةً مكفَّنةً بالأسود من رأسي الى أخمص قدمي، لم أكن أشعر بأي صلة بالعالم. لقد شعرت أن الحجاب كان عائقًا صعبًا عليَّ لكن النقاب تجاوز ذلك بأشواط. إذا كان الحجاب يقول: "اقترب مني بحذَرٍ الاقتراب مني"، فإن النقاب المغطي لكامل الوجه يقول: "اغرب عن وجهي".

عندما تلبسين النقاب تحسين أنكِ في كابينة متنقلة تحرمك من حواسك. فهو يُعيق قدرتَكِ على الرؤية والسمع واللمس والشم. كنت أشعر أنني أموت ببطءٍ بداخله وأذْوِي[1]. كنت أعاني جسديًّا وعاطفيًّا. لم يسمح لي بأن يكون لي أي صديقة لأنه لم يرتق أي أحد إلى معايير زوجي الدينية. لم أعد أعرف من أنا أصلًا ولا حتى ما إذا قد كنتُ ذاتَ يومٍ شخصًا على الإطلاق. كانت أفعالي الوحيدة التي أفعلها نتاجًا مباشرًا لأفعاله هو. لم أكن أجرؤ على التنفس إلا إذا حدَّد لي في أي اتجاهٍ أزْفُرُ. كنت لأقول أني كنت أسير على قشر البيض. لكن سيكون من الأكثر مناسَبةً القولُ بأني كنت أقف متوترةً على قشر البيض منتظرة أمره لي بأن أستدير في أي اتجاه. كان عنيفًا مسيئًا بحسب أوصاف كتب المناهج الدراسية لمادة علم النفس. أدركتُ لاحقًا أنه كان يتبع (ينطبق عليه نمط) الدورة الموصوفة في كتبي الدراسية الخاصة بعلم النفس بدقة الساعة، كما لو كان قد دَرَسَها في المدرسة.

كانت هنالك مرات نادرة أشعرني فيها بأني مهمة. كان هذا مهمًّا، خاصة في بداية العلاقة لكي يجذبَني.
"لا أريد الذهاب إلى العمل"، كان يقول بحزن في الصباح. "لا أريد أن أتركك. أتمنى لو كنت أقدر أن أصغِّركِ لأضعَكِ في جيبي لتكوني معي طوال اليوم. في هذا الجيب" كان يقول وهو يربت على جيب قميصه "لكي تكوني قريبة من قلبي".
لقد رجُحَ وفاقَ على هذا الفتات من الإيجابية التجويعُ [النفسيُّ] الذي عانيته بين هذه اللحظات، لكنني عشت لأجل الفتات القادم. المرة التالية التي يكون فيها لطيفًا أو مراعيًا أو حتى عديم الوحشية فقط.

لإكمال الدورة وإغراقي تمامًا في تعويذة لعنة عنفه، كان يستخدم أسلوب الإشراط الكلاسيكي[2]. حلت اللكمة محل جرس طعام باڤلوف. ظننتُ من قَبلُ أن كل شيء حرام، لكنني لم أعلم كم من الأشياء الأخرى قد تكون حرامًا.

ذات مرة كنت أبحث عن شيء في دليل الهاتف فبدأتُ أغني بشرودٍ:
"A B C D E F G … H I J "
صاحَ فيَّ: "ما الذي تفعلينه بحق الجحيم؟" ثم ضربني على فمي بظهر يده.

---

[1] أذوي: أضمحل، أضْعُفُ، أتنكَّس، أذبُل.
[2] الإشراط الكلاسيكي أو الباڤلوڤي أو الاستجابي classical conditioning: مصطلح في علم النفس السلوكي، يصف أحد أشكال التعلم الترابطي، حيث يكتسب منبه خارجي معين القدرة على استحضار استجابة الفرد الخاصة بمنبه آخر. ظهر المصطلح على يد عالم النفس الروسي إيڤان باڤلوف عام ١٩٠٣، وقام جون واتسون فيما بعد بدراسته على الأطفال. المثير الشرطي :(Conditional Stimulus) المثير الذي يكون محايداً؛ أي لا يولد استجابة متوقعة في بادئ الأمر. ولكن من خلال تواجده قبل المثير غير الشرطي، أو في نفس الوقت معه فإنه يصبح قادراً على إحداث الاستجابة الشرطية. ومن بين مقومات المثير الشرطي أنه ينبغي أن يكون حدثاً يقع ضمن نطاق مدى إحساس الكائن المراد إشراطه، كما أنه لا ينبغي أن يكون له أي خصائص قبل الإشراط شأنها أن تؤدي إلى إحداث الاستجابات.الاستجابة الشرطية :(Conditioned Response) الانعكاس المتعلم الجديد والذي يحدث نتيجة اقتران المثير الشرطي مع المثير الغير شرطي.

كانت هذه إحدى المرات التي وجدت نفسي فيها في حيرة من أمري. ما الذي فعلتُه بالضبط؟ ماذا كانت مخالفتي هذه المرة؟

"لم تغنين في بيتي؟ أتحاولين دعوة الشيطان إليه؟"

"إنه ترتيب الأبجدية. كنت فقط..."

"لا أكترث لأعذارك الغبية".

"إلى ذلك الحين كنت أعتقد أن الغناء مسموح به وأن الموسيقى فقط حرام[١]. لكن لا. تبين أن غناء الأبجدية لكي تساعد نفسك في البحث عن شيء بتسلسلٍ أبجديٍّ يستحضر الشيطانَ.

كلما كبرَتْ بطني ازداد ضربه المستمر لي. كنت خائفة منه للغاية إلى درجة أني تفاديته بأقصى قدر ممكن. حتى عندما كان يكون في الحمام كنت أتفادى طرق الباب لأنني لم أشَأ التفاعل معه. لم أعرف قط مواقع الألغام. لم أعرف قط ما الذي قد يتسبب لي بالضرب. حتى في أسوء لحظاتي، بينما أطال هو في الحمام وبطني المتضخمة من الحمل تضغط على مثانتي، طويت منشفة استحمامٍ من سلة الغسيل وجلست عليها لأتبول. اخترت أن أتبول في ملابسي بدلًا من أن أكلمه.

رغم أنني لم أعرف ما الذي قد يغضبه إلا أن أغلب الضرب الذي تعرضت له كان بسبب الطعام. تسببت لي تلك السنوات في حالة قلق بسبب الطعام لدرجة أنه حتى بعد عقد كامل، عندما تزوجت الرجل الذي أحب، لا أزال لا أستطيع أن أطهو له الطعام. جعلتني تلك السنوات أكره الطبخ للغاية إلى درجة أن مجرد التفكير في إعداد وجبة لشخص تملؤني بأحاسيس الذعر والخوف. في النهاية تجاوزت الخوف والتوتر من الطبخ عمومًا، لكني لا أزال لا أطبخ أي أصناف عربية.

آنذاك كانت أيامي تتمحور حول طبخ الطعام فقط. كان هذا هو ما يشغَل كل حياتي. كان يشتري كتب طبخ ويلصق أوراق ملاحظات على صور الوجبات التي يحبها وكان علي أن أطبخها. وبالتأكيد الوجبات التي طبختها لم تطابِقْ تمامًا الأطعمة التي يحبها فكانت ردة فعله المعتادة إلقاء الصحن علي.

في المرات التي كان يأكل فيها الطعام الذي طبخته، كان يعطيني خلاصة تفصيلية عن كيفية تحسين الطبق المرة القادمة. كان دقيقًا جدًّا في طلباته بل مهووسًا. لم يكن يحب أي شيء فيه صلصة، ولا وضع الطعام في كسرولة. لم يكن يحب إلا الأطعمة التي على شكل الأصابع أو المقبلات. وقد كان معنى هذا بالتأكيد أن كل ما كان يطلبه كان متعبًا مملًّا في عمله جدًّا لأنه يجب إعداد قِطَعِه واحدةً واحدةً كلَّ قطعةٍ على حدة. ذات مرة كنت أحدث صديقة عبر الهاتف، وسألتني عن سبب كون صوتي يبدو حزينًا، فأجبتُها:

"إنه غاضب من العشاء الذي أعدَدْتُه"

---

[١] بحسب رأي المتشددين فكل الغناء والموسيقى حرام، ولا يعتقد المعتدلون من المسلمين بذلك، فنصوص السيرة والحديث مليئة بقصص الاحتفالات والغناء المتضمن للشعر وغيره، وفي عصور الفقر والظلام وانتشار السلفية والوهابية التي يعيش فيها العرب في القرنين العشرين والحادي والعشرين تنتشر هذه الآراء بحيث تمثل الأغلبية الكاسحة كاعتقاد، لكن كثيرين في دول كمصر والشام لا يأخذونها بجدية على عكس السلفيين، لكن يظل العامة والجهال يعتبرون استماعهم لمجرد أي موسيقى أو غناء مصدرًا لعقدة ذنب غير منطقية! وبعض الأدبيات الإسلامية القديمة على نفس الرأي الظلامي- المترجم

"ما الذي أعددتِهِ؟"
"دجاجًا مشويًّا و أرُزًّا وسلطةً"
"هذا يبدو رائعا!" قالت لي. بما أنها طالبة جامعية فإن وجباتها كانت جاهزةً في العادة.

إنها محقة. ينبغي عليه أن يكون ممتنًّا لأنه يجد الوجبات الطيبة معدة له. الوغد. حاولت التواصل معه من وجهة نظر إسلامية. أخبرته أنه يجب عليه أن يكون ممتنًّا لما لديه ولما أعددته له. لكن انتهى بي الأمر بوجه متورم لأنه وجد كلماتي مُحِطَّةً من قدره. قال أني أتهمه بقلة الدين وبأنه مسلم سيء.

طلبت من أمي لوحة تعلقها في شقتها نصُّها "الحمد لله". علقتها على الحائط أمامه في مكان جلوسه لتناول العشاء. إذا لم يكن بمقدوري مخاطبته فعلى الأقل سأحاول أن أرسل له رسالة مبطَّنةً (باطنية لا شعورية) بدلًا من ذلك.

حاولتُ ايضًا أن أعرفه ببعض الأطعمة الكندية "الغريبة". أمِلْتُ أن يُعجب بجِدَّتِها، وبالتأكيد، لأنها أسهل مليار مرة من طبخ الأطباق الشرق أوسطية. لم يعجبه قط الطعام الكندي، لكنني من آن إلى آخر كنت أحاول دس طبق في الوسط.

ذات ليلة كنت أعد أحد الأطباق الكندية الشهية التقليدية وهي حساء المكرونة بالدجاج. علمت أنه سيعود إلى المنزل قريبًا وأني لا يزال أمامي الكثير للقيام به. كنت مشغولة بخَلْيِ لحم الدجاج المغلي من العظام والغضاريف والجلد وأي شيء آخر غير اللحم. كان علي الحرص على ألا أضيف أي شيء غير لحم الدجاج المخليّ الصافي إلى حسائه (شوربته). حتى قطع الدجاج الداكنة اللون أكثر من اللازم كانت تجعله يغضب. كنت خائفة من التسرع في العملية لكن كان لا يزال علي أن أنظف البيت وأستحم وأرتدي ملابسي.
طلبت من أمي المساعدة بخجل.
"أرجوك كوني حريصةً. ضعي أنقى قطع اللحم فقط. لقد قطَّعْتُ الصدرَ فإذا لم تجدي الكثير فلا بأس. أنت تعرفين طبعَهُ، إذا لم ير اللحم كأول شيء فسوف يفقد صوابه. فقط أضيفي الدجاج إلى هذه الطنجرة[١]."
"حسنًا حسنًا. لستُ غبيةً. اذهبي فقط"
أعلم. لكن أرجوك احذري. أتعلمين، انسي الأمر. يوجد ما يكفي من الدجاج فيه بالفعل." كنت جد متوترة ولم أكن لأترك هذه المهمة لها. فعدم إجادة عمل طعامه كانت دائمًا لها عواقب أليمة مخيفة.
"قلت لك أعرف. فقط اذهبي ونظفي نفسك قبل أن يأتي زوجك فيراك هكذا"

كنت متوترة خائفة من الذهاب. لم أوُكِلْ لأمي مساعدتي في أي وجبة من قَبْلُ، لكني كنت أعاني ضيق الوقت، وكل مهمة بسيطة تصبح صعبة وأنت حامل. لذلك تركتها لتنهي الحساء وذهبت.

لاحقًا عندما جلس لتناول العشاء، غمستُ المغرفة في الطنجرة لأضع له الحساء. وعندما رفعتُه صُدِمْتْ لرؤيتي أن المغرفة في يدي امتلأت بعظام ودهن وجلد الدجاج. أنزلت المغرفة بسرعة قبل أن يتمكن من لمحها.

[١] طنجرة: حلة، قِدْر، مِرجَل، نونية، غلاية

"لم كل هذا البطئ؟"

"أنا..." توقف عقلي عن التفكير.

"لم هي غبية للغاية؟" سأل أمي.

ردت أمي بقهقهة.

غمست المغرفة ثانية، ووجدت نفس الخليط من عظام الدجاج. لم أستوعب كيف لكل هذه القذارة أن تصل إلى هناك عن طريق الخطإ. لم تكن عظمةً أو اثنتين. كان الأمر كأن قطع عظام الدجاج قد أُلْقِيَتْ مباشرةً من المصفاة إلى الطنجرة.

كان قد بدأ يفقد صبره.

"لقد عملت طوال اليوم!" صرخ فيَّ. "ألا تستطيعين حتى وضع طبق ملعون محترم على الطاولة في الوقت السليم؟ أنت تجلسين في البيت ولا تفعلين شيئا طوال اليوم!".

نظرت إلى المصفاة التي تكون في العادة مليئة بالعظام والفضلات الأخرى، فكان فارغًا. مصدومةً لهذا، نظرت الى أمي بسرعة. بدت كأنها مهتمة جدًّا بالتحديث في مفرش الطاولة عن أن تنظر في عينيَّ.

"ما الذي دهاك؟". قفز من مقعدِه، ووقف إلى جانبي قافزًا. "ضعي الحساء اللعين!"

لم يكن لدي خيار إلا أن أغمس المغرفة ثانية وهو يشاهدني فخرجت مليئة بالعظام كما خرجت في المرتين السابقتين.

"ما هذا؟". همس مهدِّدًا.

"أنا .... لقد كان لدي الكثير لفعله. هذا الحمل يتعبني. طلبت من أمي أن تساعدني على طهو الدجاج."

"ماذا؟ أستلقين باللوم علي لأجل هذا؟"

أيُّ لومٍ؟ كيف تعرف ما الذي كنت سأقوله؟ كانت لا تزال جالسة على الطاولة. كيف لها أن ترى ما كان في المغرفة؟ حتى تلك اللحظة كنت أعتقد أنه خطأ بريء. لم أستوعب كيف يمكن أن تكون قد وضعت كل هذا سهوًا بالخطإ، لكنني لم كن قد قدرت على فهم البديل. حينذاك، لم يعد لدي خيار إلا أن أرى الحقيقةَ.

كل تلك السنوات وأنا أجد لها الأعذار وأظن أني أسيء فهمها. وأقبل تبريراتها. وأستمر في منحها الثقةَ. وأعيش لأجل حبها وألوم نفسي وأكره نفسي. كل تلك السنوات وأنا أقبل أني فاشلة، وأكافح لإرضائها، وأضع رغباتها واحتياجاتها قبل رغباتي. انكشف كل شيء وانهار في هذه الحادثة الواضحة بحيث لم يكن لدي أي سبيل للإنكار. نظرت إليه متوقعة أن يقتلني لكن لم يكن يمكن لأي ضربة جسدية أن تضاهي الألم النفسي الذي كنت أشعر به.

ثم حدث أغرب شيء. قال: "لا بأس. فلنتجاوز الحساء فقط. ما الذي لدينا غيره للعشاء؟"

لقد أشفق علي. لقد فهم أن أمي هي التي فعلت هذا. فهم أنها أوقعت بي. لقد رأي في عينَيَّ أني قد عرفتُ ذلك أيضًا. لقد فهم أنها تريد أن تراني أُضْرَب مرة أخرى. وبينما أنا أصرخ مستنجِدةً بها وهو يسحبني من شعري ويلكمني في وجهي كانت لتقول _كما كانت تقول دائمًا_: "اخرسي. سوف يسمعك الجيران؟ أتريدينه أنْ يُسْجَنَ؟"

هذا الرجل الشرير _الذي سأعلم لاحقًا أنه متورط في تفجيرات قتلت المئات من الناس والذي حوكم ضمن من حوكِموا في أكبر محاكمة لإرهابيين في تاريخ مصر[١]، والتي ليس أكبر منها إلا محاكمة الذين اغتالوا الرئيس أنور السادات_ كان لديه رحمة أكثر من أمي!

[١] قضية العائدين من ألبانيا، وسوف نعود لذكر السيرة الإرهابية لعصام حافظ وصل محمد مرزوق في ترجمة في أحد هوامش الكتاب- المترجم

طفلتي الرضيعة

لقد علمتُ أن أمي خسيسة وشريرة، لكني احتَجْتُها. فقد كنت قد تجاوزتُ ذكرى ميلادي الثانية والعشرية للتو، وصرتُ مسؤولةً عن حياة جديدة. كنت بالكاد قادرة على العناية بنفسي ناهيك عن الاعتناء بشخص آخر. كنت خائفة ومتوترة. كنت ممتلئة بالحب لطفلتي الصغيرة لكنني كنت أيضًا بنفس القدر تحت وطأة الشعور بالمسؤولية. أحب الأطفال الرضع، لكن عندما ينطلقون في البكاء كنت أعيدهم الى أمهاتهم. لكنْ الآنَ أُعْطِيَ هذا الرضيع لي. كيف علي أن أعرف كيفية التصرف؟

الطفل الوحيد الذي اعتنيت به سابقا كان ابن(ة) أختي بينما كانت هي في المستشفى تلد المزيد من الرضع.

قالت أمي وهي تغير حفاظته. "أوه. انظري إلى حجمه. إنه ضخم مثل جده".

"أيهم؟" تساءلت أختي بتعب.

رغم كل عيوبها كانت أمي المرأة الوحيدة القادرة على مساعدتي في العناية بطفلي. كانت الوحيدة معي في المستشفى وأنا ألد. رغم كل عيوبها كانت تعرف أكثر مني. لم أكن أعرف كيف أعتني بهذه الحياة الضئيلة الهشة.

بعد بضعة أيام من ولادتي طفلتي تلقيتُ اتصالًا هاتفيًا من الممرضة. كانت خدمة مقدمة من الحكومة للأمهات حديثات الولادة.

سألتني: "هل تنام جيدًا؟"

"تنام جيدًا حقًّا. تنام كامل الليل وكثيرًا في النهار أيضًا."

"كيف حال رضاعتها ؟"

" بالكاد ترضع. إنها نائمة دائمًا"

سألتني الممرضة بعد سكتة قصيرة: "أوه. هل تبكي كثيرًا؟".

"لا، على الإطلاق. هي سعيدة بالنوم في أرجوحتها. إنها طفلة رائعة"

"أود زيارتك لكنني لا أستطيع فعل ذلك اليوم، لذلك أحتاجك أن تفعلي شيئًا. أنظري إلى بياض عينيها وأخبريني إن كان أصفر."

"هل هي بخير؟ إنها فقط طفلة هادئة. قالت لي أمي أنه من الطبيعي أن ينام الرضع كثيرًا هكذا".

"لا. يجب أن تتغذى كل ساعتين. يا ياسمين، إنها لا تتغذى على نحوٍ كافٍ".

التفتت لكي أتفقدها وهي نائمة في مهدها جانبي. كانت بالفعل تنام أكثر من اللازم. كنت أعلم هذا! أخبرت أمي أنني أحسست أن خطبًا ما يعتريها. كنت أسرع أحيانًا لأتفقد استمرار تنفسها لأنها تنام طويلًا للغاية. فُزِعْتُ عندما وجدت أن بياض عينها كان بالفعل أصفر.

قالت لي الممرضة: "خذيها إلى الطوارئ بأسرع ما يمكن. أخبريهم أنها تعاني من اليرقان."

لم تكن أمي مقتنعة.

"إنها غبية. الطفلة بخير. لا تستطيع أنْ تراها [عبْرَ الهاتف]. لا يمكن إصدار هذه الأحكام الطبية من خلال الهاتف".
"لا أزال أريد الذهاب"
"لا يوجد داعٍ للقلق!. دعيها تنام فقط. النوم يجعلُ الرُضَّعَ ينمُوْنَ."
"أود فقط الذهاب للفحص. أريد أن يفحصها أحدهم".

أصررَتُ على هذا مع أمي وأبيها [أبي الرضيعة]، إلى أنْ رضخَ في النهاية، وأخذَنا الى المستشفى.
وَخَزُوْا[1] كعبَ قدمِها لأخذ عينة دمٍ لتفقد معدل البيليروبين لديها. لم تَجْفَلْ حتى[2].
"كم هي طفلة رائعة. ما بَكَتْ حتى!"
قالت الممرضة: "هذه ليست علامة جيدة".

توقف قلبي لكلماتها. بالتأكيد هذا ليس جيدًا. كيف لها أن تنام بعمق إلى درجة أنها لا تحس حتى بوخزة كافية لسحب الدم؟ اعترتني حالة من الهلع التام مباشرة.
أخذوها مني فورًا ووضعوها تحت الأضواء فوق البنفسجية.
قالوا لي: "دعيها هناك، لا تحمليها".

جلست أشاهدها عاريةً في فراش بلاستيكي شفاف، وَبَكَيْتُ. كنت عاجزة. كل ما كنت أستطيع فعله هو التحديق بها والبكاء. لم أحب أحدًا في حياتي قط مثلما أحببت هذه الكتلة الصغيرة التي تزن بالكاد خمسة أرطال [٢.٢٥ كيلوجرام]. لم أعرف حتى أنه يمكن للإنسان أنْ يُحِبَّ بهذا القدر. أحسست بألم في ذراعي وجسدي، وكان كلُّ ما أردتُ فِعلَهُ حَمْلَها.

فتحت عينيها أخيرًا وبدأت تتحرك. وصلت إليها وحملتها بين ذراعَيَّ غريزيًّا وبدأت أرضعها. كنت سعيدة للغاية لأنها تجاوبت معي.

صاحت الممرضةُ: "أرجعيها تحت الضوء! أتريدينها أن تتحسن أم لا؟ حملها لن يساعدها. أَنْزِلِيها".
"لكن ما أن أعيدها سوف تبكي"
"و ماذا إذن؟ كل الرضع يبكون. أعلم أن الأمر صعب عليك، لكنه لا يتعلق بك. عليك أن تفعلي ما هو في مصلحتها. سوف يتطلب تعافيها وقتًا طويلًا للغاية إذا واصلتِ حمْلَها".

لقد فزت للتو بمعركة ضد أمي لأني أصررتُ على الاستماع إلى غرائزي بخصوص ابنتي. أنا أم الآن وعلي أن أبدأ في الانتباه لغريزة الأمومة لدي. لن أثق في أمي أو أي شخص آخر لإخباري بمصلحة ابنتي. لقد ثبتَتْ صحةُ غريزتي عندما أصررت على أخذ ابنتي إلى الإسعاف رغم إصرار أمي على أنها بخير. لقد أصابت غريزة الأمومة لديَّ من قَبْلُ، لذلك وثقْتُ في أني ينبغي أن أتَّبِعَها مرةً أخرى. ورغم أوامر الممرضة راتشيت حملت ابنتي وعانقتُها وأرضعتها كلما

[1] وَخَزَ: شكَّ، بإبرةٍ ونحوَه.
[2] تجفَلُ: تَفزَع، تتراجع، تَنْكُصُ

استطعت. قدم الطبيب وعلَّقَ في الحقيقة على سرعة تعافيها. تحت مسمعك أيتها الممرضة راتشيت!. علِمْتُ أن السبب في ذلك حملي لها. علمت بعد سنوات لاحقًا أن الأبحاث أثبتت أن الرضع يتعافون من اليرقان أسرع إذا كان هنالك اتصال مباشر ببشرة الأم.

اكتسبتُ تركيزًا أكثر على رضيعتي. لم أعد أتركها في مهْدِها[1] أو في الأرجوحة لأطبخ له عشاءَه أو أغسل ملابس أمي. وصرت أضع حاجاتها في المرتبة الأولى. كانا كثيرَي المطالب ولئيمَيْنِ، بينما كانت هي تمكث فقط في مكانها كملاكٍ، ولذلك جعلتُ لها الأوليةَ عليهما. لا مزيد من ذلك.

كان يعود الى البيت متى شاء ويعلق على فوضى البيت أو ينظر من تحت أنفه إلى شعري المنكوش ويبصق على قميصي.
"نظفي نفسك. أنتِ مقززة. ولماذا هذا البيتُ ليس نظيفًا؟"

لكوني محبطةً ولم أنم جيدًا وغاضبة وغير مهتمة ففقدت قدرتي على الحكم على الأمور للحظة. بالعربية كما بالفرنسية الأسماء لها جنس. عندما نتحدث عن المنزل، فإن السؤال يترجم كالآتي: لم البيت ليس (ولا نقول ليست) نظيفًا؟

فأجبته: "اسأله هو"

ما أن خرج الكلام الوقح من فمي، حتى ندِمْتُ. ذلك حتى أصابني الندم. قوَّيْتُ نفسي وشدَدَتْ كامل جسدي، غير متأكدة أين ستحط الضربةُ عليَّ.

صرخ فيَّ: "أنا أسألكِ أنتِ"

أذهلتني سخافة إجابته. أي أنه كان يحدثني أنا وليس البيت فانفجرت ضاحكة. أعتقد أن العناية بطفلة وحدك تمامًا دون إنترنت يرشدُكِ أو أصدقاء تتصلين بهم، أو مُتنَفَّس، كل ذلك قد أضر باتزاني. أطلقت عنان قهقهةٍ من القلب فضربني ضربًا كاد يفقدني التنفس ردًّا على ذلك.

كانت إحدى أقسى مرات الضرب التي ضربها لي. لم يتقبل كبرياؤه أن أضحك عليه. كنت مجرد امرأة تضحك عليه فقرر أن يُرِيَني من هو القائد. كنت جد متعبة من العناية بطفلته فبالكاد كان لي ردة فعل. لم يعد هنالك أذى إضافي يمكنه إلحاقه بي فقد كنت قد صرت مستنزَفة.

كنت متزوجة لكنني كنت على نحو جوهري أمًّا عزباءَ. لم يظهر قط أدنى اهتمام بابنته. لكن ذات يوم فعل ذلك!
بينما أقبِّل أصابعها الصغيرة التي تلتف بإحكامٍ حول إصبعي انحنى عليها، وسألني:

[1] المهد: السرير

"هل هي مطهَّرة؟"

قلت له: "نعم لقد حممتها الآن".

"لا، أقصد هل هي مضبَّطة (أو مقوَّمة أو معالَجة)؟"

"لا أفهم ما تقصده"

تدخلت أمي قائلةً: "لا لا." أجابته أمي. "سنفعل ذلك لاحقًا عندما تكون أكبر"

ثم فهمت. لقد كان يتكلم عن البتر التناسلي للإناث (ختان الإناث). أراد أن يتناول شفرة ويبتر ملاكي الصغيرة. انفجر مني غضبٌ دفاعيٌّ شديد كحمم البركان والذي لم أكن أدري أنني لا أزال أمتلكه. لم تكن لي أبدًا الشجاعة للدفاع عن نفسي، لكنني كنت مستعدة للقفز من النافذة مع ابنتي لأبعدها عنه. لكن إجابة أمي منحتني بعض الوقت.

"هل أنت متأكدة؟ الأفضل أن نفعل ذلك حالًا. لن أقبل أن تكون ابنتي غير مطهَّرة"

قالت أمي: "نعم نعم. سوف نأخذها إلى مصر ونفعل ذلك في أقرب وقت ممكن"

شعرت بضرورة التصرف العاجل. لقد علمتُ أني سوف أحارب من أجل ابنتي. قررت أني سوف أخرجها من هذا البيت قبل أن يتمكنا من إيذائها. سوف أحرص على أن تكون حرة منهما كليهما قبل حتى أن تصير كبيرة على نحو يكفي لأن تحتفظ بذكريات عن هويتيهما.

المرة الأخرى الوحيدة التي قال فيها شيئًا عن ابنتي، كان كلامًا له قدرٌ مساوٍ من الشناعة. لقد ردَّدَ سجعًا لها عندما رآني أُغيِّر لها ملابسها.

"البس جديدًا وعش حميدًا ومت شهيدًا"[1].

أولا، ما علاقة ارتداء الملابس الجديدة بالموت شهيدةً؟ وثانيًا، لا تتحدث عن موت ابنتي! كنتُ جدَّ غاضبةٍ وخائفة ومنزعجة وحزينة بسبب تلك الكلمات الغبية. فعلت كل ما بوسعي لتفادي تغيير ملابسها أمامه. منذ ذلك الوقت رأيت ڤيديوهات لرجال يرسلون أطفالهم _كحصان طروادة_ ليموتوا "شهداءَ" في تفجيرات انتحارية. هذه سلطة غسل الدماغ. إنها تتغلب على دوافعك الطبيعية الغريزية البشرية الخاصة بالحب والتعاطف. إنها تتطلب منك أن تتصرف بطريقة غير أخلاقية وفاسدة اتجاه أطفالك بزعم أن هذا ما يريده الله. عليك أن تتغلب على غرائزك الأكثر أساسيةً التي تدعوك إلى حماية طفلك حتى تلبي مطالب الدين، مثل قصة ابراهيم الذي كان مستعدًّا لذبح ابنه لأجل الله. هذه ليس فضيلةً بل جنونٌ. لكن هذه الفعلة بُجِّلَتْ للغاية ومثَّلَتْ جوهرَ ثلاثِ ديانات عالمية. أي رب متعطش للدماء مجنون يطلب مطلبًا كهذا من مخلوقاته؟ كأنها لقطة من أحد أكثر الأفلام رعبًا، مخيف جدًّا حتى في تصوُّرِه. لكن هذه قمة الفضيلة [في نظر تلك الأديان]: أن تكون مستعدًّا للتضحية بابنك لله.

[1] روى ابن ماجة (٣٥٥٨)، وأحمد (٥٦٢٠) ، وابن حبان (٦٩٨٧) والطبراني في "الكبير" (١٣١٢٧) ، والنسائي في "الكبرى" (١٠٠٧٠) ، والبزار (٦٠٠٥) من طريق عَبْد الرَّزَّاقِ قَالَ: أَنْبَأَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَأَى عَلَى عُمَرَ قَمِيصًا أَبْيَضَ فَقَالَ: (ثَوْبُكَ هَذَا غَسِيلٌ أَمْ جَدِيدٌ؟) قَالَ: لَا، بَلْ غَسِيلٌ. قَالَ: (الْبَسْ جَدِيدًا، وَعِشْ حَمِيدًا، وَمُتْ شَهِيدًا). والحديث حسنه/ صححه بعضهم وأعله وضعفه آخرون بلا إطالةٍ على القارئ هنا، لكن في الآداب والزهد والرقائق يأخذ السنة بالأحاديث حتى من يضعفها منهم.
بالنسبة للمسلم السلفي والجهادي مغسول الدماغ فالموت شهيدًا في حرب ضد الكفار، سواء أكانت حربًا دفاعية أو فتحًا واحتلالًا هجوميًّا، أقصى أمانيه! والنصوص القرآنية والأحاديث المحمدية عند السنة والشيعة الاثناعشرية كثيرة في ذلك.

سميت ابنتي على اسم أمي. كانت آخر محاولة لي للفوز بحبها. كنت في أقصى درجات اليأس عندما فعلت ذلك. كنت قد حاولت كل شيء لجلبها في صفي. يجب أن تنجح هذه المحاولة. لكنني ندمت على ذلك في الحال. لكني أقنعت نفسي بتبرير أن أمي ستكون أحن عليها إذا كانت سَمِيَّتَها (لها نفس اسمها) وكنت محقة. كان هذا غرور أمي حيث أنها فضلت ابنتي بفظاظة على نفس النحو الذي كانت تفضل أختي به عليَّ. يا له من قدرٍ قاسٍ. بدلًا أن أبتهج برؤية بنات أختي يُنْزَلْنَ إلى حفيداتٍ من المرتبة الثانية عند أمي، كنت متقززة. لم أرد لابنتي أن تحس بالترفُّع على بنات خالتها، وانفطر قلبي لأولئك الفتيات الصغيرات، لأنني أعلم شخصيًّا عن سابقِ تجربةٍ كيف كن يشعُرْنَ بالضبط.

كنت معتادة على تحيُّري بين رغبتي في أن تحبني أمي ورغبتي في الابتعاد عنها بأقصى قدر ممكن. لكن في تلك الأيام كنت أميل إلى الابتعاد عنها. عندما حملت ابنتي في ذراعي وأحسستُ بذلك الحب الجارف الغريب، صرت أرى أخيرًا كل شيء من منظور مختلف. فجأةً لم أقدر على تصور كيف لأمي أن تكون بمثل تلك القسوة معي طوال تلك السنين. ما كنتُ لأتردَّدَ في الدفاع عن ابنتي بدون اعتبار لأي شيء حتى حياتي! كيف أمكنَ لها فعل كل تلك الأشياء لي؟ كيف أمكن لها ألَّا تحرك ساكنًا بينما كان الرجال الذي تُدْخِلُهم في حياتي يعذبونني؟ كيف أمكن لها ألا تحميني؟

خلُصْتُ إلى أنه لا يمكن أن تكون قد شعرت بنفس شعوري الذي شعرته اتجاه ابنتي. لم أكن متأكدةً من السبب. لست متأكدةً هل كنت أنا السبب أم هي. لكن كيف يمكن أن أكون أنا السبب؟ كنت طفلة. لم يكن بالإمكان لومي على أي شيء وأنا طفلة. لقد أُلْقِيَ اللوم عليَّ لاحقًا واستبْطَنْتُ اللومَ[١]. لكنني الآن أفهم أن كل ذلك كان باطلًا، وأنها حتمًا لم تشعر قط هذا بمثل هذا الشعور الأمومي نحوي. لا يمكنك أن تشعري بهذا الشعور ثم تفقدينه بعد بضع سنوات. هذا حب مغيِّرٌ للحياة والروح عميق وغير مشروط. لم أتسبب في كرهها لي بطبيعتي الذميمة كما أقنعتني هي. لم تكن لي الفرصة أبدًا. إنها لم تحبني قط منذ البداية.

[١] أي صار اللوم ينبُع من داخلها، داخليًّا دون حاجةٍ لمثير خارجي، نتيجة تلاعبات أمها النفسية بها.

القاعدة

كنت لا أزال عالقة مع أمي و الوحش الذي أرغمتني على الزواج منه. لم أدر أي منهما كان الأسوأ من الآخر لأنهما بدوا كأنهما يتداولان على ذلك. اللحظات الوحيدة التي كانت الحياة محتمَلةً فيها كانت عندما يغادران المنزل لسبب أو لآخر. طالما هما على نفس الرأي ويعتبران نفسيهما على حقٍّ، فقد كنتُ في ورطة. وكنت محطَّ سخريتهما وتندرهما.

وكان الاثنان متلازمين على نحو غير عادي. في البداية عَزَوْتُ[1] ذلك إلى كونهما يتكلمان نفس اللغة. لم أكن مهتمة في الحقيقة بقضاء الوقت مع أي منهما على أيٍّ حالٍ. فليخرجا معا ويبتعدا عني. كنت سعيدة بقضاء الوقت مع رضيعتي. ولذلك عندما حدثني سرًّا ذات ليلة وقال لي أنه يريد أن ننتقل من البيت مع رضيعتنا كنت متفاجئةً حقًّا.

"أمك ليست شخصًا صالحًا"

حسنًا، نعم. أنا أعرف ذلك. لكن كيف عرف هو هذا؟

"ما الذي تتحدث عنه؟ إنكما متلازمان دائمًا كحبتي بازلاء في إصيص زرعٍ واحدٍ"

"وهذا خطأ. لا يجب علينا أن نكون هكذا. يجب علي أنا وأنت أن نكون متقاربين. أنت زوجتي وليس هي".

كان هناك شيء غريب يحدث بالفعل، لا شك في ذلك. إذ أن أمي في سن تجاوزَ الخمسين قررت أن تبدأ في لبس النقاب. كانت على نحو واضح جدًّا تحاول إرضاءَه. لقد بدوا هما أشبه بالزوجين، وأنا بالطباخة والمنظفة والمربية.

في العادة، كان الناس سيقولون أني محظوظة لأن أمي كانت معي عند إنجابي طفلة لأول مرة. ستعتقدون ذلك، لكن الأمر لم يكن كذلك. كانت أمي عبئًا إضافيًّا. كانت متطلبة مثله تمامًا. كنت أبذل جهدًا هائلًا لخدمتهما كليهما، وكانت ابنتي بالنسبة إليهما يُتوقَّع دائمًا أنْ تكونَ في المرتبة الثالثة.

طالما كانا في هذا التحالف الملعون فقد كنتُ في ورطة. قررت قبول عرضه والانتقال من البيت لأن ذلك سيفرقهما. فكرت أني إذا تمكنت من تفرقتهما فسأستطيع التعامل مع كلٍّ منهما على حدة وعلمتُ أن تجنب أمي والفكاك منها أسهل من تجنبه هو. فكرت أني حالما أفرق بينهما فسأستطيع بطريقة ما أن أتركه وأنتقل إلى جانبها.

أخبرت أمي أنه يريدنا أن نبتعد عنها. ظننتها ستغضب أو تشعر بالإهانة أو الجرح، لكنني لم أكن مستعدة لرد فعلها الانفجاري على ذلك النحو. لقد استشاطت غضبًا بطريقة تثير العجَبَ حتى بالنسبة إلى امرأة تفقد صوابها على نحو منتظم وكثيرًا مثلها.

ما إن عاد الى المنزل حتى صبت عليه جام غضبها. توقعت أن يغضب مني لأنني أخبرتها لكنه لم يفعل. بل كان سعيدًا لأنني أعلمتُها. كان سعيدًا لأنه لم يُضطَرّ لإخبارها بنفسه.

[1] عزَوْت: فسَّرْت، علَّلْتُ

قال لي: "سأبيت في منزل عَمْرٍو الليلةَ. اجمعي كل متاعنا. لقد وجدتُ منزلًا بالفعل. نستطيع المغادرة غدًا.

غدا؟ يبدو أن أمرًا خطيرًا يحدث بينهما.

غادر مجددًا بينما أمي تذرع الغرفة وتشتم وتصرخ حتى وإن لم يكن هناك ليسمعها. ثم بدأت تسعل. اشتَدَّ سعالُها أكثرَ فأكثرَ. فهرَعْتُ إلى المطبخ لكي أحضر لها كوبًا من الماء. عندما عدت كانت منحنيةً على حوض الحمام وتسعل دمًا. وفي نفس الوقت كان الدم ينزف من أنفها. حدقت بها وبيدي كوب الماء وأنا غير قادرة على الحركة. استطاعت في النهاية أن تغُقَّ (تُبقبِق) بصعوبة بين نوبات السعال قائلةً:
"٩١١"!
صُعِقْتُ لأني لم أكن قد رأيتُ من قَبْلُ قط هذه الكمية من الدم. ركَضْتُ إلى الهاتف في الأسفل ثم عدت إليها مسرعة، ثم مرة أخرى إلى الأسفل ثم إلى الأعلى، لا أعرف كم مرةً فعلتُ ذلك قبل أن أتوقف في النهاية وأمسك الهاتفَ وأتصل برقم الإسعاف.

عندما أتت سيارة الاسعاف لأخذها تردَّدَتُ. لم أغادر المنزل من دونه قط من قَبْلُ. هل يُسْمَحُ لي بالذهاب معها؟ هل سأكون في ورطة؟ خمَّنَتُ أن هذه حالة طارئة، ورجَوْتُ أنه سيتفهم. لقد أدركتُ أنَّ هناك احتماليةً كبيرةً أنه لن يتفهم لكنني خاطرت على كل حال. ركبت معهم أنا ورضيعتي في سيارة الإسعاف. عندما وصلنا الى المستشفى سارعوا بأمي وتركونا أنا وابنتي لِنَجْلسَ في غرفة الانتظار.

لم يطل بنا الوقت كثيرًا هناك قبل أن يقترب منا رجل وامرأة.
"هل أنت ياسمين؟" سألتني المرأة بلطف وهي تكاد تهمس.
"نعم". ظننت أن لديهما أخبارًا عن أمي. بدأتُ أسألهما عن سبب شروع النزيف لديها فجأةً بهذه الطريقة.
قالت لي: "لا. نحن من السي إس آي إس[١]"
"هل أخرجوها من قسم الطوارئ؟ " سألتهما مفترِضَةً أن ذلك اسم جناح في المستشفى.
"لا. سي إس آي إس اختصارُ جهاز الاستخبارات الأمنية الكندي"
"لا أدري ما الذي تقصدانه. ما الذي يحدث؟"
أجابني الرجل: "إنها مثل السي آي إيه، هي مثل السي آي إيه الكندية"
"أوه. لم أدر أن لدينا واحدة".
كنت ما زلت لا أفهم لماذا كَمُنَا[٢] لي هكذا في المستشفى. فسألتُهما: "هل ارتكبتُ خطأً؟ لِمَ أنتما هنا؟"
"لا، لا مشكلةَ معكِ. لكننا أردنْا أن نتحدث إليكِ منذ وقت طويل، ولم نجد الفرصة قط للتفرد بك. نحن في الحقيقة سعيدون جدًّا بالحصول على هذه الفرصة أخيرًا للتحدث معك"
"عن ماذا؟"
"هل سيأتي زوجك الى المستشفى؟"

---

[١] اختصار: جهاز (أو خدمة) الاستخبارات الأمنية الكَندي Canadian Security Intelligence Service
[٢] كمُنَ: ترصَّدَ، ترقَّبَ

فكَّرْتُ" زوجي؟ ما علاقته بأي شيء؟

"لا. سوف يبيت في منزل صديقٍ له."

كان هذا قبل أن تصير الهواتف المحمولة منتشرةً مألوفةً. كنت قد تركت له ورقة في البيت في حالة إذا عاد قبلنا. لم يكن لدي رقم هاتف صديقه.

"إذن فهو لا يعلم أنك هنا؟"

"لا. إلا إذا رجع إلى المنزل و قرأ الورقة"

تحدثا بصوت خافت مع بعضهما بينما أنا أحدِّق[١] في رضيعتي النائمة في مهدها ذي العجلات، متسائلةً هل ستعيش أمي أم ستموت.

"حسنًا. سنذهب أنا وأنت إلى غرفة منزوية لنتحدث، وسيبقى شريكي هنا. إذا جاء زوجك فسوف يأتي ليخبرنا. اتفقنا؟"

أجبتُها: "حسنًا".

لم تكن لدي أدنى فكرة عما يحدث، لكنني لم أكن لأشك في ضابط من السي إس آي إس (جهاز الاستخبارات الأمنية الكندي).

قادتني أنا ورضيعتي النائمة إلى غرفة أخرى. وشرحت لي أني متزوجة من عضو في تنظيم القاعدة. لم يكن لدي فكرة عما يعنيه ذلك. كان هذا قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولم يكن العالم الغربي عمومًا عارفًا بتلك المجموعة. سألتني كل الأنواع من الأسئلة ولم أستطع الإجابة عن أغلبها. ثم سألتني إن كنت قد سمعْتُ باسم أسامة بن لادن في أي مرة. فنظرت عيناي إلى عينيها بسرعةٍ.

"هل ذكر ذلك الاسم؟"

"حسنًا، لقد وجد مرة مجلة بها صورة أسامة بن لادن واضطرب لذلك حقًّا. سألني عن سببي امتلاكي للمجلة وعما إذا كنت أعرف من ذلك الشخص. ثم طلب مني التخلص منها بأسرع ما يمكن. لمْ أعرف لِمَ كانَ يتصرف بتلك الطريقة المبالَغ فيها. بدا كأنه يتهمني بشيء ما".

لم أدر لم تسألني هذه المرأة من جهاز الاستخبارات الأمنية الكندي عن بن لادن.

"حسنًا حاولي تذكر لو أن هناك أي شيء آخر لم نتكلم عنه قد يكون مهمًّا"

"لا أدري ما المهم. لا أدري أصلًا ما الذي نتكلم عنه"

"أي شيء. أي أصدقاء آخرين لم تذكريهم؟ أي شيء قد تكونين قد سمعتِه؟"

"لا أعتقد ذلك. هو لا يُحضر أحدًا معه إلى البيت إلا نادرًا. وهو دائم الخروج. ودائمًا يقضي الوقت في بيت صديقه عمرٍو. أحيانا يمضي أيامًا هناك".

لم يكونا مهتمين بعمرٍو البتةَ.

"من أين يأتي بالنقود؟ لقد أنشأ للتو شركة، فكيف حصل على كل ذلك؟"

---

[١] حدَّقَ: تملَّى وأمعنَ النظرَ.

"ليست لدي أدنى فكرة. كان عاطلًا عن العمل عندما تزوجته. أرسلت سيرته الذاتية عشوائيًا لكل الشركات، وفي النهاية اتصل به مستودع أطعمة بحرية. هو يعمل هناك منذ بضعة أشهر. لا أعرف أي شيء في الحقيقة عن الشركة. ما أعرفه فقط أن اسمها "فور يو إنتربرايسز"

"هل لديه أي مهارات تعرفينها؟ ما مجال نشاط شركته؟"

"لا أعرف. هو ليس متعلمًا جيدًا"

"كيف تعرفين ذلك؟"

"أعلم أن إنجليزيته لم تكن جيدة، لكني رأيته يكتب اسمه بالعربية ذات مرة وبدا كأنما كتبه طفل. حتى أنني أقدر منه على الكتابة والقراءة بالعربية".

لم تكن لدي أدنى فكرة عن نشاط شركته الذي يمكن له أن يبدأ فيه أو من أين أتى بماله. كانت وظيفته تدفع الحد الأدنى من الأجور، لكنه بطريقة ما كان دائمًا معه مال. كان دائما يقول "٩١١" في الهاتف بصوتٍ عالٍ مع أصدقائه ثم يضحك. ظننتُ أن هذا غريب على نحوٍ كافٍ لكي أسأله عنه، فأشار إلى الباب بإصبعه كما كان كثيرًا ما يفعل. هكذا كان يصرفني بإشارة تعني (إلى الخارج)، مثلما تزجر حشرةً.

لم أخبرها حول حكاية ١١/٩ لأنها لم تبدُ مهمة آنذاك. لكنْ بإدراكٍ متأخر أدرك الآن أنها كانت مهمةً للغاية، لكني أشك أنهم كانوا سيستطيعون ربط الأمور ببعضها على أي حال.

عندما صار واضحًا أني لم تتبق لدي أي معلومات أخرى أقدمها ،أخبرتني أن الرجل الذي تزوجت منه دخل كندا كلاجئ من أفغانستان بجواز سفر سعودي مزيف لأن جوازه المصري كان في القائمة الحمراء. وذلك لأن السلطات المصرية اعتبرته إرهابيًا. أرسلت مصر مذكرة للقبض عليه، لكن جهاز الاستخبارات الأمنية الكندي لم يُرِدْ القبضَ عليه، بل أرادوا معرفة خطته وسبب مجيئه إلى كندا.

أذكر أنه كان يخبرني قصصًا عن أبيه الذي أوقفته الشرطة المصرية واستجوبته وأن ذلك سببُ عدم قدرته على العودة إلى مصر. سألته عن سبب ملاحقة الشرطة المصرية له وأجابني أن السبب هو أن مبارك مجرم وديكتاتور ولأن الحكومة بأكملها فاسدة. لم يذكر قط ارتكابه لأي شيء يجعل السلطات تهتم بشأنه.

لكن في النهاية لم يكن هذا يؤخَذ على محمل على الجد. ففي مصر، إذا شتمت مبارك في بيتك وسمعك جارك فقد يُقبَض عليكَ في اليوم التالي[١]. ولذلك فلا مفاجأةَ أن يكون جهاز الشرطة فاسدًا. كانت البلاد كلها فاسدة.

كان علي أن أكون أكثر خوفًا وارتعابًا منه لكني لم يكن لدي فكرة عن القدرات الحقيقية للقاعدة أو ما على شاكلتها. كان هناك الكثير من الذين يريدون أن يصبحوا مجاهدين في العالم الإسلامي وكانوا دائمًا يصيحون: "الموت لأمريكا"

---

[١] ربما ينطبق هذا على الفترة التي اتسمت بالقبضة الأمنية الأشد والأعنف في عصر مبارك، لكن لم تكن كل مدة حكمة في الحقيقة هكذا، ففي معظم فتر حكمه الاستبدادي المنفرد كان لا يهتم هو ونظامه بمن ينتقدونه أو يشتمونه، لكنه كان يتعامل هو ونظامه مع من يشكلون خطرًا بقدرتهم الكبيرة على التأثير على جموع كبيرة من الشعب أو من يمتلكون وثائق وأدلة ضد الحكومة ونظام الحكم، فهؤلاء كان يعاملهم بالاستمالة والترغيب، أو التخويف، أو السجن، أو البلطجة والعنف ضدهم، أو اللعب معهم اقتصاديًا وقانونيًا لو كانوا رجال أعمال من ملاك القنوات والجرائد.

ويتذمرون من أن الناس ليسوا متدينين بما فيه الكفاية. رأيتهم في شتى أنحاء مصر. إنك تعرفهم من تلك اللحية الشعثاء (بدون شارب) والسراويل المرتفعة بمقدار بوصة فوق كعوبهم، فهم يلبسون كما كان الرسول محمد يلبس. لم يكن أحد يأخذهم على محمل الجد. كانوا في العادة جاهلين ومنبوذين من بقية المجتمع. كان لديهم الكثير من الغضب لأنهم يشعرون أنهم صالحون ولأنهم مُحبَطون لأن الناس لا يُدرِكون (أو لا يعترفون) بعَظَمَتِهم. كان الناس يسخرون منهم. لكنهم كانوا يتعاملون معهم بحذرٍ أيضًا، لأنهم معروف عنهم سرعة الغضب. ولأكون صادقة كان هنالك الكثير من الاحترام أيضا لأولئك الرجال الآخذين دينهم على محمل الجد للغاية، لأن ذلك يجعل المسلمين الآخرين يشعرون بالخجل لأنهم ليسوا بنفس الدرجة من الإخلاص والتدين. هدفهم أن يضحوا بحياتهم لله في تفجير انتحاري أو شيء مشابه. يتركز أغلبهم في فلسطين كجزء من تنظيم حماس، ويتجمعون في أي مكان يوجد فيه مسلمون في حرب مع غيرهم، بحثًا عن فرصة للاستشهاد. لكنَّ أيًّا من ذلك لم يكن يهم كندا. لم تكن لديهم أي قوة هنا.

سألته لاحقًا عن سبب ذهابه إلى أفغانستان من الأصل. أخبرني أنه عندما كان طفلًا عاش مع أسرته في أفقر مناطق مصر. ثم عندما صار مراهقًا حصل والده (مهندس) على وظيفة جيدة، فانتقلوا للعيش في حي خاص بطبقة اجتماعية أعلى. الفروق والتمييز بين طبقات المجتمع في مصر صارخ. الفوارق ليست فقط جغرافية، بل وأيضًا على مستوى اللغة والسلوكيات واختيارات وأذواق الملابس. كان كل شيء مختلفًا بشدةٍ. وجد عصام صعوبة في التأقلم مع الشباب الأغنياء الذين سخروا منه بسبب أصوله الفقيرة. وبينما كان منبوذًا بين أقرانه وذاتَ مرة تواصل معه الجهاديون. وهذه قصة شائعة لكيفية تجنيد الأشخاص في الجماعات الإرهابية والعصابات. وعدوه بأنه مقدَّر له أمور أسمى من أقدار الذين يتنمرون به. وأن قدره أن يذهب إلى مواضع في الجنة لا يدخلها إلا الشهداء الذي ماتوا في سبيل الله. احتضنوه وأرضَوْهُ برسالتهم البسيطة ذات الغرض، وصار عضوًا في نادي أو مجموعة شباب ذوي علاقة متماسكة. صارت لديه كل الرفقة التي حُرِمَ منها في مدرسته النخبوية. صار له انتماء[١].

أصرت أمي على أنه لم يتورط قط في أنشطة ارهابية وأنه فقط "درب أطفالًا صغارًا على كيفية استخدام المسدسات ليدافعوا عن أنفسهم من الروس.".

سألتُه إن كان هذا صحيحًا وإذا ما كانت له أنشطة أكثر من ذلك، لكنه لم يقدم لي قط ردًّا صريحًا. وعلى نحو غريب كان يبدو منزعجًا وهو يجيبني. على نحو ما، عندما كانت الأسئلة تصدُر مني، كان يشعر أن إجاباته مخزِية[٢]. أتخيل أنه كان يتفاخر بصوتٍ عالٍ بأنشطته مع الآخرين، لكن معي كان يكتفي بقول عبارات عامة خجلة، مثل: "فعلت ما كان علي فعله لحماية اخوتي" و "القتل في سبيل الله ليس خطأً، بل هو أسمى شرف".

لكنني مع ذلك ساءلتُه ولو بلا حماسٍ وبمللٍ أو حاولت الاستماع إلى أي شيء قد يساعد جهاز الاستخبارات الأمنية الكندي. لكنْ كان تركيزي الرئيسي على الهروب منه بأقرب ما يمكن. كانت علاقته بأمي قد انتهت دون شك.

[١] جاء في سيرته الإرهابية هكذا: بعد خدمته في الجيش المصري، أخبر والده أنه يريد الدراسة في الولايات المتحدة، لكنه انتقل بدلاً من ذلك إلى المناطق القبلية الخاضعة للإدارة الفيدرالية على طول الحدود الباكستانية الأفغانية في سن الـ١٩

[٢] يُحتمَل أن ذلك ليس لخجله من أنشطته، بل لإخفائه حقيقة أمور حياته عنها وعن أمها قبل الزواج بها، أو لأنه ككل ذكوري متطرف يكره أن تسأله زوجته أو أي امرأة عن أي شيء، أو ربما لأنه شعر أن ياسمين ليست ولا يمكن أن تصير سلفية أو جهادية من نفس فكره وتوجهه- المترجم.

واضح أن غضبها الشديد منه رفع ضغط دمها بشدة لدرجة أنها نزفت من أنفها و فمها. لم تعد تريد أن تكون لها أي صلة به.

كان هذا خبراً جيدًا بالنسبة لي لأنها الآن قد تساعدني على الهرب منه. كان علي فقط أن أنتظر اللحظة المناسبة. أردت لأمي أن تستقر في شقتها الجديدة، حتى أنضم إليها أنا ورضيعتي. ترددت لأنني كنت خائفة. كنت أنتظر أن تصير الظروف أكثر مواتاةً لكي أصير أقلَّ خوفًا.

الهروب

بينما كنت أنتظر اللحظة المناسبة للهروب اكتشفت أني حامل مرة أخرى. كنت وحدي مع ابنتي ذات التسعة أشهر عندما استخدمت اختبار الحمل. كان قد أخبرني هو وأمي أني لا يمكن أن أحمل وأنا أُرْضِع. لكن من الواضح أنهما كانا على خطإٍ. أفكر الآن في كيف أن حياتي كانت لتكون جد مختلفة لو كان لدي وصول لشيء كالإنترنت آنذاك. صرخت ونحت وبكيت ولعنت لساعتين حتى تهتكت حنجرتي وجفت دموعي. كنت منهكةً. كنت متسعدة لأن أكون أمًا عزباء لطفلة واحدة. لكن كيف لي أن أنفق على اثنتين؟ شعرت أن قدري كان محتومًا. هذا الطفل هو نهايتي، وحياتي قد انتهت. كان علي أن أغادر. لماذا انتظرتُ؟ كنتُ أستطيعُ التحرر، لكن انتهى الأمر الآن. علي أن أخضع تمامًا. لم يعد لدي مهرب. هذه هي حياتي، كما كانت أيضًا حياة أمي، وحيوات عدد لا يُحصَى من النساء المسلمات الأخريات.

عشت في هذا الخوف والغضب والحزن لأسابيع. في غضون ذلك الوقت _بالتأكيد_ ضُرِبْتُ كما كنتُ أُضْرَبُ دائمًا بنفس الانتظام. في مرة كان يركلني في ظهري وأنا مستلقية في وضعية الجنين على الأرض. حاولت إخباره أنه سوف يؤذي الطفل الذي في أحشائي لكنه لم يُبالِ. استلقيت هناك فقط وأنا غير مكترثة بفعل الاكتئاب الشديد. استخدمت حيلتي القديمة بالانكماش على نفسي وإيقاف الشعور بالألم، وانتظرتُ أنْ يتعَبَ. كان ظهري ومؤخرتي مكدومين للغاية الى درجة أنني لم أستطع الجلوس مرتاحةً لأيام.

لكي أهدئ مخاوفي من أن يكون قد أذى الطفل، قمت باختبار حمل ثان، فوجدتُ أنه لا يزال إيجابيًّا، ولذلك ظننت أن كل شيء على ما يرام. لم أكن أعرف أن اختبار الحمل يكشف فقط عن وجود هرمون معيَّن، لكنه لا يحدد ما إذا كان الجنين حيًّا أم لا.. أثناء فحصي بالموجات فوق الصوتية توقف التِقَنِيَّةُ[١] في وسط الإجراء وغادَرَتْ الغرفةَ.

"ما الذي يحدث؟" سألتها عندما رَجَعَتْ.

"عليكِ أن تذهبي إلى طبيبتك حالًا."

"لم لا تخبرينني"

"لا أستطيع إخبارك، لكن طبيبتك تنتظرُكِ. أرجو أن تزوريها في هذه العيادة، الآن". ثم قدمت لي عنوانها على ورقة صغيرة، وأوصلتني إلى الباب.

عندما وصلت مع زوجي إلى العيادة أخبرتني طبيبتي أني تعرضت لإجهاض تلقائي وأن عليهم القيام بعملية توسيع وكحت الرحم في الحال. الاجهاض التلقائي يعني أن قلب الطفل لم يكن ينبض. كنت أحمل طفلاً ميتًا. لقد قتلتُ طفلي. لقد كنت كارهة للغاية للحمل إلى درجة أني قتلت طفلي. حزني وتوتري وغمي قتله. لقد علم أنه غير مرغوب فيه. أنا ارتكبتُ هذا. لم أفكر قط أن الضرب العنيف لزوجي لي قد يكونُ السببَ، بل حمَّلْتُ نفسي كامل اللومِ.

بالكاد كان لدي وقت للتعامل مع ظني بأني قتلت طفلي، فسرعان ما وضعوني في تخدير كامل وأخرجوا مني الطفل الذي قتلتُه بحسب ظني. وصار بإمكاني العودة الى البيت.

[١] الفنيةُ متخصصة الأشعة و/ أو الموجات فوق الصوتية.

رغم شدة وطأة وطأة الشعور بالذنب الذي شعرتُ به لسنين بعد ذلك، إلا أني أيقَنْتُ أني لن أضيع فرصتي في الهرب مرة أخرى. لن أنتظر اللحظة الأنسب للهرب. سأغادر الآن. لقد رأيت لمحةً عما ستؤول إليه حياتي إذا ترددتُ. ولذلك قررت ألَّا أرتكبَ نفسَ الخطإِ مجدَّدًا. سوف أقوم بقطيعة تامة وبداية جديدة لأنقذ طفلتي التي لا تزال على قيد الحياة. أخبرته أني أريد أن ذهب الى بيت أمي لقرابة أسبوع لكي أتعافى من العملية. كان مترددًا لكنه أخذني في النهاية إليها لأنه كان قلقًا من أن يُضطر إلى المساعدة في العناية بطفلته.

عندما أوصلني، علِمْتُ أني لن أعود أبدًا. لم يكن هناك أي شيء في البيت أحتاجه. كانت لدي ابنتي وكان ذلك كل ما أحتاجه.

في الصباح التالي، بعدما غادرت أمي إلى عملها، بحثت مباشرة في دليل الهاتف عن رقم شركة محاماة (شركة خدمة الإحالة إلى محامين وتوفيرهم) للحصول على معلومات عن محامٍ مستعدٍّ لمساعدتي في الحصول على الطلاق، وأمر قضائي بعدم التعرض[1] وحضانة كاملة في أقرب وقت ممكن. حالفني الحظ ووجدت محامية على مقربة مني. غطيت نفسي _كل بوصة من جلدي، حتى عينيَّ_ بكفني الأسود، ولبست القفازين السميكين والجوربين الآتيين من السعودية، وخرجت من المنزل. ركبت الحافلة مع أمي وهلعتُ للحظة من فكرة ألا أستطيع العودة قبل أن تعود أمي إلى البيت من تدريسها الدراساتِ الإسلاميةَ في المدرسة الإسلامية.

وجدت البناية بسهولة. كان قلبي يخفق بسرعة جدًّا وأنا أدخل عبر الأبواب الزجاجية ومنها إلى المصعد، حاملة طفلتي في مهدها ذي العجلات بطريقة خرقاء. كنت ممتنةً لأنها كانت نائمة. كان علي أن أسرع ولم يكن لدي الوقت لأي إلهاء آخر. عندما دخلت مكتب المحاماة وجدت امرأتين تتبادلان أطراف الحديث. التفتا إلي فجأة والصدمة في عينيهما. وقفت إحداهما في مكانها تحدق بي، بينما اقتربت مني الأخرى وحيتني كأنها كانت تنتظرني. كانت هي المحامية.

"تعالي واجلسي. هل أنت بخير؟ أتريدين كوبًا من الماء؟"

تعجبت لماذا أبدَتْ كل هذا الاهتمام والتعاطف اتجاهي. أنا متأكدة أني لم أكن أول امرأة تتصل بها للحصول على الحضانة الكاملة أو الطلاق أو الأمر الزجري بعدم التعرض. لم يخطر لي قط أن منظر شخص مغلف بكامله بالسواد داخلًا إلى مكتبها لم يكن شيئًا يحدث لديهم كل يوم!!

استأنفت المحامية كلامها معي بطريقة واثقة من نفسها وجازمة[2]. شعرت شعورًا فوريًّا بأنها من نوع الأشخاص العمليين الذين لا يضيعون وقتهم في الهراء ويبقون كل شيء تحت السيطرة. قامت بكل شيء مجانًا وبأسرع ما يسمح به القانون لها. كانت بارعة ورائعة للغاية وتمنيت لو كنت أنا هي. عاودت الاتصال بها بعد سنوات، وجلبتُ معي زوجي الجديد وابنتي الأخرى الحديثة لكي تراهما. أردتها أن تعلم أنها قد ساعدتني على جعل حياتي ممكنة. كانت لا تزال لها تلك الطريقة العملية التي لا تضيع الوقت. قالت: "لم أقم إلا بعملي". كان ذلك موقفها. لكن الأمر كان أكثر من ذلك بكثير. لقد أنقذت حياتي وجعلتها ممكنة. لقد علِمَتْ أني سيَصْعُبُ عليَّ أن أصل إليها مرة أخرى، ولذلك أعدت كل الوثائق في الحال وجعلتني أوقع على كل شيء قبل أن أغادر.

---

[1] أمر قضائي بعدم الاقتراب، أمر زجري.
[2] أو رسمية أو قيادية

"هل لديك هاتف أستطيع الاتصال بك عليه؟ هل تريدين أي شيء آخر؟"
"لا. لا يمكنك الاتصال بي. سوف أتصل بك أنا"
"حسنا. اتصلي بي غدًا. سوف يكون كل شيء على ما يرام. "

كنتُ ممتنة وسعيدة للغاية. وكنتُ خائفةً للغاية أيضًا.

كنت أتحدث معه عبر الهاتف كما كنت أفعل في العادة كأن شيئًا لم يحدث، بينما أنتظر أن يصله الإشعار القانوني. لم أرده أن يعرف أي شيء إلى أن ينتهي الأمر. عندما تأكدت أخيرًا من أن كل شيء قد قِيمَ به وتَمَّ وأنه سوف يُشْعَرُ قانونيًا بأوراق الطلاق في اليوم التالي، أخبَرْتُه.

كان مغدورًا متفاجئًا. لم يتوقع أن يحدث ذلك. وقد شعرت شعورًا سيئًا لاضطراري للغدر به بهذه الطريقة. لكنه انتقم مني باخباري بأن أمي كانت تضغط عليه كي يمارس معها الجنسَ طوالَ كلِّ فترةِ زواجنا تقريبًا. أخبرني أنه حاول إقناعها بأن تتركه وشأنه لكنها رفضت. وقال أن هذا سبب قراره بترك المنزل للابتعاد عنها. أخبرته أني لا أصدق أكاذيبه وأنها قصة مختلَقة مقززة جدًا يختلقها لكي ينتقمَ مني.. لكني على يقين تمامًا من أنه كان صادقًا في كل كلمة قالها عن ذلك.

ذكرني بكل المرات التي حاول فيها أن يجعلني أرى الحقيقةَ بنفسي. و رغم أني تذكرت الأحداث التي ذكرها، لكنني لم أكن لأتمكن قط آنذلك من ربط الأمور ببعضها البعض. لقد كان ذلك مستحيلًا عليَّ.

سألتني أمي ذات مرة: "متى يريدكِ عصام؟"
"ما الذي تقصدينه؟ لا أدري. متى أراد ذلك"
"لا. حاولي أن تفكري. هل هو وقت معيَّن في اليوم؟ هل يكون ذلك عندما تلبسين شيئًا معيَّنًا؟"
"لم تسألينني؟ لا أعرف! أعتقد كلما لبست روب الحمام أمامه. لذلك لا أحب الاستحمام و هو في البيت".
"أوه، حسنًا"

بعد بضعة أسابيع طلب مني دخول مكتبه.
"ما الذي يحدث؟ أنت لا تسمح لي في العادة بدخول المكتب"
"فقط انتظري"
"ما الذي أنتظره؟"
"سترين"
وعندئذ دخلت أمي غيرَ مرتديةٍ شيئًا إلا منشفةً، مبتلَّةً من الاستحمام. كانت تحمل في يدها صورة لها باللونين الأبيض والأسودً عندما كانت في سن العشرينيات.
سألَتْ عصامًا، و عيناها ترمقانني: "ما الذي تفعله هنا؟"
"رد عليها بسؤالِها: "ما الذي تفعلينه أنتِ هنا؟"

"ل... لقد أحضرت لك هذه الصورة".
لم يمد يده لأخذ الصورة، بل بدلًا من ذلك نظر لي وأومَأ لكي آخذها منها، فأخذتُها من يدِها.
قلت لها: "لا أفهم ما الذي يحدث هنا. لماذا تأتين هنا في منشفة حاملةً له صورةً؟ هذا غريب للغاية".
سألها عصام: "لم أحضرتِ لي هذه الصورةَ؟"
"إذا لا تريدها فسأحتفظ بها!". قالت له ذلك وانتزعت الصورة من يدي واستدارت وغادرَتْ بتحدٍّ.

نظرَ إليَّ عصام منتظرًا ردة فعلي.
"ماذا؟"
"ألا ترين؟"
قلت له: "نعم أرى. لكني لا أفهم شيئًا. عليَّ أن أذهب. لقد استيقظت الطفلة".
وأنا أتذكر الأحداث الآن، لا أستطيع تصديق كم كنت غبية وساذجة. لقد حاول مراتٍ عديدةً، وفي كل مرة كنت ساذجة غير شاكة بنفس الدرجة.

قبل أن يغلق السماعة قال لي أنه لا يهتم بما أفعله بقوانيني الكندية السخيفة لأنني شرعًا لا أزال زوجته. وعندما أموت إذا دخلت الجنة فسأكون لا أزال زوجته. وإذا لم أدخل الجنة فسيدخلها هو لأنه سيكون شهيدًا، وسوف يطلبني، وسوف أكون زوجتَهُ إلى الأبد. لا مهرَبَ هناك. سأظل زوجته لأن الرجل فقط يستطيع تطليق زوجته ولا يجوز العكس. في نظر الله سأظل متزوجةً منه، إلا إذا بدل قرر هو أن يُنْهِيَ الزواجَ.

من ثَمَّ طلبتُ منه تطليقي. يفعل الزوج المسلم ذلك ببساطة بأن ينطق جملةَ "أنتِ طالق" ثلاث مرات بالعربية[١]. وهكذا يكون الزواج قد انتهى. رفض قول ذلك وأعلمني أنه سيأتي ليأخذني.

بالتأكيد عندما أتى لم أُدْخِلْه. تجاهلتُ الهاتف، وأطفأتُ كلَّ الأنوار وتظاهرت بأنني لم أكن في البيت. وقف في مدخل البناية وأخذ يصرخ بالعربية:
"أعيدوا الي زوجتي! أريد زوجتي. انتظري حتى أمسك بك. سأمزق وجهك!. أتظنين أنكِ تستطيعين تركي؟ لن يريدك أي رجل عندما أنتهي منك. أنتِ لي، هل تسمعينني؟ إما أن تكوني لي أو تكوني ميتة".

جلست في الظلام أهدهد ابنتي بين ذراعَيَّ منتظرةً أن يغادر أو أن تأتي الشرطة، أيهما أسبق. كنت خائفة للغاية من أن يدخل أو يخرج أحد من سكان البناية ويسمح له بدخولها.

[١] أعتقد أنها تقصد هنا التطليق ثلاث مرات ليكون طلاقًا نهائيًّا لا رجوع فيه بحسب شريعة الإسلام وتقليده، طلاقًا بائنًا، وعمل الثلاث تطليقات في تطليقة واحدة ليس له أصل من تشريعات محمد، بل هي بدعة أنشأها عمر بن الخطاب، حيث حكم بأن من يقول لزوجته أنها طالق الثلاث تطليقات مرة واحدة، فإن ذلك يجعل الزوجة مطلقة طلاقًا بائنًا منه، كأنه طلقها وردها مرتين ثم طلقها تطليقة ثالثة، وهذا ليس من أصول تشريعات القرآن وأحاديث محمد في الأصل، ففيهما لا يجوز التطليق أكثر من مرة في التطليقة الواحدة بطبيعة الحال- المترجم.

إقامة جبرية

عشت في خوف مستمر طوال السنة التالية بينما أنتظر إنهاء إجراء الطلاق. فبما أنه رفَضَ توقيعَ أوراق الطلاق كان علي أن أنتظر سنة حتى يحدث الطلاق بتوقيعي فقط. وليس أن الطلاق القانوني سيمنحني حرية كبيرة على أي حال. لأنه أخبرني عدة مرات أني سأهرب منه مؤقتًا فقط، لأنه سيمزقني إربًا في الجنة[1].

وبما أني لم أُطَلَّقْ بحسب الشريعة الاسلامية، فإنِّي كنت لا أزال زوجته في نظر الله. يسمح للرجل في الجنة باختيار أيٍّ من زوجاته اللاتي كن متزوجاتٍ سوف تكون أو يَكُنَّ معه. و بما أنه يسمح للرجل ان تكون له أربعة زوجات (في وقت واحد) فمن المعقول تمامًا أنه سوف يكون لديه الكثير من الزوجات خلال عُمرِهِ[2]. قد لا يريد أن يكون معهنَّ كلهنَّ في الجنة ومن ثَمَّ يستطيع اختيار المفضلة أو المفضلات لديه منهن للعيش معه في الجنة. و في الجنة ليس ملزمًا بالاقتصار على أربعة، بل ويستطيع الحصول على كل ما يريد من زوجات.

وتلك الزوجات هنَّ _بالتأكيد_ بالاضافة إلى الحور أو حور العين، وهن إماءٌ جنسيات عذراوات. بياض بشرتهن يسمح لك برؤية عروقهن ولهن أثداء كبيرة مستديرة[3] و لا يتبولن أو يتغوطن أو حتى تأتيهن الدورة الشهرية. ليس لهن أي إرادة ويفعلن كل ما يطلب منهن. باختصارٍ فقد اخترع محمد الدمى الجنسية المقلِّدة للشكل الحقيقي[4] قبل اختراع اليابانيين لها.

ليس للنساء أي رأي في هذا. اذا اختار رجل زوجته في الجنة فسوف يكون مكانها معه الى الأبد. الإسلام _كما لعلكم قد أدركتم_ ديانة ذكورية تمييزية إلى أقصى حدٍّ. لا تذكر النساء فيه إلا في علاقتهن بالرجال. لأوضح الأمر بمثال، فان مدرب الكلاب لا يخاطب الكلب مباشرةً، بل يخاطب المدربُ مالكَه ويخبره كيف يتعامل مع الكلب. هذه هي العلاقة بين الله (المدرب) والنساء (الكلاب)[5].

---

[1] يبدو هذا من المنظور الإسلامي نفسه تصورًا غريبًا لرجل مجنون مختل عنيف، وعلى الأرجح نرجسي وسوسيوباتي في الحقيقة، لأن بحسب عقيدة الإسلام ونصوصه لا وجود لأي ألم أو عذاب أو تعذيب أو عنف في الجنة.

[2] الحقيقة في معظم المجتمعات الإسلامية الأكثر تمدنًا كمصر وسوريا وغيرهما صار تعدد الزوجات نادرًا بدرجة كبيرة، وهو ما يعكس تغيرًا في الثقافة والعقلية رغم حقيقة كونهم مسلمين تقليديين جدًّا في دول كهذه، ويُحكى أن جمال عبد الناصر لكونه دعم اتباع الشعب لنموذج الزوجة الواحدة فقط، ساءل المشير/ عبد الحكيم عامر عن سبب زواجه العرفي من الفنانة برلنتي عبد الحميد، وأنه لامه على ذلك، وشرح له الثاني أنه تزوجها لأنها امرأة لها ثقافة وعقل تغني عن صحبة كثير من الرجال. لكن يظل تعدد الزوجات أكثر شيوعًا في دول أكثر سلفيةً وظلاميةً أيضًا.

[3] {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣)} من سورة النبإ، وفي تفسير الطبري: ... عن ابن جُرَيج، قال: الكواعب: النواهد. .... قال ابن زيد، في قوله: {وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا} قال: الكواعب: التي قد نهدت وكَعَبَ ثديها، وقال: أترابا: مستويات، فلانة ترِبة فلانة، قال: الأتراب: اللِّدات. وباقي المذكور من صفات للحور العين هو مما ورد في كتب الحديث، مثل ما رواه البخاري: ٣٢٤٥- .....عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، وفي لفظ حديث رقم ٣٢٥٤ (لِكُلِّ امْرِئٍ زَوْجَتَانِ مِنَ الحُورِ العِينِ).

[4] realistic sex dolls دمى مطاطية يمكن ممارسة الجنس فيها، وتبدو فكرة منفرة مقززة، لكن هذه الدمى لها وجود فعلًا، وهي بطبيعة الحال مجرد مادة لا حياة فيها ولا شعور أو وعي.

[5] في معظم نصوص القرآن يُذكَر الرجال فقط، ونادرًا ما تُذكَر النساء إلا ككائنات تابعة خاضعة للرجل، ولولا لفت نظر بعض النساء لمحمد من جهة تجاهل القرآن والله المزعوم لمخاطبة النساء لما كان صاغ محمدٌنصًّا أو آيةً كهذه {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)}، وبحسب التفاسير كان هذا بسبب اقتراح إحدى زوجات محمد، ففي الطبري مثلًا: ...عن أم سلمة: أنها قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله تعالى: " فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عملَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى".

و لذلك لم يرد في القرآن ذكر لمن ستقضي المرأة آخرتها في الجنة معه. لم يُشَر إلى هذا حتى. لا أحد يسأل أَمَةً (عبدةً) جنسية في سوق للعبيد عما اذا كانت تريد أن تكون مع مالكها. سيكون هذا سخيفًا.

كان باستطاعتي أن آمَلَ وأستدِلَّ على أنه إذا كانت الجنة يُفترَض أنها كل شيء أريدُهُ، فلن يكون علي أن أكون معه، لكن هذا سيتناقض تمامًا مع وحي الأحاديث التي تقول أنه هو الذي له أن يختار ما إذا يريد أن يكون معي.

طاردتني هذه الفكرة وأرعبتني. شعرت أني سأرتاح قليلًا في الأرض كفترة إرجاء لحُكمٍ، لكني سأجد نفسي ينتهي بي الحال عالقةً معه إلى الأبد في الحياة الآخرة.

لم أغادر الشقة قط خوفًا من أن يكون كامنًا في ركنٍ ما. كان قد وصف لي بالتفصيل ما سيفعله بي إذا حاولت تركَهُ على الإطلاق، وقد صدَّقْتُ كلَّ كلمةٍ قالها. توعدني بأن يقطع وجهي بحيث أصبح قبيحة مشوهة للغاية إلى درجة ألا رجلَ سيريد النظرَ إليَّ، ناهيك عن لمسي. كان هذا شغله الشاغل الأهم. كنت ملكه بحسب اعتقاده، وكانت فكرة أن يلمس رجل آخر ملكيته تُغضِبُه.

عشت في هذه الحال من الرعب لوقت طويل، لكني استطعت الاطمئنانَ أخيرًا عندما تواصل معي بي جهاز الاستخبارات الأمنية الكندي ليطلبوا مني تأكيد هويته في صورة. كانت الصورة بالفعل صورته، وكان خلف القضبان في مصر. كانت عيناه ممتلئتين بغضب قاتل، وكانت تعابيره الجسدية مخيفةً. كان حرفيا كحيوان مصاب بالكَلَبِ (السُعارِ) محبوس في قفص. كنت أعرف أني أمسك قصاصةً من صحيفة بالأبيض والأسود لكن قلبي خفق برعب شديد كأنه يقف أمامي. علقت تلك الصورة في ذهني إلى الأبد، صورة الغضب والعدوانية الهائلين المحتجَزَيْنِ وراء القضبانِ. لم أتصور أنه يمكن حبس إعصار. لقد بدا وكأنه سيقتلع القضبان من الجدار في أي لحظة. لا أستطيع تصور كيف كان يجد مخرجًا لكل تلك الطاقة، مع عدم وجود طريقة للتخلص منها. ففي العادة كنت أنا ذلك المخرج[1].

والحديث رواه بأسانيد صحيحة الحاكم في مستدركه ٣١٧٤ وسعيد بن منصور في سننه ٥٢٥ وفي مسند أحمد بن حنبل ٢٦٥٧٥ و٢٦٦٠٣، وفي سنن الترمذي: ٣٢١١ - .... عن عكرمة عن أم عمارة الأنصارية: أنها أتت النبي صلى الله عليه و سلم فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت هذه الآية {إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات} الأحزاب: ٣٥ الآية. انظر موسوعة القبر المحفور للإسلام/ مجلد القرآن يؤلَّف بناءً على اقتراحات الصحابة. وكان محمد يهتم بالرجال أكثر لأنهم قوته العسكرية وجنوده، لكنه اهتم بوضع القليل من الآيات في حق النساء لأنهن لفتن نظره لكون المرأة جزءًا من المجتمع المسلم الناشئ ولأن محمدًا وجد أن تبرعات المسلمات التقيات التابعات له بالكثير من ذهبهن كان مهمًّا جدًّا لنفقات تسليحات وتموين جيشه في يثرب.

[1] ملخص لقصة حياة عصام مرزوق: حصل عصام مرزوق في سن الـ١٩ على المال من أبيه المهندس بدعوى أنه يريد السفر للدراسة في الولايات المتحدة، وبدلًا من ذلك سافر إلى باكستان. وفيما بين العامين ١٩٨٦ و١٩٨٧ عمل عصام مرزق كسائق لسيارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر في بيشاور بباكستان، حيث تقابل مع المصري الكندي حمد خضر، وعمل لاحقًا في منظمة العالم الإسلامي، وفيما بين السنوات ١٩٨٨ إلى ١٩٩٣ درب المجاهدبن في معسكر تدريب أفغاني على القتال. وهو متورط في تفجيرات سفارتي الولايات المتحدة في كل من دار السلام (تانزانيا) ونيروبي (كينيا)؛ في وقت واحد وذلك في ٧ أغسطس ١٩٩٨، وقضية اغتيال رفعت المحجوب في مصر، بتدريبه المجاهدين، واتهمه النظام المصري بالانتماء إلى تنظيم طلائع الفتح أو تنظيم الجهاد المصري، وهو ضمن المقبوض عليهم في قضية العائدين من ألبانيا.

في عام ١٩٩٣ حصل عصام على جوازي سفر سعوديين مزيفين وركب طائرة إلى الخرطوم، السودان يوم ٢٣ مايو، ومن هناك حصل على تذكرة طيران إلى دمشق، سوريا، ومنه إلى فانكوفر، بريتِش كولومبيا، كندا، وكان يرتدي كشيخ سعودي ويسمي نفسه فوزي الحربي. وقد قُبِض عليه في كندا عندما شك ضابط الهجرة جوردون بيترسون في قصته عن كونه كان عربيًا متطوعًا في أفغانستان وباكستان، وأمر بتفتيش حقائبه فعثر على هويتيه المزيفتين الأخريين، وفي أثناء اعتقاله بتهمة استعمال وثائق مزيفة والاحتيال وانتحال شخصية ودخول البلد على نحو غير قانوني، تقدم عصام مرزوق بطلب للجوء، مدعيًا أنه يخشى الاضطهاد الديني والسياسي في مصر. وذهب علي عبد السعود محمد الذي هو من طرف أسامة بن لادن (وعميل مزدوج للسي آي إيه في نفس الوقت ينتفع من الطرفين) في رحلة إلى السودان، حيث التقى أسامة بن لادن وجلب معه خالد أبو الدهب، لاحقًا اعترف أبو الدهب لمحقق مصري أنه سحب ٣ آلاف دولار من حساب بنكي في كاليفورنيا بأوامر أسامة بن لادن نفسه لدفع كفالة عصام مزروق. عمل عصام مرزوق كسائق شاحنة وحصل على إعانة اجتماعية، بقيمة حوالي ٢٠ ألف دولار كندي، وكان عملاء المخابرات الكندية يراقبونه. في عام ١٩٩٧ عثرت الإف بي آي على ذكرٍ لعنوانه في قائمة عناوين في بيت وديع الحاج في نيروبي (سكرتير لبناني لابن لادن في فترة وجوده في السودان، ثم

كانت أكبر مخاوفه الحبسَ في سجن مبارك. لقد أراد أن يموتَ شهيدًا، وليس أن تحبسه الدولة التي كان يحتقرها. كان هذا أكثر المآزق التي قد يجد فيها نفسَهُ مَذَلَّةً له. شعرتُ في الحقيقةِ بالأسف عليه، لكنني شعرت بالارتياح الشديد في نفس الوقت.

وكان من المرعب والغريب بنفس القدر فكرة أني أستطيع أخيرًا البدء في التفكير في بدء حياتي من جديد. في آخر زيارة لي أهدتني ضابطةٌ من جهاز الاستخبارات الأمنية الكندية حقيبة جلدية جميلة. قالت لي أن هذه الحقيبةَ لي لكي أستعملها عندما أنهي دراستي وأصير معلمة. لقد أظهرَتْ لي ذلك اللطف الجارف الذي سوف أصير متوقعةً له من الكفار، وهنأتني على حريتي.

أعتقد أنني كنت حرة لكني لم أشعر بالحرية. كنت لا أزال أتحرك بحذر. ماذا إذا استطاع الهروب؟ ماذا لو كان له صديق بالجوار سينتقم له؟ أين صديقه عَمرو؟

علمت آنذاكَ أن عمرًوا قد اختفى في نفس الوقت. هل كان في سجن مصري هو أيضًا؟ لا لم يكن كذلك. كانت هنالك تقارير تقول أنه قُتِلَ في الضربة الأمريكية لمعسكر التدريب الأفغاني الجهادي، في نفس الوقت الذي سُجِنَ فيه عصام تقريبًا. كنتَ قد افترضتُ أن عمرًوا كان يعمل مع الإف بي آي ولذلك لم تكترث المخابرات الكندية لأي شيء قلته عنه.

رغم أنه قد ذهب، وصديقه كذلك، لم يكن الأمر بسهولة ضغط زر. عشت لسنوات في علاقة عنيفة مُسيئة دمرت الشخصية التي كنتُها ذاتَ يومٍ. شعرتُ بشعورٍ غير عقلانيٍّ بالذنب لكونه في السجن. قلقتُ بصددِ ما يأكله، فقد كان انتقائيًّا ومدقِّقًا في طعامه. لكنني أفهم الآن أنني كنت أعاني بشدة من متلازمة ستوكهولم[1].

لاحقًا مؤسس لشبكة القاعدة في نيروبي ومخطط لعملية تفجير سفارة الولايات المتحدة في نيروبي). وفي عام ١٩٩٨أسس شركة للاستيراد والتصدير تدعى فور يو إنتربرايزر مع صديقه الأقرب له الكندي والمصري سابقًا عمرو حامد، وفي فبراير من نفس العام باع أصول تلك الشركة. وبعد خمس سنوات من مكوثه في كندا، ترك عصام مرزوق زوجته ياسمين وطفلته وذلك عام ١٩٩٨ وتوجه إلى تركيا، حيث يعتقَد أنه التقى بأحمد عجيزة، قبل أن يعود إلى شرقي أفغانستان، بعد مقتل صديقه عمرو محمد حامد في الهجوم الأمريكي على معسكر التدريب الأفغاني في ٢٠ أغسطس ١٩٩٨ انتقامًا منها لتفجير سفارتيها ي أفريقيا، ثم ذهب مرزق إلى دبي ومنها إلى أوربا، ثم عاد إلى دبي سريعًا ليتوجه إلى أذربيجان. وفي أغسطس ١٩٩٨ أبلغ عميل للموساد المخابرات الكندية عن مكالمة راقبها تحدد موعدًا بين إيهاب صقر (عضو في حركة طلائع الفتح ومخطط لتفجيرة سفارة مصر في إسلام آباد باكستان، وكان هدفًا عالي الأولية للسي آي إيه) وعصام مرزوق ومسؤول من مخابرات الجمهورية الإسلامية الإيرانية في باكو، أذربيجان، وانتهى الأمر بقبض الشرطة الأذربيجانية على الاثنين ومعهما أحمد سلامة مبروك (أبو الفرج المصري وله سيرة إرهابية حافلة بدوره كان عضوا أعلى في جبهة فتح الشام، وقيادي سابق في جبهة النصرة وتنظيم الجهاد المصري، امتدت أنشطته حتى الشيشان وأفغانستان، قبض عليه في روسيا ثم في أذربيجيان ثم في مصر)، ولم يحضر المسؤول الإيراني الاجتماع فلم يُقبَض عليه. وسُلِّمَ عصام مرزوق إلى مصر، واتُّهِم بالعمل كمدرب لمفجري السفارتين في كينيا وتنزانيا. وحوكم أمام محكمة عسكرية في ١٦ مارس ١٩٩٩ كجزء من محاكمة العائدين من ألبانيا، وكان محاميه منتصر الزيات. وحُكِمَ عليه بـ١٥ سنة مع الأشغال الشاقة بتهمة الانتماء إلى جماعة الجهاد الإسلامي أو تنظيم الجهاد في مصر (إحدى الجماعات الخطيرة التي ارتكبت الكثير من الأعمال الإرهابية في قائمة طويلة تضم اغتيال السادات والمحاولة الانقلابية الفاشلة المعروفة بعملية الكلية الفنية العسكرية ١٩٧٤ والهجوم على السفارة المصرية في باكستان ١٩ فبراير ١٩٩٥ الذي قُتِلَ فيه ١٧ شخصًا ومحاولة اغتيال وزير الداخلية حسن الألفي ١٩٩٣ ومحاولة اغتيال رئيس الوزراء عاطف صدقي ١٩٩٣ واغتيال الشاهد الأول في قضية محاولة اغتيال عطاف صدقي ١٩٩٣ وعدة محاولات لاغتيال محمد حسني مبارك والاشتراك مع منظمة القاعدة في تفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا في وقت متزامن (١٩٩٨م).

[1] متلازمة ستوكهولم Stockholm syndrome : ظاهرة نفسية تصيب الفرد عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوه أو مَن أساء إليه بشكل من الأشكال، أو يُظهر بعض علامات الولاء له مثل أن يتعاطف المُختَطَف مع المُختَطِف. وتسمى أيضاً برابطة الأَسْر أو الخطف. ويمكن اعتبار متلازمة ستوكهولم كنوع من الارتباط الذي له علاقة بالصدمة، ولا يتطلب بالضرورة وجود حالة خطف، فهو ترابط عاطفي قوي يتكون بين شخصين أحدهما يضايق ويعتدي ويهدد ويضرب ويخيف الآخر بشكل متقطع ومتناوب.إحدى الفرضيات التي تفسر هذا السلوك، تفترض أن هذا الارتباط هو استجابة الفرد للصدمة وتحوله لضحية. فالتضامن مع المعتدي هو إحدى الطرق للدفاع عن الذات. فالضحية حين تؤمن بنفس أفكار وقيم المعتدِي فإن هذه الأفكار والتصرفات لن تعتبرها الضحية تهديدًا أو تخويفا. وأُطلق على هذه الحالة اسم «متلازمة ستوكهولم» نسبة إلى حادثة حدثت في ستوكهولم في السويد حيث سطا مجموعة من اللصوص على بنك كريديتبانكين Kreditbanken هناك في عام ١٩٧٣، واتخذوا بعضاً من موظفي البنك رهائن لمدة ستة أيام، خلال تلك الفترة بدأ الرهائن يرتبطون عاطفياً مع الجناة، ودافعوا عنهم بعد إطلاق سراحهم .

وبالإضافة إلى كل هذه الصراعات الداخلية كان علي أن أتعامل مع مسؤولياتي كأم. في الأشهر اللاحقة القليلة عشت مع أمي، وتلقيت دروسًا عن بعد عن طريق الإنترنت من جامعة محلية، وحاولت إعادة بناء حياتي. اخترت الدروس عن بعد لأكون في المنزل مع ابنتي وأيضًا لأني كنت لا أزال أخاف الخروج إلى الشارع.

إن سُجِنَ المرأُ لفترة طويلة على نحو كافٍ، تصبح الحرية بالنسبة له شيئًا غريبًا وغيرَ معتادٍ وغير مريح. و رغم أنني لم أغادر البيت آنذاك إلا نادرًا، فعندما كنت أغادره كنت أرتدي النقابَ بَعْدُ. لم أمزق النقاب عن وجهي في لحظة واحدة معيَّنة لأتنفس الهواء المنعش. بل كانت عملية بطيئة مرهقة مليئة بالشك في الذات والحزن وكم هائل من الخوف. مرة أخرى كان علي محاولة التعافي من غدر القدر ومن الخوف الموهن من ضربة نفسية أخرى. مرةً أخرى كان علي السعي للوقوف على قدمَيَّ. لكني في تلك المرة كنتُ مكسورةً ومتعَبةً أكثرَ بكثيرٍ، وكنت أحمل عبء مسؤولية طفلة بين ذراعي.

انتقل أخي للعيش معنا أيضًا، بعدما فقد وظيفته لأنه كان دائمًا يتأخر عن موعد عمله. كان يعيش في شقة فوق مكان عمله في وسط المدينة. لم يكن عليه حرفيًّا إلا ركوب المصعد لينزل به، لكنه مع ذلك كان دائما يتأخر، ولذلك فصلوه من العمل. هرب من شقته في منتصف الليل كي يتهرب من دفع إيجار الشهر السابق. لكنه كان لديه الوقاحة ليحكم علي:

"ما الذي ستفعلينه بحياتك الآن؟"

"سوف أعيش".

"ما الذي يعنيه هذا؟ كيف ستعيشين؟"

ذات صباح كان يشارك ابنتي الصغيرة صحنًا من العنب، وكانت طفلة دارجةً تتعلم المشيَ آنذاك.

قال بانزعاج: "لم لا تتركني أضع العنب في فمها؟"

قلت له: "إنها تحب إطعام نفسها بنفسها، لقد علمتها كيف تمضغ العنب لكي لا تختنق به".

قال ساخرًا: "ما المشكلة؟ تستطيع وضع حبة كاملة في فمها!"

"إنه خطر الاختناق. لا تزال طفلة ومن الأفضل لها أن تمضغه"

"لا أفهم لم لا يمكنها رميها مباشرة في فمها"

"ما دخلك في الأمر؟" كنت قد بدأت أنزعج آنذاك.

"أريد إطعامها!"

"حسنًا، لكنها تريد إطعام نفسها. دعها وشأنَها فقط"

"عليها أن تتعلم أن تسمع الكلام. قلت لك ضعيه في فمك!"

كان يصرخ بينما أمسك بالطفلة وقلبها على ظهرها وحشر حفنةً من حبات عنب بعنف في فمها وهي تصرخ.

قفزت وألقيت نفسي بينه وبين ابنتي لأحُوُلَ دونها. وردًّا على ذلك لكمني وركلني. تجاهلته قدر ما أستطيع وركزت كل طاقتي وانتباهي على التأكد من أنها قد بصقت كل حبات العنب وأنها بخيرٍ. ما إن تأكدت أن فمها فارغ وأنها لم تختنق تنفست الصعداءَ مرهقَةً لكن مطمئنةً.

أخذ يلكم وجهي بيدٍ واحدٍ بينما يمسكني من شعري بيده الأخرى لكي يمنعَني من الهرب. تراجعت كما اعتدتُ الى داخلي وتوقفت عن الحركة. نادرًا ما لجأت إلى حيلة الانكماش على ذاتي في أثناء فترة زواجي من عصام. كان أذى عصام في العادة أكثر تركيزًا وأقصر. لكمة واحدة قوية في الوجه. لكن ضرب أخي كان أشبه بالعنف الذي تعرضت له في طفولتي، ضرب متواصل إلى أن أفرغ كلَّ شعورِه بالإحباط.

ألن أهرب يومًا من هذه الحياة؟ نشَأْتُ في بيت كنتُ أُعَنَّفُ فيه، وتزوجتُ رجلًا كانَ يعنِّفُني، وهرَبْتُ من ذلك إلى بيتٍ يعنفني فيه أخي. كيف سأُخْرِجُ نفسي من دائرة العنف هذه قبل أن تنزلق فيها ابنتي أيضًا؟ كنت ألمح ابنتي فيما بين اللكمات، لم تكن قد بلغت عمر السنتين حتى، وهي تشاهد أمها تُضْرَبُ بوحشية ولم يزعجها ذلك المنظر ولو قليلًا وهو يحدث أمامَها. كان الأمر معتادًا بالنسبة لها كما كان بالنسبة لي.

يجب أن يتوقف هذا. يجب أن أُنْهِي هذه الحلقة من العنف. لن أسمح بأن تصبح هي الطرف المتلقّي للعنف يومًا بسبب عجزي عن حمايتها من هذه الحياة.

يبدو أن جسمي الذي لم يعد يتجاوب أَخْرَجَ أخي من نوبة غضبه المنفعل الشيطاني. هزني فجأة ليتأكد أنني لا أزال حية.

"ظننت أنني قتلتك" قالها وهو يشهق بصوتٍ عالٍ.

"ابتعد عني"

"هل أنتِ بخير؟ لِما لم تكوني تتحركين؟"

كانت هذه آخر مرة يضربني فيها أخي. نادرًا ما رأيته بعد ذلك. لقد تحدث معي عن ذلك، لذلك فأنا أعلم أن هذا أخافَهُ، وأعلم أنه ظل يحمل ذلك الخوف بداخله لسنوات لاحقة. لكن ذلك الخوف لم يكن كافيًا لمنعه من ضرب النساء الأخريات اللاتي دخلن حياته بعد ذلك. لقد سُجِنَ بسبب إدانته بتهم العنف الزوجي مرات عديدة، وكان يعاني من الإدمان ومن مشاكل نفسية. حتى أنه تشرد أحيانًا بلا بيتٍ.

لقد عانى أخي أكثر مني وهو يكبر. كان يُضْرَبُ أكثرَ مني بلا شك وكانت أمي والوحش الذي "تزوجته" يشككان دائمًا في "رجولته". ففي نظرهما يجب أن يكون "الرجل الحقيقي" عدوانيًّا على نحوٍ زائدٍ وذا نمطٍ مكرَّرٍ مقولَبٍ مستبدًّا متسلِّطًا. لم يكن أخي يتوافق مع ذلك النمط. كان يفضل وثائقياتِ الطبيعة ولَعِبَ ألعاب الڤيديو ولم يكن يهتم بالرياضة أو المصارعة أو أي من هوايات وتسليات الذكور النمطيين المقولَبين. لقد تعرض إلى الكثير من التعنيف وظهرت عليه علامات الاضطراب النفسي في مراهقته. تجاهلت أمي الأدوية التي وصفها له طبيب العائلة وفضلت أن تدعو له ليذهب عنه كل اكتئابه واضطرابه الإلزامي الاستحواذي (وسواسه القهري) وغير ذلك. على نحوٍ واضحٍ فإنَّ صلواتِها[1] لم تحقق شيئًا واستمرت حالة أخي في الانحدار. خلال الفترة القصيرة التي مكثها معنا مؤخرًا، كان يغضب لأنه

[1] صلوتها: دعواتها، وتعمدتُ ترك اللفظة كما هي في مراجعتي للترجمة للتذكير بالمعنى الآخر لكلمة الصلاة. كقوله: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)} التوبة: ١٠٣. بمعنى: ادعُ لهم. و{ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٩٩)} التوبة: ٩٩، وعندما يقول المسيحيون العرب كذلك: سنصلي لك: أي سندعو لك.

"سمعنا" أنا وزوجي نتحدث عنه على نحو سيء خلف ظهره. اعترف بأنه لم يعد يميز بين الواقع والأوهام التي تلعب بعقله عندما يسمع أصواتًا. لكنه وجد صعوبةً في تصديقي عندما أخبرته أن ذلك لم يكن حقيقيًا. ساءت الأمور أكثر سريعًا عندما زاد غضبه أكثر وقطعنا علاقتنا في النهاية. كنت لأكون مثله لو لم أنتشل نفسي من ذلك العالم.

في اليوم الذي تعرضت فيه لآخر مرة للضرب من رجل، أخي، أدركتُ أني ليس لي أي أحد أعتمد عليه في هذا الكوكب حرفيًا. هل الله في الأعلى يرعاني؟ لم يبدُ ذلك منطقيًا جدًا لكنني لم أكن في وضعٍ يسمح لي بالبدء في التفكير في أني ليس لدي أي معونة ميتافيزيقية. كان ذلك شبح الأمل الوحيد الذي لدي. حسبَ علمي لم يكن هنالك أحد على هذا الكوكب لمساعدتي. كان علي أن أتدبَّر شؤون حياتي بنفسي.

صرتُ غير قادرة على مواصلة العيش مع أمي وأخي. أيقَنْتُ أنَّ عليَّ اخراج ابنتي من هذا البيت الذي ينضح غدرًا ووحشيةً وعنفًا. كانت هي كل ما لدي في هذه الحياة، وكنت أنا كل ما لديها فيها. كنت المسؤولة عنها لكني لم أستطع الاعتناء بها ورعايتها. إن دوري هو رعايتها. كان علي إخراجها من دائرة الخطر. تمنيت لو أني أخرجتها أسرع من ذلك. إن ذكرى صدمة هذا اليوم لا يمكن محوُها من ذهن ابنتي. إلى اليوم لا تزال ابنتي تخشى الاختناق وهي تأكل. يجب أن يكون إلى جانبها كوب ماء في كل وجبة طوال حياتها، لأنها تصاب بالهلع من خوفها من الاختناق. كل وجبة تأكلها في حياتها علي أن أشعر بالذنب والندم الممزّق لقلبي لأنني لم أبعدها عن الأذى بسرعة كافية. هي الآن تحمل هذه الندوب الداخلية إلى الأبد بسببي.

معتمدةً على نفسي (بدون مُعِيلٍ)

كانت أمي ضد فكرة انتقالي من المنزل بالتأكيد، لم تستطع فهم كيف لي حتى أن أقترح هذا. النساء المسلمات المحترمات لا يَعِشْنَ وحدَهُنَّ. لا ينتقلن من بيوت آبائهن إلا إلى بيوت أزواجهن. كانت فكرة أن تعيش ابنتها وحدها مزعجةً لها. لكني لم أستطع البقاء هناك.

علِمْتُ أن انتقالي سيغضبها لكني صرت أخيرًا مستعدةً لتحديها على نحو صريح من أجل ابنتي. لم تكن لدي القوة من قَبْلُ قط لمواجهتها لأجل نفسي، لكن عندما تعلق الأمر بحماية ابنتي وجدت القوة.

قدمت طلبًا من أجل المعونة الاجتماعية وتحدثت إلى مدير البناية التي تعيش فيها أمي. فكرت أن اعتراضها سيصبح أضعف إذا بقيت في نفس البناية. أخبرني أن لديه شقة ذات غرفة واحدة يمكنه تأجيرها لي، لكنها كانت في طابق مختلف. فكرت في الانتظار الى أن تشغر شقة في طابقها، لكني تراجعت عن ذلك. إن كوني في نفس البناية هي مسافة قريبة على نحوٍ كافٍ لكي تراقبَني. فأنا لم أعد عذراء! بعد الزواج تصير أسرة المرأة المسلمة أقل سيطرةً عليها. انتقلت بأسرع ما يمكن. علمتُ أن ذلك سيغضبها لكني فكرت أنها ستتوافق معي لكوني في نفس البناية.

لكن أمي اشتعل غضبها عندما غادرت شقتها. كان الأمر كأني أجَّرْتُ بيتًا في الجهة الأخرى من المدينة. سبَّتْني بكل مرادفات كلمة "عاهرة" استطاعت أن تقولها، ورغم كل ذلك انتقَلْتُ.

في يومي الأول في الشقة الجديدة ملأتُ استماراتِ التقدم إلى الجامعات القريبة. قُبِلْتُ في الجامعة التي فضَّلْتُها على غيرها. واشتعل غضب أمي لأني تقدمت لدخول الجامعة. أخذت تحاول جعلي أقابل طالبي خطوبة آخرين، أزواج آخرين محتمَلين، لكني ما كنتُ لِأَقَعَ في نفس الحفرة مرة ثانية.

في الأشهر القليلة التالية وأنا أنتظر بدء الدروس بدأت أتعافى ببطء. أذكر كيف نزعت النقاب لأول مرة وشعرت أن وجهي عارٍ. شعرت بالضعف والخجل كما لو كنتُ أسيرُ عاريةَ الصدر. توهمت أن الجميع يحدقون بوجهي المكشوف لكن لم يهتم أحد. كانت ابنتي الصغيرة الوحيدة التي استغربت كشف وجهي. لقد حاوَلَتْ أن تنزل الحجابَ على وجهي لتغطيَه مجددًا. أخذتُ بالتدريج ألبس تنوراتٍ[1] طويلة بدلًا من العباءة. وأخذت ببطءٍ أعيد اكتشاف ما كنت عليه قبل الزواج.

ولأنني كنت لا أزال أشعر بالحاجة إلى إرضاء أمي بحصولي على شقة في نفس البناية، فقد كان الإيجار أعلى بكثير مما كنت أقدر عليه. ولأنها ما كانت لتسمح لي بالانتقال الى شقة أستطيع تحمل نفقة إيجارها، كنت أحيانًا أطلب منها المال من أجل الإيجار أو الطعام.

[1] تنورة: جيبة، سكيرت

كانت ترد: "لا، ألستِ سيدةً مستقلة؟ اذا أردت فعل كل شيء وحدك فلك ذلك. افعلي كل شيء وحدك!".

"هل أستطيع فقط استعارة بعض المال لشراء بعض البقالة إذَنْ؟ ليس لدي حتى الحليب. لدي مال كافٍ فقط لدفع الإيجار فقط"

"لستِ في حاجة إلى دفع إيجار. تستطيعين العودة للعيش معي. لن أضيع نقودي"

"حسنا. لكن هل أستطيع استعارة بعض المال مؤقتًا؟"

"قلت لا!"

"هل ستتركين حفيدتك تموت جوعًا؟".

أدخلتُ يدي في حقيبتها وأخذت بطاقة ائتمانها.

"إذا حاولتِ استعمالها فسوف أتصل بالبنك وأعلمهم أنها قد سُرِقَتْ".

"لا، لن تفعلي. أنت تعلمين أني أحتاجُ شراءَ الطعام لها. إنها حفيدتك".

"لا يهمني. أنت اتخذت هذه القرارات الغبية وعليكِ أن تتعايشي معها. وإذا حاولت أخذ سيارتي فسوف أتصل بالشرطة وأخبرهم أنها سُرِقَتْ أيضا".

تحديتُ تهديدَها ولم أصدقه. أخذت ابنتي ومفاتيح سيارتها وبطاقة ائتمانها وذهبت لشراء الطعام على أي حال. وأنا أتسوق أعطيتُ لأمي فرصةً أخيرةً في عقلي. فإذا اتصلت بالبنك أو الشرطة فستكون القشة التي قسمت ظهر البعير. فحتى بالنسبة لأمي بدا هذا كتجاوز للحد بكثيرٍ.

وشعرت بالغرابة أني شككتُ حتى أنها سوف تفعل ذلك. وعندما ذهبتُ لدفع ثمن البقالة، أبلغني الكاشير أن البطاقة مسروقة. كان يعرفني لأنني كثيرًا ما كنت أتردد على محل البقالة ذلك للتبضع.

"يُفترَض أن عليَّ الاتصال بالأمن". قال لي بخجل وعيناه تنتقلان بيني وبين ابنتي. "لكن لا بأس. لن أتصل بهم. لكني لا أستطيع تمرير هذه المشتريات".

"لا بأس. شكرًا". شعرتُ كأن أحدهم لكمني في حنجرتي. مرة أخرى كان من يُفترَض أنه كافر نجس[1] قذر أرحم بي عائلتي.

حينما عدت إلى السيارة كان كل ما استطعت التفكير فيه أنها على الأرجح قد اتصلت بالشرطة وأبلغت عن سرقة سيارتها أيضًا. والآن قد يُقبَض عليَّ مع ابنتي. كان علي العودة الى البيت في أقرب وقت ممكن.

كان ذلك هو اليوم الذي اكتشفت فيه أنه لا يوجد مَن هو أحقر من أمي حرفيًّا. كانت لدي علبة حليب مجفف مفتوحة كنت قد أخذتها من مطبخ المسجد. أخبرت نفسي أنها لم تكن سرقة بل كانت هناك لكي يستعملها الناس. فما

---

[1] كقوله: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} التوبة: ٢٨ وبحسب التفاسير والفقه فإنها بحسب اعتقاد كثير من فقهاء المسلمين نجاسة معنوية لا حقيقية مادية، يعني هي شتيمة فقط، ككثير من الشتائم التي يزخر بها القرآن ضد غير المسلمين المخالفين. لكن هناك رأي في التفاسير كالطبري يقول كذلك: حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا ابن فضيل، عن أشعث، عن الحسن: { إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ } قال: لا تصافحوهم، فمن صافحهم فليتوضأ. ومعظم الفقه الإسلامي السني لا يقول بهذا الرأي الحرفي، وكلها عنصرية في النهاية.

الذي سيحدث إذا استعملتها في البيت بدلًا من المسجد. خلطتها بالماء وغذَّيْتُ بها ابنتي. كان ذلك عشاءها. كان عمرها آنذاك سنتين وقارورة واحدة من الحليب لم تكن وجبة كافية. تمنيت لو أني لم أتوقف عن إرضاعها. كان ذلك طعامًا مجانيًّا على الأقل. لكني اضطررت إلى التوقف عندما اكتشفت أني حامل بأخيها. استلقيت وبكيت حتى نمت.

الفيل

ما إن دخلت الجامعة حتى أمسَتْ الأمور أصعبَ بكثيرٍ. احتجتُ المال لشراء الكتب وتموين الطعام والمواصلات وحضانة ابنتي. لم يعد بإمكاني فعل هذا. اضطررت إلى العودة للعيش مع أمي وأخي. انتقلنا نحن الأربعة الى منزل من طابقين في مدينة مجاورة. كان علي أن أستقل أربعة حافلات ذهابًا الى الجامعة وأربعة باصات للعودة إلى المنزل.

كنت أعتبرها ليلةَ نومٍ هانئةٍ إذا نمتُ أربع ساعات. كانت لدي خمسة كورسات في الفصل الدراسي الواحد، وأردتُ أن أنهي دراستي الجامعيةَ في أقرب وقت للحصول على شهادتي كمعلمة. فبعد ذلك سأستطيع أن أصبح معلمة وأن أبدأ في الحصول على بعض النقود أخيرًا. كانت القروض الطلابية تتكدس علي، ومن ثَمَّ سيذهب معظم مالي المستقبلي في سداد كل تلك القروض في النهاية. لكني لم أستطع شغل تفكيري بذلك آنذاك. كان علي فقط أن أعيش كل يومٍ على حدةٍ.

كان كل شيء في حياتي صعبًا لكنْ قابلًا للتحمل إلا تذمر وضغط أمي المتواصل. لقد كانت تثير جنوني. كنت أحاول أن أقلل من شجارنا، لكن أحيانًا كان علي أن أتخذ رد فعل.

هتفت أمي: "اشتريتُ لكِ تيشيرتًا جديدًا".

ركضت ابنتي لترى ما في الحقيبة. أخرجت أمي تيشيرتًا أخضر داكنًا. تملصت ابنتي حينما حاولت أمي أن تلبسها إياه.
"ما الذي دهاكِ؟"
تدخلتُ قائلةً: "أنا أتركها تختار ملابسها.... إنها لا تحب اللون الأخضر. هي تفضل الوردي أو البنفسجي".
قالت أمي لابنتي: "هل أنت غبية؟ الأخضر لون جميل".
صرخت فيها: "هي ليست غبية. الأشخاص يمكن أن يحبوا أشياء مختلفة. هذا لا يجعلهم أغبياء. هي لا تريده. توقفي عن محاولة إجبارها على أن تحب ما تحبين".

تحول الأمر إلى شجار كبير وصرت أنا البنت العاقة التي لا تتقبل الهدية بامتنان. أما حقيقة أنها كانت تحاول إلباس طفلتي بالإكراه شيئًا لم تشأ هي ارتداءه فليست حقيقةً ذات صلة بالموضوع في نظرهما. قد أكون اتخذت رد فعل شديد، لكني أعرف شعور أن يجبركِ أحد على ارتداء شيءٍ لا تريدين ارتداءَه، ولم أكن لأسمح أن تَمُرَّ ابنتي بهذا الشعور.

كما أن نعتها لابنتي بالغبية لأنها لا تحب نفس الأشياء التي تحبها هي أثار في غضبًا جهنميًا. كان ذلك اختصارًا لكامل حياتي التي عشتها. السعي للتحكم فيَّ بطريقة شديدة لدرجة أني كنت قد نسيتُ أن لي آرائي الخاصة بي! لن أسمح أن تمر بنتي بنفس التجربة. سوف تختار ملابسها وستكون لها آراؤها الخاصة بها. وإذا أرادت أن تلبس الوردي أو البنفسجي فقط، فهذا ما سوف تلبسه.

ولأني صرت أدرس في الجامعة فقد تنامت ثقتي في نفسي. لقد شجَّعَني هذا على تحدي أمي. كنت أكبَرَ ببضع سنوات من أغلب زملائي وكانت لدي خبرة في الحياة أكثر منهم. ساعدني هذا كثيرًا على وجه الخصوص في منهج علم نفس الطفل الذي كنت أدرسه. فبما أني كنتُ الوحيدة بالإضافة إلى الأستاذ(ة) التي كانت لديها طفلة، فغالبًا ما كنتُ أنا الطالبة الوحيدة في القاعة القادرة على فهم ما تتحدث (أو يتحدث) عنه الأستاذ(ة). كانت نقاشاتنا في القاعة في أغلب الأحيان هي محاولاتي أنا وأستاذتي شرح الأمور لزملائي الأصغر مني سنًّا. صار صوتي أكثر أهمية، وصارت لآرائي وتجاربي قيمة. لم أعد تلك التي كانو يعتبرونها غبية مغفلة عديمة الفائدة في البيت.

بل بدأت في الحقيقة حتى في اكتشاف الأخطاء في أحكام أمي. لكن هل سأكون وقحة للغاية لو فكرت أني يمكن أن أكون أذكى منها؟ بدا هذا مستحيلًا، لكني قررت أن أختبر شكي.

كانت أمي قد أرادت شراء سيارة ڤولڤو. ولسبب ما كانت مصممة على هذه الفكرة. كانت أولى خطواتها التواصل مع بائعي سيارات مستعملة مسلمين لأن _بالتأكيد_ المسلمين فقط يمكن الثقة بهم. كانت هذه الفكرة بالنسبة لي مضحكة وسخيفة.

"الإله الذي يعبده المرأ ليس مؤشرًا على مدى تمكنه في الميكانيكا"

"إذا كان مسلمًا فسوف يكون أمينًا"

"هذا ليس بالضرورة صحيحًا".

"بلى. إنه صحيح. المسلم الحقيقي لا يغش مسلمًا آخر[1]. قد يغش الكفار ربما لكنه لن يغش مسلمًا آخر أبدًا "

"الغشاش غشاش. أعتقد أنك ترتكبين خطأً".

"لا أهتم لرأيك".

انزعجتُ لتضييع أمي مالَها على هذه السيارة الرثة من بائع مثير للريبة، بينما كانت هنالك سيارة ڤولڤو جيدة معروضة للبيع لدى وكيل ذي سمعة طيبة. لقد كانت أغلى بـ ٥٠٠ دولار فقط، لكن على الأقل كانت مضمونة من جهة كونها ستعمَل!

في العادة عندما أتعارك مع أمي حول أمر كنت أرضخ لتقديرها "الحكيم" لأني كنت لا أثق في تقديري ورأيي. لكني كنت متأكدة أني على حق هذه المرة. لم يحدث هذا من قَبلُ قط. كان هذا شعورًا غريبًا. في الجامعة بدأت أنمي مهارات التفكير النقدي لدي، وصرت أستعمل عقلي بطريقة لم أعهدها من قبل. كان هذا جديدًا ومثيرًا وأردت المزيد. أحببت وضع الفرضيات واختبار مختلف الزوايا ووجهات النظر للوصول إلى الاستنتاج في النهاية. كان هذا منشِّطًا للغاية. كنت معتادة للغاية على تلقِّي ما يجب علي فعله وكيفية فعله إلى درجة أن هذه المهارة الجديدة لاكتشاف

---

[1] مثلًا في صحيح مسلم: [١٠١] ....عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال من حمل علينا السلاح فليس منا ومن غشنا فليس منا
[١٠٢]....عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال ما هذا يا صاحب الطعام قال أصابته السماء يا رسول الله قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غش فليس مني
والمقصود هنا التوصية والتعاليم وليس كل مسلم يتصرف بأمانة. وهذه الصيغة منتقَدة إنسانيًّا، فهي كمعظم وصايا القرآن والأحاديث تقتصر على التوصية بالمسلم، وكان الأجدر التوصية بذلك في التعامل مع الكل مسلمًا وغيرَ مسلمٍ، خاصةً أن كثيرًا من نصوص القرآن والأحاديث تنص على التعامل بالأمانة في التعامل المدني مع غير المسلمين كذلك، صحيح أن محمدًا والمسلمين كانوا يمكن أن يتعاملوا بأمانة مدنية جدًّا مع غير مسلمين كاليهود والوثنيين، وفي اليوم التالي يهجمون عليهم عسكريًّا لنهبهم وقتل رجالهم وسبي واستعباد نسائهم وأطفالهم، لكن هذه مسألة أخرى**!!**

كيفية تقرير ما أريد فعله كانت كالإدمان ونشواهُ لي. قررت في النهاية أن أسبر إمكانية أن أكون على حق وأمي على خطإٍ.

لقد كان مالها وكانت حرة في شراء ما تريد به. توقفت عن نصحها. في الحقيقة شجعتها على المضي قدمًا والشراء من البائع المسلم المريب.

تنحيت جانبًا وانتظرت لأرى ما إذا كانت هي على صواب أم أنا. إذا كانت على حق فسأظل دائمًا رهن رأيها. وإذا كنتُ أنا على حق فسأعلم أنّي أستطيع في الحقيقة أن أثق في قدرتي على التقدير والحكم، و _في الحقيقة_ فإنه قد يكون أصح من تقديرها.

تعطلت السيارة عن العمل بعد يومين فقط على الطريق، ورفض البائع أن يرجع إليها مالها. عرض عليها فقط أن "يصلحها". ثم تعطلت عن العمل ثانية بعد بضعة أيام. وصارت السيارة خطيرة جدًّا لأنها كانت تتوقف في وسط الزحام، فاضطرت في النهاية للاستسلام للأمر الواقع.

كانت هذه لحظة فارقة بالنسبة لي. لقد اختبرت فرضيتي وتبين أنها صحيحة. فتح هذا عالمًا جديدًا كاملًا أمام عقلي. كان هذا دليلًا قاطعًا غيرَ قابلٍ للجدل على أنني أستطيع أن أثق في أحكامي وحدسي وقدرتي على اتخاذ قرارات صحيحة.

في نهاية الفصل الدراسي الثاني من سنتي الجامعية الأولى، بينما كنت أجري امتحانًا في مادة علم النفس وجدتُ نفسي فجأةً غيرَ قادرة على كتابة جملة كاملة. كانت الإجابات تعوم في ذهني لكنني لم أعد قادرة على كتابتها على ورقة الإجابة بأي طريقة. لم أشعر من قبل قط بمثل هذا الانقطاع بين عقلي وجسدي. كنت أستنزف نفسي منذ وقت طويل، ولم أعد أنام حتى الأربع ساعات ليلًا، وكنت محرومةً من النوم بشدة. وبالإضافة إلى ذلك كنتُ قد مَرِضْتُ أيضًا وكان جسمي يقاوم الفَيْرَس. لكني كنت أمًّا عزباءَ تذهب إلى الجامعة في حضور دوام كامل، وكنتُ بالإضافة إلى ذلك أعطي دروسًا خصوصية في الليل، فلم يكن لدي الوقت للمرض. ولذلك تناولت كميات كبيرة خطيرة من مضادات الهستامين ومسكنات الألم لأبعد الأعراض. لكنها ظلت مستمرة فأتْبَعْتُ الحبوبَ ببعض النيوسيتران، وهو دواء مهدئ للسعال ومزيل للاحتقان. لم يكن لدي الوقت (ولا المال للأكل) في الجامعة و كنت على العموم دائمًا إما مستعجلة للغاية أو مرهقة للغاية بحيث لا أستطيع إعداد طعام لنفسي لأخذه معي قبل مغادرة البيت. باختصار، لا طعام، بالإضافة إلى الكثير من الحبوب ومعها نيوسيتران، ومع ضغط نفسي ساحق، لا يؤدي الى نتيجة جيدة.

كنت محبطة للغاية وخائفة لأني سأفعل شيئًا لم أفعله به منذ وقت طويل. منذ آخر مرة مع السيد/ فابرو عندما أتت الأمور بنتائج عكسية. طلبت المساعدة.

سرت بحذر إلى الأستاذة، قابضةً على ورقة الامتحان بيديَّ المتعرقتين. ركزت بشدة لكي أصيغ العبارات وأحاول شرح حالتي. توقعت منها أن تأمرني بأن أتجلَّد، وأجلس، وأجيب عن الامتحان أو أسلم ورقة الإجابة كما هي. توقعت أن تنهرني لاعتقادي أني قد أجد بعض التعاطف أو المعاملة التمييزية منها.

قلت لها: "نيوسيتران". لابد أني كنت في حالة سيئة جدًّا لأن أول رد فعل لها كان قولها: "أوه" ثم اتسعت عيناها وفتحت ذراعيها. أذكر أنها كتبت "نيوسيتران" في أعلى ورقة امتحاني. استطعت أن أعلَمَ من خلال نظرة عينيها أني أستطيع أن أتوقف عن التوتر. سوف تتركني أذهب. أعطتني بطاقتها وطلبت مني أن أتصل بها لاحقًا لننظر في كيفية تعويض الامتحان. لم أشعر بمثل هذا الارتياح التام من قَبل. انتقلت من اليأس إلى الشعور بالخلاص في أقل من دقيقة وانهمرت دموعي. لم يكن نشيجًا، بل فقط دموع تنهمر على وجهي. استطعتُ أن أشكرها رغم أن حنجرتي كانت متورمة وتؤلمني. خرجت من القاعة، وأخذت أول حافلة إلى البيت.

تفاجأتُ من لطفها عندما قابلتها لاحقًا في مكتبها. كان يُفترض أن يكرهني الكفار. لقد علموني أنهم أعدائي وأن علي ألا لا اثق بهم. لكنها أظهرت تعاطفًا اتجاهي لا يزال يجعلني أذرف الدموع كلما تذكرته إلى اليوم رغم مرور كل تلك السنوات. لم تعطف علي أمي قط مثلما فعلت هي.

علَّقَتْ بأني أبدو متحملةً فوق طاقتي، وربما مكتئبة، لكني بالتأكيد أعاني الإجهادَ والتوترَ. أخبرتها أني أمر بفترة صعبة وأني أكافح بجهدٍ هائلٍ. وأخبرتها أني أصر على أصر أسناني في الليل بشدة إلى درجة أني أستيقظ في الصباح مع ألم يستمر طوال اليوم. فنصحتني بأن أزور طبيبًا نفسيًّا كي أخفف من حدة الضغط. وبما أنها كانت تدرِّس لي علم النفس سألتها إن أمكن أن تكون معالجتي. شرحت لي أن هذا ليس دورَها، وحاوَلَتْ اقتراحَ بدائلِ عليَّ، لكني هَلِعْتُ. لقد وجدتُ شخصًا واحدًا يعاملني بلطف ويريد مساعدتي، فما احتمالية إيجاد شخص آخر؟ أخبرتها أني أريد فقط أن أتحدث إليها لأني أثق بها ولا أستطيع أن أثق بأي شخص آخر.

لا أستطيع تخيل كم بدوت يائسة. بتذكر الماضي، فقد كنتُ أعاني على نحو واضحٍ من الاكتئاب والقلق و العديد من الأشياء الأخرى. وأعتقد أنها عرفت أنها إن لم تقبل بمساعدتي فلن أسعى للحصول على المساعدة من أي مكان آخر. وقد كانت محقة، فما كنت سأفعل.

كنتُ ممتنةً للغاية لأنها قبلت عمل جلسات لي وأصرَرْتُ على أن أدفع لها نفس الأجرة بالساعة الخاصة بالمعالجين النفسيين، أي حوالي ١٠٠ دولار في الساعة. قَبِلَتْ بذلك في النهاية، لكنها أخبرتني أنها لن تستطيع أن تراني إلا لبضع جلساتٍ. أعطيتها الشيكَ بعد جلستنا الثالثة وأنا أعلم أني لا أستطيع تحمل تكلفة جلسة أخرى معها. كنت قلقة وحريصة جدًّا على أن يكون لدي مالٌ كافٍ في حسابي لتغطية مبلغ الشيك. لكن بعد بضعة أسابيع اكتشفت أنها لم يكن لها نية في أن تصرِفَهُ. لقد قابلْت ملاكي الكافرة الثالثة، أولًا المحامية، ثم كاشير السوبرماركت، والآن معلمتي الخاصة بمادة علم النفس.

أردت أن أعود لأتحدث إليها أكثر، لكني لم أستطع السماح لنفسي باستغلال طيبتها. لأني علِمْتُ أنها ستظل ترفض صرف الشيكات، لذلك كان علي أن أتوقف عن زيارتها. قررت بدلًا من ذلك أن أثمن كرمها بتطبيق دروس الحياة التي علمتني إياها. إنها لا تدري إلى هذا اليوم كم غيَّرَتْ حياتي.

حدثتها عن رغبتي في التخلص من قبضة أمي الحديدية (سيطرتها الشديدة). بعد أن شرحت لها كل الأسباب التي لأجلها أريد ذلك والأسباب التي لأجلها ينبغي عليَّ ذلك، أنهيت كلامي بعبارة "لكنْ لا أستطيع".

سألتني: "لِمَ لا ؟"
"لأني لا أستطيع. لا تستطيع النساء العيش بمفردهن. عليك أن تعيشي إما مع عائلتك أو مع زوجك. لا يجوز للنساء أبدًا أن يعشن وحدهن. لا أستطيع جلب هذا العار على أمي. لا أستطيع".
"تخيلي أنك لا تستطيعين قول لا أستطيع"

من كان يعلم مدى التأثير العميق الذي سيكون لهذه الكلمات على حياتي؟ لعلها كانت تعرف، لكني لستُ متأكدةً. يا لها من نقطة تحول. لابد أن هذا كان نفس شعور كل شخص عندما اكتشفوا أن الأرض ليست مسطحةً.

لم يخطر على بالي يومًا أن هنالك احتمالية وجود شيء يتجاوز عبارة "لا أستطيع". وها أنا الآن أحدق في أفق لا نهاية له. في إحدى محاضرات نفس منهج مادة علم النفس، تعلمنا عن الفيلة حديثة الولادة التي تُقيَّد ببلاطات خرسانية ثقيلة منذ مولدها.. تكافح تلك الدَغافِلُ (صغارُ الأفيالِ) بكل قوتها للتحرر، لكنها لا تستطيع. تنزف أرجلها وهي تصرخ وتصارع، لكن الخرسانة لا تتزحزح. في النهاية تفهم الدغافل أنها لا تستطيع التحررَ فتستسلم وتقبَل مصيرَها. ولأن الفيلة لا تنسى أبدًا، فإنك ترى الفيلة الكبيرة التي تستطيع تحريك شاحنة بنابيها لو أرادت ذلك، مربوطة بحبلٍ بسيطٍ من أرجلها إلى وتدٍ صغيرٍ في الأرض. لقد قبلت تلك الفيلة قدرها منذ زمن بعيد، وتوقفت عن المحاولة لأنها تعتقد أنها لا تقدر. لو علمت تلك الفيلة فقط أنها لو حركت أقدامها أقل حركة صغيرة فستستطيع التحرر.
كنتُ أنا إحدى تلك الفيلة.

تلك كانت أول مرة أُدْرِك فيها أني العائق الوحيد أمام نفسي. علي أن أتجاوز الخوف الذي زُرِعَ في عقلي. لقد أراد الجميع أن أؤمن أنني لا أستطيع أن أنجح وحدي، وصدقتهم. لكن ما أجمل ذلك الاكتشاف المفاجئ الجميل أني أستطيع! وأنهم لا يعرفون أني أعرف! يظنون أني لا أزال أصدق ذلك! فيذهبون ويتركوني موثوقة إلى ذلك الوتد الصغير الصغيرة في الأرض ظانين أني لن أقتلعه أبدًا!. ينامون ليلًا واثقين أنهم أقنعوني بأني ضعيفة بلا حيلة. لكني لي اليد العليا. أنا قوية!

تركت هذه المعرفة تستقر وتتغلغل وتكبر في داخلي بينما أعيش حياتي اليومية كالمعتاد. كنت خائفة جدًا لكنني واصلت السير إلى الأمام رغم الخوف. بالتأكيد لن يحرقني الله في الجحيم إلى الأبد لمجرد أني أحاول إنقاذ ابنتي من نفس الحياة التي عشتها؟ عليه أن يتفهم أني أردت إخراجها من ذلك الوسط المسموم، بعيدًا عن أمي وأخي. أشرح كل ذلك لله وسيتفهم. أدركت أنني سأجد فرصةً في النهاية، لكن علي فقط أن أنتظرها. لم أكن قادرةً على إثارة الريبة بأي تحركات مفاجئة.

لم يطل الأمر بعد اكتشافي لقدرات ذاتي، حتى بدأت أمي تستعد لزيارة أختي في فلورِدا. كانت تلك فرصتي!

كان لإحدى صديقاتي جار يبني شقة غير قانونية في القبو. وقد احتاج أن يؤجرها بهدوء وسرية. ممتاز!. لم تكن لدي السمعة المالية ولا المراجع أو الضمانات اللازمة لإيجار شقة رسمية على أي حال. ثم إني سأقدر على العيش بالقرب من صديقتي! ومن ثَمَّ خططتُ لكل هذا سرًّا. عندما تكون أمي في فلورِدا سأجمع أغراضي وأغراض ابنتي وسنغادر هذا المكان على عجَلٍ! و ذلك ما حدث بالضبط بدون عَقَبة واحدة. غادرت هي فجمعت أغراضنا وانتقلنا.

الحرية

كانت مجرد شقة في قبو لكنها كانت لي كجنة رائعة من الحرية. كانت حرية باهظة الثمن لكنها تستحق كل قرش. لم تكن شقتي كبيرة إذ كنت تستطيع رؤية ٩٥ بالمئة منها من الباب لكن بالنسبة لي كانت لا تقدر بثمن. أذكر أني قلتُ لصديق(ة) أني مستعدة لدفع إيجار أكثر من المطلوب. لا ثمن غالي على الحرية.

فإذا مشيت بضع خطوات من الباب الأمامي إلى غرفة المعيشة/ النوم، كنتَ ستجد المطبخ أولًا، ثم الحمام على يمينك، وغرفة نوم ابنتي أمامك. وضعت لها هناك فراشًا وخزانةَ ملابسَ وصندوق ألعاب. لم تكن لدي غرفتي الخاصة بي عندما كنتُ في سنها، ولذلك كنتُ سعيدةً لأني استطعتُ أن أوفِّر لها غرفتها الخاصة بها. ،اشتريتُ لها لِحافًا زاهيَ الألوان، وزينت جدران غرفتها بملصقات. شغُفْتُ بتلك الغرفة، لأنها كانت أول خطوة في شفائي. كان إعطاء ابنتي الأشياء التي لم أحظ بها قط في طفولتي مُرْضِيًا ومحقِّقًا شعورًا بالإنجاز. لم أعد أحزن أو أتوجع على الفرص الضائعة، إذْ أن إعطائها كل تلك الفرص عالجني، عالج تلك الطفلة داخلي التي تعرضت للخيانة والنسيان والتجاهل. لم أستطع أن أعوض تلك الطفلة بداخلي عما فاتَ، فسعَيْتُ بدلًا من ذلك للتركيز على ابنتي الصغيرة. أردت لحياتها أن تكون كل شيء لم تكن عليه حياتي.

عشنا في تلك الشقة ذات غرفة النوم الواحدة لحوالي عامٍ، وكانت تلك الشهور رحلة اكتشاف للذات. أدخلتُ ابنتي حضانةً نهاريةً قريبةً، ولم أعد أعتمد على أمي في أي شيء. لا مزيد من العناية بالطفلة أو المساعدة المالية. لا شيء. صرت أنا وابنتي وحدنا في مواجهة العالم ولن يوقفنا شيء.

كانت إحدى أكثر الأشياء التي تقلقني هي كيف أكون أمًّا. قررتُ أنَّ أسْلَمَ الطرق هو أن أفعل كل شيء عكس ما فعَلَتْ أمي بالضبط. ربتنا على تثمين الموت والحياة الآخرة وعدم إعطاء أي اهتمام بهذه الحياة. لذلك فعلت العكس. علَّمْتُ ابنتي أن تستمتع بكل لحظة وأن تجد السعادةَ في كل نَفَسٍ. كانت كل ليلة قبل النوم تخبرني بثلاثة أشياء في الحياة هي ممتنة لأجلها. أي شيء من النهار المشمس إلى أكلها كعكةً لذيذةً في غدائها. لاحقًا عندما كبرت صارت تكتب مذكرات امتنان. ورغم أنها كبرت الآن فهي لا تزال تحتفظ بمذكرة مماثلة. تعلم كيفية تربية إنسان صغير آنذاك لم يكن سهلًا، لكن عندما أنظر إليها اليوم أُدْرِكُ أني أَصَبْتُ.

لم تكن تلك السنوات سهلة. كنا ننتقل كثيرًا باحثين عن إيجار أرخص. كان هدفي في تلك الفترة تحسين وضعي بأسرع ما يمكن لكي لا تتذكر ابنتي وقتًا لم تكن لدينا فيه نقود للطعام أو اضطررنا فيه للعيش في شقة ذات غرفة واحدة (شقة إستوديو أو غرفة) أو اضطررنا فيه للنوم على فرشة أرضية (فوتون). لم أرد لها أن تَذْكُرَني هكذا. أردت أن أكون قدوة تستطيع أن تَفْخَرَ بها.

بحسب تقديراتي حسبتُ أن أمامي وقتًا إلى أن يصير سنها ست سنواتٍ. ففي مثل ذلك السن بدأت تصير لي ذكريات واضحة. كان عمرها ثلاثة أعوام ومن ثَمَّ لم يكن لدي الكثير من الوقت. لكني كنتُ على الطريق السليم. عملت بجد وبسرعة وكثيرًا وبالكاد كنت أنام واستمرَرْتُ على ذلك المنوال لسنوات. وكنتُ على يقين من أني سأحقق ما أريد قبل

التاريخ النهائي. لم يكن لدي خيار آخر. كنت أذهب إلى الجامعة بدوام حضور كامل، وأعمل في نفس الوقت، وصرت قادرة على الشعور بالحب وعمل علاقات صداقة جيدة مع أصدقاء جدد.

وكما قال الأديب تشارلز ديكنز، "كانت أفضل الأوقات وأسوأها". كانت لدي حريتي ولم يكن هنالك شيء أفضل من ذلك. لكن كان علي أيضًا أن أتعامل مع شيء لم أكن أعرف عنه شيئًا: الحياة. فحتى ما قبل ذلك الحين، كانوا دائما يخبرونني بما علي فعله. كان التفكير النقدي واتخاذ القرارات والتخطيط والنظر في العواقب مفاهيم غريبة عني. علموني أن أصغي وأطيع وألّا أفكر. وفجأة صار علي أن أكتشف وأقرر كل شيء بنفسي. كيف سأذهب إلى الجامعة يوميا؟ كيف سأدفع أجرة الحضانة النهارية؟ كانت القرارات التي علي اتخاذها لا تنتهي، وكثيرًا ما فشلت.

أذكر توتري وأنا أضع عملات نقدية مصرية في آلة التذاكر (التي تعمل بالوزن) في مكان دفع الأجرة لكي أستطيع الذهاب إلى الجامعة بالحافلة. كانت نقودي تنفد، وكان علي أن أستقل ثلاث حافلات بين البيت والجامعة. من ثَمَّ فإني بوضوحٍ لم أكن أعيش في أفضل الأماكن جغرافيًّا، لكنه كان الأرخص والأفضل ماليًّا.

استخدمت كل العملات المعدنية المصرية التي لدي حتى نفدَتْ. ثم كانت هنالك أيام أوصل فيها ابنتي إلى الحضانة النهارية لكي أعود إلى البيت لأبكي. لم يكن لدي مال يكفي لأجرة الحافلة. لو زارني أصدقائي يومًا واشتريت طعاما زائدًا كانَ هذا يُفلِسُني.

كنت أغضب من نفسي كثيرًا لأن الجامعة كانت فرصتي الوحيدة. إذا لم أدرس جيدًا فلن أحقق هدفي أبدًا. ذلك الغضب والحزن والإحساس بالفشل والخوف دفعني إلى الحرص على أن تكون أيام تغيبي قليلة ومتباعِدة.

لكن عندما طلبت ابنتي علبة كيك بسكويت وافل مجمدة باهظة الثمن فقلتُ لها لا لأني لا أملك النقود، شعرت بشعور أسوإ وأصعب من شعوري بسب التغيب عن حضور الجامعة. كنت أخيب أمل الانسانة الوحيدة التي أردت إسعادَها. وكان ذلك بالنسبة لي أسوأ ما يمكن أن أصيرَ فيه، شعور بأني في القاع.

لكنني عدت إلى السطح مجددًا وأنا ألعن غلاء كيك الوافل، واستطعتُ أن أعود إلى الحالة التي كنتُ فيها. كنت كحصاة تتزلق على سطح الماء خوفًا من أن أغرق مجددًا ولا أخرج أبدًا. كنت ممتلئة بالأدرينالين وأعلم أني لا يمكنني أن أتوقف. إذا أبطأتُ ولو قليلًا فسوف أغرق. كان علي أن أواصل التحرك ولكن الأمر كان صعبًا للغاية. كان أصعب يوم عليَّ هو يوم اضطررت لبيع سوار جدتي.

بعد موت جدي في حادث قارب انتقلت جدتي من السعودية إلى مونتريال. ولأنهما لم يكونا سعوديين فقد كان لزامًا عليهما الحصول على توقيع مشترك من سعودي على كل ممتلكاتهما وأعمالهما، لأنه لا يُسْمَح للأجانب غير السعوديين بتملك أي شيء في السعودية . لكن ما إن توفي جدي حتى استولى السعودي المشارك في التوقيع كل شيء تاركًا جدتي معدَمةً. لم يكن لديها خيار إلا السفر للعيش مع ابنها أي أبي. وقد ذهبتُ إلى مونتريال لزيارتها بعد حوالَيْ سنتين من موت جدي.

كانت ضعيفة جدًّا وكانت عيناها بيضاوين بسبب الچلوكوما (الماء الأزرق). ورغم أنها كانت لا تزال صغيرة نسبيًّا، إلا أنه كان من الواضح أنها لن تعيش طويلًا. لقد كان للحياة مع أبي و زوجته الفظيعة أثرٌ سيءٌ عليها. كان قد دفعها على الجدار وكسر ذراعها ثم رفض أخذها الى الطبيب متهمًا إياها بالتدلل وبالكذب في قولها أن ذراعها انكسرت.

كانت قد تعبت من الحياة. عاشت مع جدي منذ أن كان سنها ١٢ وكان عمره ١٥. كان رجلًا ضخمَ الجثة ذا ضحكة عالية وشخصية قوية. أحيانًا كان عليها أن تتحمل صفعه إياها على مؤخرتها أو تقبيلها قبلاتٍ ذات صوت عالٍ على نحو مبالغ فيه، لكنها كانت في أغلب الأوقات تجلس إلى جانبه بصمت. كانت ضائعة بدون وجوده معها.

جلسنا على أريكة أبي وبكت وهي تعطيني آخر سوار ذهبي حول معصمها. كان لديها دائما ٦ أساور تتدلى من معصمها لكنها آنذاك كانت لم يعد لديها إلا واحدٌ.

"آسفة أنها ليست جديدة. أكره أن أعطيك شيئا قديمًا ورثًّا لكنها كل ما أملك. أريدك أن تلبسيها دائما". قالت ذلك لي وهي تعطيني إياها. "اذكريني بعد مماتي".
"لا أرجوك. احتفظي بها. لا تتحدثي هكذا. أنا لا أحتاج شيئًا لكي أتذكرك. لا تقولي أشياء كهذه".

لكنها أصرت. وأخذتُها فقط لكي تتوقف عن البكاء، وأقسمت ألَّا أخلعَها أبدًا. حافظتُ على وعدي لأطول فترة استطعتُها. كان السوار آخر الأشياء القيمة التي أملك. بعته لكي أغطي تكاليف الإيجار والدراسة الجامعية والطعام. أعتقد أن ذلك كان الحضيض. لا أستطيع التفكير في لحظة أسوأ في حياتي.

حصلت في نفس السنة على منحة من الجامعة بقيمة ٣٠٠٠ آلاف دولار. وأخيرًا انتهت مشاكل الحافلة. سوف أستطيع الآن شراء سيارة. غمَرَني شعورٌ بالارتياح الشديد.

لكنني كنت خائفة جدًّا من إنفاق كل المال على سيارة مستعملة لأنني ليس لدي أي فكرة عن كيفية التعامل مع ي مشاكل ميكانيكية. ففضَّلْتُ استئجارَ سيارةٍ بدلًا من ذلك.

في محل وكالة إيجار السيارات الذي كان قريبًا من بيتي حاولت اقناع البائع بأن يؤجر لي سيارة.
قال لي: "عليك أن تفهمي، ليس لديكِ موثوقية ائتمانية. كما أنك طالبة بدوام حضور كامل. وليس لديك دخل ثابت. أنت تمثلين مخاطرة ائتمانية عالية. لن يوافق البنك أبدًا"
"أقسم أني سأدفع كل الدُفعات في وقتها، وسوف أحافظ عليها جيدًا. عليك أن تصدقني".
كانت معدتي تتقلَّب كما لو كنتُ راكبةً في قطار الملاهي الأفعواني.
"لن يوافقوا إلا إذا دفعت ٣٠٠٠ دولار كوديعة، وضمنَكِ شخص. هل لديكِ أي شخص يمكن أنْ يضمنَكِ؟"
"لا. ليس لي أحد". أحسست بمعدتي تضطرِبُ أكثرَ.
"لا أمَّ أو أبَّ أو عمة أو عمَّ (أو خالة أو خال)؟" أليس هنالك أي أحد في حياتك له رصيد؟"
"أعتقد أني يمكنني أنْ أطلب ذلك من أبي. لم أتحدث إليه منذ سنين"

قال لي: "حاولي ذلك. تفضلي. تستطيعين استخدام هاتفي"

"إنها مسافة بعيدة، إنه يعيش في مونتريال"

"لا بأس، امضِ في ذلك".

أعطاني الهاتف ثم ابتعد ليمنحني بعض الخصوصية. أخذت نفسًا طويلًا ثم اتصلت. رفع أبي السماعة فأخبرته بكل القصة. لم يكن متحمسًا البتةَ لاتصالي به لأزعجه بمشاكلي.

"ليس من المعقول أن تتصلي بي دون سابق إنذار لطلب المال"

"أنا لا أحتاج المال، فقط توقيعك". كنت أكاد أستطيع سماع تنهده الساخط من مونتريال بدون هاتف.

"تعلمين أنه نفس الأمر جوهريًّا. إذا لم تدفعي دفعاتِكِ فسأتحمل أنا مسؤولية الدَيْنِ. لدي ثلاثة أطفال أعيلهم وزوجة ودفعات رهن على المنزل علي دفعها. أنا لستُ بنكًا لكِ"

"بنكٌ لي؟ وما الذي أنفقته علي يومًا؟ هل دفعت يومًا نفقة رعاية الطفل لإعالتي؟ لا أعتقد حقًّا أنك منصف في كلامك". قلت هذا وأنا أكاد لا أصدق أن هذا الكلام يخرج من فمي. "لم أطلب منك يومًا شيئًا قط، وهذا الطلب لا يمكن حتى اعتباره طلبًا مني لأي شيء. ومع ذلك ترفض؟ ألا تستطيع حتى أن توقع على ورقة من أجلي؟" قلتُ ذلك وأنا أبكي". "ليس لديك ثلاثة أبناء فحسب بل ستة. أتذكر؟ ما الذي فعلته لأجلي على الإطلاق وأنا أكبر طوال تلك السنين؟ لم يكن لي قط أب مثلما لأطفالك الجدد أب".

كان آخر فرصة لي. إذا لم يوافق فلن أستطيع الحصول على السيارة.

أحسست بالغثيان وأنا أذكر وقوفي تحت المطر مع ابنتي في موقف الحافلة بينما أشاهد آلاف السيارات تمر بسرعة بجوارنا.

"انظري يا مامي. هنالك الكثير من السيارات!". كانت تقول. "...وانظري". كانت تهتُفُ مشيرةً إلى موقف سيارات ممتلئ. "هنالك الكثير منها في كل مكان! لم لا نحصل على واحدة فقط؟"

"أعدك أني سوف أحصل لنا على سيارة يا حبيبتي. أعدك"

و الآن لن أقدر على الوفاء بوعدي.

اقترب مني البائع عندما رآني أبكي ممسكةً بهاتفه. اعتقدت أنه سوف يعرض علي أن يوقع هو بنفسه. بدا حزينًا مثلي.

"أرجوك أبي. لن أتخلف عن دفع أي دُفعة. أعدك. عليك أن تصدقني. لا أعرف ما الذي يمكنني قوله غير هذا. أنا أحتاج هذه السيارة. لم أطلب منك شيئًا من قبل ولن أطلب منك شيئًا آخر أبدًا".

"لن يعجب هذا زوجتي لهذا. لدينا الكثير من الفواتير فعليًّا".

لم أهتم مقدار ذرة لزوجته.

"لن تعرف إلا اذا فوَّتُ دُفعةً ولن أفوِّتَ أيًّا منها. أعدك. أرجوك".

بعد توسلات كثيرة له والكثير من توجيهاته قَبِلَ أن يوقِّعَ على مضض. حصلت على سيارتي واعتنيت بها أفضل اعتناء نالته أي سيارة في العالم. لم أتخلف عن دفع أي دفعة في السنوات الثلاث التي كانت لدي فيها السيارة. بعد نهاية عقد الإيجار دفعت ٢٠٠ دولار لتنظيف وتلميع السيارة، وقال لي البائع أنه لم ير قط سيارةً تعود إليه في مثل تلك الحالة المثالية. كنت ممتنة جدًّا للتوكيل لأنه خاطر معي وعازمة على أن أرد له الجميل.

الشك

وإذْ صرتُ أكثر ارتياحًا في حياتي الجديدة اخترتُ عشوائيًّا مادةً اختياريةً تتلاءم مع جدول مواعيدي، وهي مادة تاريخ الأديان. ركزت تلك المادة على الديانات الإبراهيمية الثلاثة، وبما أني أرغمت على تعلم الدراسات الإسلامية منذ حداثة سني، علمتُ أن ثلث المنهج على الأقل سيكون سهلًا. لم يكن لدي فكرة كم ستغير تلك المادة حياتي.

خلال تلك الأسابيع الاثنتي عشرة تفكَّكَ كل ما كنت أعرفه ببطء. لم أكن قد نظرت إلى الإسلام نظرةً موضوعية من قبل. صرت أستطيع أن أرى السخافات واللامعقولية فيه بنفس الوضوح الذي أستطيع أن أرى به السخافات واللامعقولية في الأديان الأخرى. كان من السهل إدراك عدم منطقية وعقلانية الثالوث أو تقديس البقر، لكن عندما يكون عدم المنطقية والعقلانية هو الخاص بدينك يكون إدراكه أصعبَ.

سُمِح لي لأول مرة بالنظر إلى الإسلام من منظور نقدي وسرعان ما اكتشفتُ أن القرآن ليس مختلفًا عن أي فسلفة قديمة أخرى أو أي كتاب آخر كتبه البشر. كان الأمر واضحًا على نحو مفضوح. الإسلام مليء بالسخافات مثل قول القرآن بأن الأرض مسطحة كالسجادة أو حديث شرب بول البعير لعلاج الأمراض. من الجلي أنه كتبه أشخاص جاهلون. اكتشفت أنه لم يكن وحيًا وكلامًا إلهيًّا من إله قدير. فالإله الذي خلق السماوات والأرض كان لِيعلم أنه لم يخلقْ الأرضَ مسطحةً!

كما ثبتَ أن مفهوم أن القرآن استثنائي ومقدس باطلٌ لأن أغلبه سرقات أدبية رديئة. بل وهناك حتى أمثلة عديدة على وصول كلمات من لغات غير عربية كالعبرية والسريانية والإثيوبية الكثير إلى نص القرآن العربي[1]. لقد أخبرونا بالطبع أن تلك الكلمات ذات معانٍ غامضة سرية لا يعلم تأويلها إلا الله[2]. لكن لا. لقد كانت فقط سرقة أدبية رديئة. لقد رُقِّعَ القرآن من التعاليم والخرافات التي كان يحكيها ويعلمها أفراد وقبائل اليهود والمسيحيين العرب في شبه جزيرة العرب.

قبلت أخيرًا حقيقةَ أنه ليس الإسلام وحدَه فحسب دينًا مختلَقًا، بل في الحقيقة فإن كل الديانات مختلَقة. ابْتَهَجْتُ بتخلصي أخيرًا من عقدة الذنب الوهمي المقيِّدة التي عانيت منها لسنوات! لم يعد علي أن أشعر بالنقص لأني لا أؤمن بتلك الحكايات الخرافية السخيفة والعنيفة عل نحو عجيب. كنت أنا العاقلة المحقة طوال الوقت!

---

[1] الألفاظ الأعجمية أو الأجنبية في القرآن هو مما تعترف به الكثير من كتب علوم القرآن الإسلامية ذاتها وكتب التفسير، وقد ترجم الأخ العراقي ذو الاسم المستعار ابن المقفع فقرات كبيرة من كتاب العلامة آرثر جيفري (الألفاظ الأجنبية في القرآن) ويمكن تحميله من هذا الرابط:
https://drive.google.com/file/d/1mvA9PrELz1vLrXBmB-LMjn9_rbpliXrK/view?usp=sharing
وقد طرح لوكسمبورج أطروحته عن الألفاظ السريانية في القرآن لكنه برأيي بالغ وغالى وشطح.
ومن الكتب التي تكشف عن مصادر أساطير وقصص الإسلام والقرآن كتاب كليرتسدل (مصادر الإسلام)، وكتاب آخر لجون سي بلير بنفس الاسم، كلاهما تتوفر ترجمته العربية على الإنترنت، وعن فضح رداءة الاقتباسات أو السرقات الأدبية القرآنية كتبتُ كتابَيَّ (أصول أساطير الإسلام من الهاجادة اليهودية وأبوكريفا العهد القديم) و(أصول أساطير الإسلام من الأبوكريفا المسيحية والهرطقات وكتابات آباء الكنيسة) للؤي عشري، وهما مجلدان أدخلتهما ضمن موسوعة (القبر المحفور للإسلام) التي بها مجلدات مطوَّلة عن أخطاء القرآن العلمية والتأريخية ومخالفاته للمنطق وقواعد اللغة وغيرها:
http://atheismlibrary.blogspot.com/2019/08/blog-post.html

[2] كقول محمد لما كثر نقد وشبهات القرآن في عصره، في سورة آل عمران: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)}. ومن الغريب حقًّا أن ينزِّل أو يؤلِّف إله كامل القدرة كتابًا به نصوص تحتمل شبهات النقد والتخطئة أو السخرية من سخافتها أو أخطائها.

كم هو مريح أن أستطيع أخيرًا تنفس هواءً خاليًا من الشعور بالذنب الوهمي. أردت أن أشرب الخمر وأذهب الى النوادي الليلية وأفعل كل الأشياء التي تفعلها النساء العازبات الحرائر.

لكن الأمر لم يكن بتلك السهولة. فمثلما لم أستطع أن أتخلص من النقاب والحجاب مباشرةً، كذلك لم أستطع التخلص مباشرةً من كل تلقين التعاليم الدينية التي غُسِلَتْ بها دماغي منذ أن كنت في سن الخامسة. من الصادم للغاية أن يدرك المرأ فجأةً أن كل شيء كان يعتقد بصحته أكاذيبُ. شعرتُ مثل جيم كاري في فيلم "ذا ترومان شو" [عرض ترومان]. العواطف الجياشة والغضب لكوني خُدِعْتُ، والحزن لأني أضعت كل تلك السنين، والخوف من أني قد أكون على خطأ، والحرج من أني كنتُ بهذا الغباء، كل ذلك اجتاحني. لكن في خضم تلك العمليات كانت تأتي علي أوقات أقرر فيها ألا أفكر أكثر من اللازم وأن أستمتع بحريتي.

من حسن حظي أنه كانت لدي صديقة رائعة تُدعى توشا والتي كانت دليلي في عالمي الحر الجديد. كانت تعرف كل شيء عن الشعر والمكياج وكنت طالبتها المطيعة. كنا نقضي كامل الأسبوع في الدراسة معًا نعمل بجد وفي إجازة الأسبوع تساعدني في اختيار ما ألبسه ونذهب معًا إلى النوادي الليلية، لقد كان ذلك رائعًا! كنت أخيرًا أهرب من سجني وأحطم آخر أسوار سجني الإسمنتي وأعيش الحياة بطريقة لم أتخيل قط أني قد أستطيع أن أعيشَها.

لم تكن توشا معلمتي في مسائل الشعر والمكياج فقط بل وساعدتني أيضًا على أن أنضُجَ عمومًا. كان والداها يمران بالطلاق واكتشفَتْ أمرًا مؤلمًا جدًّا شاركتنيه، والذي تشاركْتُه مع الكثير من الناس منذ ذلك الوقت.

"أتعلمين؟ أمك مجرد امرأة" قالت لي. "هي مجرد امرأة مثلك ومثلي ومثل كل النساء. نحن نعلي من شأن أمهاتنا بسخافة ونراهن مختلفات عن بقية الإنسانية. لكنهن لسن كذلك. إنهن مجرد نساء".
كنا في سيارتها وكانت كلماتها مثل إزميل يكسر أكبر كتلة إسمنت تغطيني. حدقتُ فقط في زجاج السيارة الأمامي محاولةً استيعاب ما تقوله. عندما وصلنا إلى وجهتنا قفزت تلقائيًّا من السيارة دون أي رد، وأخبرتها لاحقًا بعظيم امتناني لها. لقد صنع بيان الحقيقة هذا فرقًا عميقًا في منظوري. أمي وخوفي منها كانا آخر شيئين احتجتُ التغلبَ عليهما. وساعدتني توشا على ذلك.

يعطي الإسلام للأم مكانةً شبه إلهية. يستطعن تقرير ما إذا كنت ستحترق إلى الأبد في الجحيم أم لا. هذه سلطة كبيرة جدًّا. لكن إدراك أن أمي لا تمتلك قدرات خارقة للطبيعة وأنها مجرد إنسانة عادية تخطئ مثل بقيتنا كبشر كان إدراكًا مغيِّرًا لذهنيتي.

كنت لم أعيد أعيش مع أمي، لكنني كنت لا أزال أخاف بشدة من أن تكتشف أني أخلع الحجاب أحيانًا. كنت أعيش حياة مزدوجة. في الليل كنت لا ألبس الحجاب لكني ظللت ألبسه في الجامعة لأنني لم أُرِدْ أنْ أحتاجَ الإجابةَ عن أسئلة. كنا نعيش مرحلة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر وكان الناس منتبهين لمن يلبَسْنَ الحجاب.

لم تتفجع أمي _على نحو متوقَّعٍ_ إلا على المسلمين الذين ماتوا في برجي التجارة العالميين.

قلتُ لها: "أتعلمين أنه كانت هنالك حضانة في أحد ذينك البرجين."

"حسنًا، في كل حرب يوجد ضحايا"

"تلك لم تكن حربًا. بل كانت هجومًا على مدنيين أبرياء"

"لا تكوني غبية. المسلمون دائمًا في حرب مع الكفار. تلك مشكلتك. أنت لم تفهمي ذلك قط. ولذلك سوف تُقتَلين معهم على الأرجح. عندما تعيشين معهم تصبحين غير قابلة للتمييز عنهم، ولذلك سوف تستحقين ما سوف تنالينه".

"أنت تعيشين معهم أيضًا"

"ليس مثلك. ليس لدي أصدقاء كفار. أكرههم وأكره بلادهم وسأعود إلى بلدي في أقرب وقت يمكنني فيه ذلك. أنت تحبين الحياة هنا وتحبينهم وتعتبرين نفسك منهم. لكن لن يكون لك خيار إلا الانضمام إلى الخلافة عندما نغلبهم وإلا فسوف تُقْتَلِينَ معهم مثل الكلبة".

لم تكن نظرة أمي الى العالم مختلفة عن خاطفي طائرات ٩/١١ ولا عن داعش. كلهم يؤمنون أن واجب المسلم القتال إلى أن يصير كل الناس مسلمين وإلى أن تحكُمَ شريعةُ الإسلامِ كلَّ العالمِ. ولذلك عندما برزت داعش مدعيةً الخلافةَ في العراق وسوريا تدفق مسلمون من شتى أصقاع الأرض للانضمام إليها في القتال. كان منافيًا للمنطق أن شبانًا ونساءً من دول غربية يختارون الذهاب إلى منطقة حرب، لم يستطع الناسُ فهمَ سبب هذا. لكن ذلك كان منطقيًّا جدًّا. لقد علموا هؤلاء الأشخاص _مثلما علموني_ منذ طفولتهم أن من واجبهم دعم دولة الإسلام. وما إن حصلت داعش على السلطة كان المجندون المتطوعون مشبَّعين مسبقًا بالتعاليم الجهادية ومستعدين للانضمام إليها. لم يكونوا يرون أنفسهم كإرهابيين بل كانوا يرون أنفسَهم على أنهم يحققون المشيئة الالهية.

بعد الحادي عشر من سبتمبر كانت العجرفة والشماتة والفرحة هي الموقف الذي كنت أراه بين المسلمين الذين في حياتي. بينما كان العكس بين الكفار الذين أعرفهم في تعاملهم معي.

استدعاني عميد كليتي ليسألني عما إذا تعرضت إلى أي مضايقة كرد فعل. لقد قتل مسلمون للتو آلافًا من الامريكيين، وكان أول شيء يثير قلقه هو التأكد من أن لا أحد يضايقني. آه يا كندا! لو تدرين ما الذي تتعاملين معه وكيف أن مخاوفك تثير عجبي. لا. لم يضايقني أحد. بل في الحقيقة كانوا يبذلون جهدًا خاصًا لكي يتأكدوا من أني مرتاحة دائمًا. أردت أن أقول للعميد: "هل تمازحني؟" نحن ندعو الى قتلكم وأنتم قلقون من أن تتأذى مشاعرنا؟"

كان الأمر مثيرًا للغثيان ومُذِلًّا بصراحة. لم أكن قطعة ثلجية هشة تحتاج إلى العناية الزائدة لأن أناسًا من نفس الدين الذي أنا عليه كانوا قتلة. كان الأمر برمته سخيفًا. كان الأجدر أن نتعامل مع الصدمة النفسية لأن حيواتنا كلنا صارت مختلفة الآن ونحن في نقطة اللاعودة. لن نستطيع الشعور بالأمان بعد الآن. لقد هوجِمَ مركز عالمنا للتو، وكان الكل يحاول استيعاب الأمر. كان الجميع في حالة صدمة.

استَأْتُ من ربطي بأولئك الوحوش على أي نحوٍ. كم كرهت أن هذه القماشة التي على رأسي جعلتني أبدو متورطة معهم. كنت خائفة من الإرهابيين مثل الجميع، وقد تزعزت حياتي مثلهم جميعًا. تحطم قلبي حزنًا على كل الضحايا مثل الجميع، ولم تكن لي أحاسيس أخرى أخفيها أو ذات وجهين.

أردتُ أكثرَ من أي شيء آخر، أردت انتزاعَ هذه القماشة وإزالة أي صلة بيني وبينهم. لكن نزع الحجاب وأنا تحت المجهر بالفعل لم يكن خيارًا مطروحًا. قبل الحادي عشر من سبتمبر لم يكن الناس ليهتموا على الأرجح، لكن لا يمكن العودة الى عالم ما قبل الحادي عشر من سبتمبر. تخيلت أني إذا حضرْتُ يومًا دون الحجاب فسوف أحصل على انتباهٍ لي أكثر مما أرتاح له، وقد كنت أنال انتباهًا أكثرَ مما أريدُ فعليًّا. تخيلت أن الناس سيأسلونني ما إذا كنت لا أزال مسلمة، فكيف سأجيب عن هذا السؤال؟ كنت لا أزال أتصارع مع ذلك السؤال بنفسي.

وقد يأخذون خلعي للحجاب على أنه إشارة إلى أنهم يمكنهم الحديث عن المسلمين بعبارات عنصرية أمامي مثل "الصحراويين" القذرين، باعتبار أني قد تركت الإسلام فأنا بالطبع _كما قد يتصورون_ يجب أن أكره كل المسلمين. وبالتأكيد لم أرد أن يفهموا على نحو خاطئ رحلتي الشخصية لترك الإيمان على أنها دعوة لكره الذين لا يزالون مؤمنين. أردت تفادي وضع نفسي في موقف غير ملائم اضطر فيه للدفاع عن موقفي وأفكاري لأنني كنت ما زلت لم أحدد في الحقيقة موقفي أو أفكاري بعد. ومن ثَمَّ نظرًا للمشاكل المحيطة بقراري أن أتبنى اتجاهًا أو آخر، فقد كنتُ محجَّبةً في النهار وحرةً في الليل.

كنت أبدو للعالم كامرأة مسلمة لكنني كنت في داخلي امرأة فقط. بدأت أفقد ببطءٍ هويتي كمسلمة، لكنني كنتُ لم أجد بعد ما سأتبناه كهوية بديلة. كنت أتعايش مع الحياة يومًا بيوم وأحاول العيش بين هويتين.

وبينما أنا على ذلك الحال، اتصلت بي أمي لتطلب مني أن أفتح التلفزيون على نشرة أخبار البي بي سي. كان هنالك مراسل يقف على أنقاض أحد مواقع القاعدة في كابول وكانت الأوراق تتطاير من حوله. انحنى المراسل والتقط ورقة عشوائيًّا، وقرأها على الهواء مباشرة.

"مكتوب في هذه الورقة شركة فوريو إنتربرايزرس، ريتشموند، بريتيش كولومبيا، كندا. نحن لا نعرف هذه الشركة أو إن كانت لها أي علاقة، لكن.."

من بين كل الأوراق التي كان يمكن له أن يلتقطَها، لم يلتقط إلا هذه؟ ما احتمالات ذلك؟

لم يمر وقت طويل قبل أن يجدوني وامتلأ جهاز الرد الآلي في هاتفي بالرسائل.

"أهلًا. أنا أتصل من صحيفة الناشيونال بوست. أردت الحديث معك بخصوص شركة زوجك السابق، شركة فوريو إنتربرايزس. هل يمكن أن تعاودي الاتصال بي لو سمحتِ؟"

كان المتصلون مثابرين لا يتوقفون، وفي النهاية بدؤوا في التعسكر أمام بنايتي منتظرين أن أغادر. شعرت بانتهاك خصوصيتي وبالخوف. لم يقتحم ذلك العالَمُ عالمي الجديد؟ لم تكن لي علاقة بالأمر. وصل أحد المراسلين إلى باب بيتي.
"هل لديك لحظة للحديث حول زوجك السابق؟"
"لا. اتركني و شأني. لا أريد أن أتحدث إلى أي أحد. لا أعرف شيئا عنه! رجاءً دعني وشأني!"

"لن نتركك وشأنك حتى تتحدثي إلينا. إذا تحدثت إلى أحدنا فقط فسيرحل بقيتُنا. نحن في حاجة الى تصريح فقط"
"ليس لدي ما أصرح به"
"احتفظي ببطاقتي واتصلي عندما تكونين مستعدةً للحديث. لن يتوقف هاتفك عن الرنين ولن نبتعد عن بنايتك إلى أن تتحدثي".

لم يترك لي تهديده خيارًا إلا الرضوخ بغضبٍ. أردت فقط أن يرحلوا. شعرت باستغراب منهم لإقحامهم إيايَ في أحداث ليس لي بها علاقة. ليس لي علاقة بأيٍّ منها. بعد حديثنا عبر الهاتف صارت قصتي على الصفحة الأولى من الجريدة الوطنية. وكما وُعِدْتَ تركني الجميع في حالي بعد ذلك.

عندما دخلت الجامعةَ اليومَ التاليَ انتحى بي أستاذي جانبًا ليحدثني كأني من المشاهير.

قال الأستاذ بحماسٍ: "هل هي أنتِ؟ لا اصدق أنك في صفي. لقد قيل أنها كنت طالبة في اليو بي سي (جامعة بريتيش كولومبيا) ففكرت أن الاحتمال ضئيل. واتضح لي أنها بالفعل أنت".
"نعم، ولا أريد الحديث حقًّا في الأمر". وابتعدتُ عنه.
"حسنًا، هذا الأمر كله مثير بالتأكيد".
واصلت السير.

احتوى المقال على كثير من المعلومات التي كانت جديدةً عليَّ. كشف المقال أن أحد عناصر القاعدة الذين قُبِضَ عليهم باتهامات ذات صلة بالإرهاب، كان هو الذي دفع كفالة عصام عندما قُبِضَ عليه عند دخوله كندا بزواج سفر سعودي مزيف. وتحدث المقال بتفصيل شديد عن كيف أن هذا العنصر وجهه بن لادن شخصيًّا لسحب نقود من حساب في كاليفورنيا وأعطاها لعنصر آخر في بريتيش كولومبيا [بكندا].

قال الرجال الذين كانوا جهاديين أن هذه المهمة الجهادية لتحرير عصام قامت على أساس توجيهات مباشرة من أسامة بن لادن. وأشار المقال إلى أن عصام كان منخرطًا مع بن لادن منذ الحرب ضد السوڤييتيين في أفغانستان. ويعتقدون أنه الشخص الذي درب مرتكبي تفجيرات سفارتي الولايات المتحدة الأمريكية في كينيا وتنزانيا سنة ١٩٩٨م والتي قُتِلَ فيها أكثر من مئتي شخص.

عندما أخبرته أنني سأحصل على تطليقي منه، وغادر كندا، ذهب لمحاربة الصربيين في كوسوڤو. لكنه قُبِضَ عليه بعد حوالَيْ سنةٍ في أذربيجان وأُرْسِلَ إلى مصرَ ليُسْجَنَ. وكانت تلك صورته التي أراني إياها جهاز الاستخبارت الأمنية الكندي (سي إس آي إس) منذ عدة سنوات.

كنت قد تمنيت أن تلك كانت نهاية ذلك الفصل من حياتي. كنت أتجاوز الأمر وأمضي قُدُمًا، ولم أرد لهذا الأمر أن يلاحقني لبقية حياتي.

كنت فقط متوترة قليلًا عندما أفرج محمد مرسي _الذي صار رئيسًا لمصر لفترة قصيرة بعد خلع مبارك من الحكم بثورة الشعب_ عن مجموعة من عناصر الإخوان المسلمين من السجن. لكن في الحقيقة كان عصام يكره الإخوان المسلمين، وكان يعتبر الإسلاميين السياسيين لَيِّنين. وكان منضمًّا لجماعة ذات طبيعة عسكرية أكثر في مصر تُدعَى جماعة الجهاد الإسلامي (أو تنظيم الجهاد في مصر) والذين كانوا الجناح المصري للقاعدة. للإسلاميين والجهاديين نفس الهدف أي نشر الإسلام، لكنهم يتبنون وسائل ومناهج مختلفة. الإسلاميون يريدون فعل ذلك عبر وسائل سلبية وأكثر سلمية مثل السياسة والهجرة والولادة. بينما يفضل الجهاديون الوسيلة التي استعملها المسلمون الأوائل: السيف (العنف). هناك حديث يقول فيه محمد أن أفضل المسلمين هم جيله ثم يضعف المسلمون تدريجيًّا بمرور الزمن. ولذلك فعلى نحو طبيعي من المنظور السلفي أن كل جيل حالي من المسلمين هو أسوأ جيل دائمًا. لا يجب على المسلمين أن يسمحوا بتطور الإسلام، بل عليهم أن يكافحوا دائمًا لتقليد ما كان محمد وأصحابه يفعلونه منذ أكثرَ منْ ١٤٠٠ سنة. لذلك يعتبر الجهاديون الإسلاميين أقل تقوى ونقاءً وخدم أمريكا الخائنين الذين يحلقون لحاهم ويلبسون البدلات. المسلمون الحقيقيون يلبسون مثل الرسول ويعيشون مثله. وبما أن مرسي كان إسلاميًّا فقد فضل ترك الجهاديين مثل عصام خلف القضبان. قد تكون لهم نفس الأهداف لكنهم ليسوا حلفاء.

أحب أن أعتقد أن عصام ميت الآن على الأرجح. وأن أي أصدقاء أو حلفاء كانوا لديه والذين كانوا ليرغبوا في إيذائنا انتقامًا له موتى أيضًا. كان ليكون عمره ٦٠ سنة الآن لو أنه لا يزال حيًّا. لقد حُكِمَ عليه بالسجن ١٥ سنة مع الأشغال الشاقة، ومن ثم يمكن أن يكون قد خرج من السجن الآن. لكن من غير المرجح للغاية أن يكون جسده لا يزال بنفس القوة بعد قضاء تلك المدة الطويلة في سجن مصري. أستطيع أن أطمئن على الأقل إلى أنه لن يمثل تهديدًا ماديًّا لنا. لا أتخيل أن الحكومة الكندية ستسمح له بالعودة أبدًا. علمت من مقال منشور في النيويورك تايمز على الإنترنت أنه كان همزة الوصل لخلية بن لادن الإرهابية في كندا، ومن ثَمَّ سيستحيل عليه على الأرجح العودة إلى هنا. أدخل دائمًا على صفحته على الويكيبيديا[1] لأتحقق مما إذا كان يوجد تحديث للمعلومات عنه. سأقرأ يومًا ما تأكيدًا لكونِهِ قد ماتَ فعلًا.

[1] https://en.m.wikipedia.org/wiki/Essam_Marzouk

إعادة البناء

رغم الصعوبات المالية إلا أني كانت لي بعض الأوقات الجميلة في تلك السنوات التي كنت أفكك فيها ذاتي المسلمة وأعيد بناء نفسي قطعة قطعة. كنت أستضيف صديقات الطفولة ونضبط شعر بعضنا البعض ونضع المكياج لبعضنا البعض ونشغِّل الموسيقى ونرقص؛ أي كل الأشياء التي كانت ممنوعة في بيوت عائلاتنا، كنَّ فتياتٍ في العشرينيات من العمر. كانت لدي شعبية بينهن لذلك.

كانت تلك الفتيات لا يزَلْنَ عالقات في بيوتهن (إحداهن كانت متزوجةً زواجًا رُتِّبَ لها لا حبَّ فيه) و كان بيتي المكان الذي يستطعن أن يكن فيه حرائرَ. صديقتي التي ساعدتني على إيجاد الشقة التي في البدروم كان لها أخ والذي كان أعز أصدقائه يُدْعَى واين. وذات مرة بينما كنت مع صديقاتي أتى واين دون سابق إنذار. في ذلك الوقت كنت لا أزال ألبس الحجاب، لذلك لم يكن قد رأى شعري من قبل. لا أعتقد أنه توقع أن يكون شكلي مختلفًا جدًّا بدون الحجاب، استطعتُ أن أرى بوضوح أنه فوجئ. فقهقهتُ وركضتُ بعيدًا، غيرَ مرتاحةٍ للشعور بالانتباه لي. لم تفوِّتْ صديقاتي تلك الحادثة.

"أرأيت... الطريقة التي كان ينظر بها إليكِ؟"

"نعم. حسنًا، أظن أنه كان يحسبني صلعاء"

"لكن لم تكن أيٌّ منا تلبس الحجاب! إنه لم ينظر إلينا حتى. كأننا لم نكن هناك! لقد رآكِ أنتِ فقط!".

كان ما قلنَه صحيحًا وقد شعرتُ بالإطراء لذلك. لكن الصديقات يبالغْنَ في تلك الأمور دائمًا. ولذلك تفاجأت حقًّا عندما عاد في تلك الليلة لاحقًا وقال بوضوح أنه يبحث عما هو أكثر من الصداقة. أصابني الدوار، فبقدر ما فرحت بالفكرة فقد أرعبتني بنفس القدْرِ أيضًا.

كنت قد اتخذت خطوة الانتقال إلى بيت مستقل، لكن أن يكون لي حبيب فتلك كانت مسألة أخرى تمامًا. العلاقة مع شخص من الجنس المقابل وخاصة شخصًا غير مسلم محرمة في الإسلام تمامًا. ولم يكن ذلك فقط بسبب الجحيم الذي تدخله بحسب عقيدة الإسلام بسبب ذلك حالما تموت، بل وهناك خطر محتمَل هنا عليك أيضًا على الأرض. وكان العار والإحساس بالذنب مرهقين.

عندما بدأنا نمارس الجنس معًا في الأول فَزِعْتُ للغاية حتى أني كنت أصاب بنوبة هلع في كل مرة. و لكي أهدئ نفسي كنت أتخيل أننا متزوجان. كنت أتخيل أنه نفس الرجل الكريه العنيف الفظيع الذي كنتُ متزوجةً منه، وكان ذلك يهدئني! كنت خائفة للغاية من ممارسة الجنس مع رجل لستُ متزوجةً منه إلى درجة أنني كنت أتخيل أنني مع رجل لم أرد أن أكون معه لكي أتجاوز الأمر. لقد كان لغسيل الدماغ سيطرة قوية حقًّا علي: كان واين حرامًا وكان عصام حلالًا. رغم أنني أردت أن أكون مع واين وكرهتُ عصام. كنت أستطيع فقط تهدئة نفسي لكي أمارس الجنس مع واين عن طريق تخيل نفسي مع عصام. كان ذلك مربِكًا للمشاعر حقًّا.

تصارعت بشدة مع فكرة أن يكون هناك رجل غير مسلم في حياتي. يسمح للرجال المسلمين أن تكون لهم شريكات غير مسلمات، لكن لا يُسمح للنساء المسلمات بأن يكون للواحدة منهنَّ شريك غير مسلم[١]. كنت أخرق العديد من التعاليم الأساسية.

لكن كان من الرائع أن يكون لي شخص أعتمد عليه، أن تكون هناك يد مواسية أمسك بها، وأن يكون هنالك عناق دافئ في نهاية يوم صعب. لم يكن واين مؤذيًا بتاتًا وقد أحبني. و كان هناك راحة كبيرة لي في معرفتي أنه يحبني أكثرَ مما أحبه. أعطاني ذلك سيطرة ولم أَخَفْ قط من أنه قد يؤذيني أبدًا.

"أنا مستعد لفعل أي شيء في العالم فقط لكي أرى ابتسامة على ذلك الوجه الجميل"

كيف لشخص أن يقول مثل هذا الكلام لي؟ كان ذلك سرياليًّا عجيبًا بالنسبة لي. كانت كلماته مثل إكسيرٍ قُدِّم لشخص مريض للغاية ولم يعرف إحساس الأصحاء أبدًا.

حاربتُ مشاعرَ الذنب والخوف وتركت العلاقة تحدث طبيعيًّا. لم نعلن علاقتنا أبدًا في الواقع، لكنه كان دائمًا موجودًا.

وبمرور السنين، مررنا من مرحلة كوننا خليلين إلى الزواج في النهاية. لم نُقم حفلة زواج بل فقط مجرد مراسم مدنية سريعة في المحكمة. أعتقد أني تزوجته فقط فقط لتخفيف كل شعور الذنب الذي كنت أشعر به لنومي معه. إذا تزوجنا فسيغفر لي ذلك ذنوبي السابقة.

لقد قابل أمي مرة واحدة، لكن فقط بعد أن نطق بالشهادة وأسلم [شكليًّا].

"ماذا إذا سألوني أسئلة؟"

"لن يفعلوا. فقط كرر العبارات التي يقولها الإمام"

تطلب الأمر منه فقط بضع ثواني ليصير مسلمًا. كان مستعدًّا لدخول الإسلام وتعلم كل شيء عنه وفعل أي شيء أريده.

"لن آكل لحم الخنزير"

قلتُ له: "بل كلْ كلَّ لحم الخنزير الذي تريد، يا حبيبي، أرجوك. أنا أقدر أنك تفعل هذا لأجلي لكنني لن أطلب منك فعل أي شيء أكثر من ذلك".

---

[١] أعطى الإسلام للرجل المسلم حرية في الزواج من المسيحيات واليهوديات فقط وحظر عليه الزواج من غيرهن من الأديان الأخرى كلها، بينما حظر على المرأة المسلمة الزواج من غير المسلم فقط.
{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ....(٥)} المائدة: من الآية ٥، قارن ذلك مع: {وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} البقرة: ٢٢١، و{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)} سورة الممتحنة: ١٠.

كل ما أردته منه هو أن يغمغم كلمات "لا إله الا الله محمد رسول الله" أمام إمامٍ لكي لا تكرهنا أمي.

لم أخبره أن حد الردة القتل. لم أخبره بالكثير من الأشياء. لم يكن في حاجة إلى معرفة أي من ذلك لأنني كنت في أواخر إيماني آنذاك على أي حال، وكنت أعلم أن كل ذلك كان شكليًّا فقط.

لكني كنت أُدَرِّس في مدرسة إسلامية، ولذلك كان علي أن أواصل لبس الحجاب في النهار، لكن كان ذلك لأجل التظاهر فقط أيضًا. كنت لا زلت أعيش حياةً مزدوجةً. فبدلًا أن ألبسه الآن في النهار في الجامعة، صرت ألبسه في العمل.

لكني على الأقل كنت قادرة أن أكون على سجيتي في البيت. كنت كثيرًا ما أنزع الحجاب وأنا في السيارة في طريقي إلى البيت. وكانت ابنتي في كرسي السيارة الخلفي تفعل نفس الشيء. منذ أن كانت حتى في الحضانة طُلِبَ منها أن تلبسه هي أيضًا.

أعرف الكثير من المسلمين والمسلمات السابقين والسابقات الذين يعيشون هذه الحياة المزدوجة ويعيشون مع والديهم. لا أقدر على تخيل صعوبة ذلك. أن تتحمل ذلك النوع من الحياة وأنت مغسول الدماغ أمر، أما أن تُجْبَر على الحياة على هذا النحو وعقلك حر؟ هذا يصعُبُ تخيله. لابد أن هذا عذاب.

لكن لكلٍّ منا نصيبه من المعاناة. لا يستطيع أيُّ أحدٍ منا عمل هذه الانتقالة بسهولة. إنه صراع يتشارك المرور به كل المسلمين السابقين. إنه المأزق الذي يمر به جميعنا.

ما إنْ استقلتُ من المدرسة الإسلامية وبدأت أدرِّس في كليةٍ، لم يعد لدي أي سبب لمواصلة هذه التمثيلية. عرف جميع من هم في حياتي أني لم أعد ألبس الحجاب، ما عدا أمي. لم أفكر في كيفية إخبارها في الحقيقة. إذ أن علاقتنا كانت قد صارت هشةً جدًّا ومعلَّقةً بشعرة، وظننتُ أن هذه قد تكون القشة التي تقسم ظهر البعير. ولأكون صادقة كان هذا ليريحني لو كان الأمر كذلك. أردتُ أن أعيش حياتي بحرية فقط. لم أعد أريد أن أتظاهر بأي شيء من أجل أي أحد بعد الآن. كنت قد أُرْهِقْتُ من العيش في حياة مزدوجة. وإذا كان هذا سيجعلها تتبرأ مني فليكن كذلك. أنا لم أشعر أني كان لدي أم حقيقية على أي حال.

كنت قد صرت نادرًا ما أراها لأننا نعيش حياتين منفصلتين في مدينتين بعيدتين. لكنها اتصلت بي ذات يوم لتطلب مني أن أوصلها إلى موعد طبيب بسيارتي. وبشجاعتي وثقتي في نفسي التي اكتسبتها من دراسة مادة تاريخ الأديان، ومن الحكمة المغيِّرة للذهن التي تعلمتها من توشا، وإدراكي أن لا سيطرة لأمي عليَّ، وأني لن أهلك بدونها، وقررت أن أذهب إليها سافرةً، كما أفعل كلَّ يومٍ في مشاويري الأخرى.

"هل أنت متأكدة مما تفعلينه؟" قال لي واين بحماس وقلق في نفس الوقت. "أتريدين أن أصحبك؟"

"لا. قد يجعل هذا الأمر أسوأ. يجب أن أفعل هذا في النهاية. هذا هو اليوم مناسب مثلما أي يوم آخر مناسب لذلك".

أخذتُ معي حجابًا وتركته في المقعد الخلفي للسيارة احتياطًا كي ألبسه إذا فقدت شجاعتي في آخر لحظة، وكدت فعلًا أفقدها. لكنني عزمتُ على مواصلة القيادة وعدم إعطاء نفسي فرصةً لوضع الحجاب. عندما توقفت لكي آخذها معي، فتحَتْ بابَ السيارة ونظرت لي نظرةً واحدةً ثم بدأَتْ في الصراخ:

"لم أنت عارية؟ ما الذي دهاك؟ لن أركب معك وأنت عارية كعاهرة. كيف لا تخجلين من نفسك وأنتِ تسيرين هكذا؟ أعوذ بالله! أستغفر الله! أنا متقززة منك لأنكِ عارية كالحيوان. كيف تجرئين؟"

أجبتها بصوت هادئ جدًّا وخفيض: "أتريدين الركوب للذهاب إلى الطبيب أم لا؟"

"لن أركب معك السيارة أيتها العاهرة القذرة!"

"حسنًا، إذن أغلقي باب السيارة من فضلك، لكي أعود أدراجي". وكم تفاجأت لركوبها السيارة. لكن وابل شتائمها المتواصل لم يتوقف.

"اللعنة عليك. فلتذهبي إلى الجحيم. ستُحْرَقين. لن أسمح لك حتى بأن تشمي رائحة الجنة أبدًا. تستحقين العذاب إلى الأبد. يجب أن تُقْتَلِي. لو كنا في مصر لقتلتُكِ. علي أن أقتلك بيدي المجردتين! إذَنْ، هل أنت كافرة الآن؟ هل خرجت من دينك تمامًا؟ هل أنت كافرة نجسة الآن؟"

"لا. أنا فقط لا أريد لبس الحجاب بعد الآن".

"بالطبع. لأنك عاهرة! العاهرات فقط يُرِدْنَ التجول عاريات عارضاتٍ أجسادهن على كل رجل لكي يشتهوهُنَّ! أنت مقززة. علي أن أقتلك وأدفنك في الباحة الخلفية. يا للعار. يا للعار. لا تحضري جنازتي. لست أمك. أنت لا تمثلين شيئًا لي. أنت ميتة بالنسبة لي. أتمنى لو أنكِ كنتِ قد مِتِّ. كيف لكِ أن تفعلي هذا بي؟"

عندما توقف صراخها صارت متجهِّمةً. صار صوتها مستقرًّا وفيه نبرة عزْمٍ.

"لن أخاطر بتركِكِ تعيشين لكي تتركي الإسلام. سوف أقتلك قبل أن تفعلي ذلك. لن تجريني إلى جهنم معكِ".

كانت تؤمن أن عليها قتلي لتنقذ روحها. لم ترَ خيارًا آخرَ بحسب دينها. إذا ربَّتْ ابنةً ثم ارتدَّتْ تلك الابنةُ، فستعاقب على ذلك في الآخرة إلى الأبد. وسيكون ذلك بسببي. سوف يعاقبها الله على ذلك. فعليها قتلي لتتأكد من أن ذلك لن يحدث أبدًا.

لم يفاجئني ما وصلَتْ إليه. توقعتُ ذلك. لكن مثلما تزوجت عصام متمنيةً أن يصير شخصًا محترمًا، فقد تمنيتُ ألا تصل أمي إلى مثل هذا الاستنتاج الحتمي. لكن الأمر كان منطقيًّا. كان دينها دائمًا قبل حاجاتي ورغباتي وسعادتي وحتى سلامتي، وذلك منذ أن كان سني ست سنوات عندما كنتُ أُضْرَب بسبب عدم الصلاة. لذلك لِمَ ستكون الأمور مختلفة فجأةً الآن؟ كانت تعاليم الدين تأتي دائمًا قبل كل شيء آخر، وكانت أوامر الله أهم من أي شيء آخر.

واين

بعد أن أوصلتها في ذلك اليوم لم أرها مجددًا قط. وكان ذلك سنة ٢٠٠٤. اتصلت بها بعد ذلك مرتين من مكان بعيد آمن لم أخبرها عنه. لكن لم يطل الوقت بعد ذلك اليوم البغيض حتى تقبَّلْتُ أن لا جدوى من محاولة الحفاظ على العلاقة بيننا. لم أعد مهتمة برضاها. لقد نضجْتُ وتجاوزتُ ذلك. وقد كان ذلك عماد علاقتنا الوحيد. كانت تمنعني حبها حتى أرضخ لأوامرها وأفعل كل شيء أستطيعه لنيل رضاها. انكسرت تلك الحلقة الآن، لأنني تقبلت حقيقةَ أني مهما فعلت فلن يكون ذلك كافيًا. لن تكون هناك مرحلة أو لحظة تأتي فتمنحني عندها الحب والتقبل الذين سعيت لأجلهما بكل ما أوتيت من قوة. حتى زواجي من الرجل الذي اختارته هي، وعيشي كشبح إنسان دون شعور بالذات لم يُرْضِها.

قررت أن أعيش لأجل سعادتي الآن وليس سعادتها. أحزنني كثيرًا أن سعادتها تتسبب في تعاستي وأن سعادتي تسبب لها التعاسة. لكن لم يكن هنالك أي شيء آخر أستطيعُ فعله حيال هذا. لدي حياة واحدة وفرصة واحدة على هذا الكوكب ولن أضيعها لأجل سعادة أو رضا أي شخص آخر غيري.

لم يكن لهذا تأثير على حياتنا اليومية لأنها لم تكن حاضرةً في حياتنا على أي حال، لكن الأمر كان أشبه بموتٍ قد حدَثَ، موت الاحتمال الذي كان يمكن أن يحدث. حاولت فعل الأشياء كما أرادت هي، لكني لم أرد أن أمضي حياتي أتمرغ في الوحل من أجل وعد الجنة. لم تبْدُ الجنة حتى مغرية بل بدَتْ سخيفة. لقد اختُلِقتْ الجنة لإغراء عقلِ ذكرٍ، لكن بالنسبة للنساء فإنها تبدو مملةً. كما أنني لم أعد أؤمن بأي من تلك الجوائز أو حبات الجزَر الخيالية المحفِّزة. لا شيء حقيقي ومضمون إلا النفس الذي أتنفسه. سأغتنم اللحظةَ وأستمتع بالحياة![1]

تطلب الأمر مني بضع سنوات لكي أتغلب على حقيقة أنها لن تتصل بي أبدًا وأنها لن تقبلني كما أنا أبدًا. لن تكون الأم التي أردتها أن تكون لي أبدًا. لم يكن لدي خيار إلا أن أتقبل أنني صرت ميتةً بالنسبة لها حقًّا وأنها هي أيضًا صارت ميتةً بالنسبة لي.

لكن الحياة استمرت وانتقلت أنا وابنتي وواين إلى بيت جديد رائع. لقد اشترينا كل الأثاث معًا. كانت لدينا سيارتان. كانت الأمور من الخارج تبدو كأن لدينا كل شيء نحتاجه.

كان واين متكيفًا وموافقًا على كل شيء. كان لا يمانع موافقتي في أي شيء أردته.

أذكر أني كنت أجلس لائمةً نفسي على عدم شعوري بالسعادة. فما الذي يمكن أن أريده أكثر من هذا؟ كان لدي كل شيء يرى المجتمع أنك تحتاجه لتكون سعيدًا. لكن لسببٍ ما لم يكن ذلك كافيًا. لقد مررت بالكثير وكنتُ مرهَقَّة، لكن بطريقة ما فإن القبول بالعادي جعل كل ذلك عبثًا.

---

[1] باللاتينية في الأصل: Carpe diem.

عندما التقينا كنا نحن الاثنين في فترة انتقالية من حياتينا. كنت أنتقل من كوني مسلمة تحت سيطرة أمي إلى صيرورتي امرأة مستقلة وأمًّا وطالبة أشق طريقي معتمِدةً على نفسي.

وكان هو فقد أمه بسبب السرطان قبل سنة من التقائنا. أعتقد أننا احتجنا نحن الاثنين الاستقرار الذي يمنحه الزواج. كلانا كنا نتوق إلى الجو العائلي الذي نفتقده في حياتينا.

قدمنا هذا لبعضنا، لكننا لم نكن قادرين على تقديم ما هو أكثر من ذلك. كنا غير متلائمين في كل شيء آخر. بحسب علم النفس الرائج أو الشعبي[١]، فقد كنا كلانا أخًا أصغر أو أختًا صغرى في أسرة كلٍّ منا، ومن ثَمَّ لم يكن أي منا يرغب في أن يقود السفينة. وقد هناك شيء من الحقيقية في ذلك القول. كان يبحث عن شخصية أمومية، وكنتُ أبحث عن شريك قوي يهتم بي ويساعدني على خلق جو عائلي مستقر لي ولابنتي. لم أرد شخصًا آخر أعتني به.

بينما كنا ثلاثتنا جالسين نتناول الفطور قبل نهاية زواجنا القصير جدًّا، بدأت أضع المربى على قطعة الخبز المحمص التوست الخاصة بي.
سألتني ابنتي: "هل لي بنصفها؟"
فقلتُ لها: "بالتأكيد"
فسألني واين: "هل لي بالنصف الآخر؟"

توقفت لجزء من الثانية ثم أعطيته النصف الآخر. لقد عشت للتو ملخصًا لحياتي. كانت هذه هي بالضبط. طالما أنا معه فستكون حياتي هكذا. سوف أعطي دائمًا ولا آخذ شيئًا.

تعلمت الكثير من واين. تعلمت أنني أستحق الحب. جربت إحساس أن أكون في علاقة حب. تعلمت أني أستطيع أن أواصل كسر الحواجز وتحدي الله وأن لا شيء سوف يحدث! ورغم أنني كنتُ لم أعد أؤمن بهذا الهراء إلا أن الخوف والشك بأنني قد أكون على خطإ كانا يتسللان إلى وجداني بين الفينة والأخرى. لكنني مارست الجنس خارج الزواج وهي أكبر الكبائر بالنسبة إلى امرأة ولا أزال بخير. لقد أدركتُ أني تزوجته لأنه كان آمنًا وواثقا من نفسه بينما كنت أنا هشَّةً ومكسورة. لقد أدركتُ أنه كان رائعًا ومناسبًا لي آنذاك، وأنا ممتنة لأننا كنا موجودين من أجل بعضنا البعض عندما احتجْنا بعضَنا البعضَ. لا أستطيع أن أقول بصدق أنني كنت مغرمة به. لكني بالتأكيد أحببته. لكن هذا لا يكفي لاستمرار زواج.

كان الطلاق منه مخيفًا. كنتُ قد خسرت للتو كلَّ شيءٍ بما في ذلك هويتي. كان قد ملأ فراغًا هائلًا في حياتي لكنني عرفتُ أنني لن أحبه أبدًا بالطريقة التي أرادني أن أحبه بها. لقد تزوجتُ أولَ فتى رأى شعري ووجدني جذابة. كان من

[١] يتألف علم النفس الرائج والذي يُعرف أيضًا باسم علم النفس الشعبيّ من المفاهيم والنظريات التي يُزعَم أنها مبنية على علم النفس والتي لها عند الناس مصداقية كبيرة ولها بينهم انتشار واسع، ترتبط هذه المفاهيم والنظريات بالحياة الذهنية والسلوك الإنسانيين. يستعمَل هذا المصطلح غالبا بطريقة ازدرائية لوصف مفاهيم سيكولوجية تبدو مبسّطة أو قديمة أو غير مثبتة أو مفهومة أو مفسّرة على نحو خاطئ، لكن قد يستعمل أيضا لوصف المعرفة النفسية المنتَجة باحتراف، التي يراها معظم الخبراء صالحة وفاعلة، ويستعملها في نفس الوقت عامّة الناس.

الممكن أن أقابل فتيانًا آخرين وكنت لأختار واحدًا آخر والذي كان ليحمص الخبز من أجلي، وليس يأخذ خبزي المحمَّص.

الدوحة

في السنة التي سبقت وصولي إلى سن الثلاثين قبلت بوظيفة تدريس في جامعة في الشرق الأوسط، في الدوحة، قطر. دولة لم أكن قد سمعت بها من قبل. كنت خائفة من اتخاذ أي قرارات في حياتي، لكن هذا القرار كان كبيرًا ومخيفًا على نحوٍ خاصٍّ. كانت هذه أول مرة أعتمد فيها تمامًا على تقديري وحكمي الشخصي وقدرتي على اتخاذ قرارات سليمة. وإذا فشلت فسأدمر حياة ابنتي أيضًا.

كانت حرب العراق الثانية مستعرة الوطيس، وكنت أخشى أن أكون أتخذ قرارًا خاطئًا. قررت الاتصال بأمي وإخبارها بقراري. استغلت الفرصة لإخباري بكم أني أم عديمة المسؤولية لأنني آخذ ابنتي إلى منطقة نزاع حيث قد يقتلها الكفار. ندمت على قراري بالاتصال بها، فقد جعلتني أشعر على نحوٍ أسوأ فقط.

كان علي قبول المنصب فقد عرضوا علي مرتبًا كبيرًا مع توفير سكن مؤثَّث وأجهزة ومرافق يدفع تكاليفها صاحب العمل . كما أنهم منحوني وقت إجازة كبير، بالإضافة إلى ثمن تذكرة العودة إلى الوطن سنويًّا. سوف يكون بمقدوري سداد كل قروضي الطلابية، ومنح ابنتي الحياة التي تمنيتها لها، ويُحتمَل أن أقدر حتى على العودة إلى كندا بمال كافٍ لدفع عربون شراء منزل! كيف لي أن أرفض؟

استمعت إلى أغنية غلوريا غاينور "سوف أظل حيةً" وأغنية فرانك سيناترا "طريقي" و أغنية إيمينيم "انغمس في الأمر" على نحو متكرر لأشجع نفسي. كما كانت أغنية "الإيمان" لجورج مايكل وأغنية "فلتبدأ الحفلة" لبينك ضمن مختارات ذلك السي دي.

كان علي أن أحافظ على هدوئي وتركيزي، وأُسكت كل الشكوك. كان علي فعل هذا. لقد مررت بالكثير، ولذلك قلتُ لنفسي أن هذا سيكون سهلًا كتمشية في حديقة مقارنةً بكل ذلك.

كان الشيء المقلق الحقيقي الوحيد لي هو أني سأعيش في بلد مسلم. كان لدي لقب واين ولم أبدُ عربية. ما أقلقني فقط هو اسمي، لكني فكرت أن أكتفي بالقول أن أمي مصرية مسيحية قبطية. كان اسمي عربيًّا لكن ليس إسلاميًّا. يمكنني النجاة من ذلك بألا أخبر أحدًا بأني كنتُ يومًا مسلمة.

ورغم أني كنت لم أعد مسلمة، إلا أني لم أكن قد قررت بعدُ ما الذي سأعتقد به. مررت بعدة مراحل. أولا صرت مسلمة غير ممارسة للشعائر، ثم صرتُ لا أعتقد بأي ديانة مؤسسية نظامية، ثم صرت روحانيةً غيرَ متديِّنةٍ، ثم صرتُ لا أدرية وفي النهاية اخترتُ هويتي كملحدة. اكتشفت في النهاية مصطلح " مسلمة سابقة (أو مسلم سابق)"، لكن ذلك حدث بعد سنوات عديدة. وخلال تلك تلك المراحل كنت أعتقد صدقًا أني الوحيدة التي تمر بهذه التجربة. لم أكن قد عرفت أو سمعت من قبل بأي مسلم ترك الإسلام. لم يكن ذلك خيارًا متاحًا. الإسلام جزء من هويتك. الأمر أشبه بأن تختار ألا تصير أسود بعد الآن. لا يمكنك ذلك. إنها هويتك.

تطلب مني الأمر سنوات لكي أكتشف وأفهم أن الإسلام ليس هوية. الإسلام أيديولوجيا أنت تختار أن تتبعها أو لا. إذا اخترت عدم اتباعها سيتسبب ذلك بحكم إعدام على نفسك بالتأكيد، لكن المقصود أن الإسلام لم يكن جزءًا من ذاتي. كان باستطاعتي التخلص منه وقد فعلت.

لكن قبل القيام بذلك كان علي المرور عبر العديد من خبرات التعلُّم. كان طريقًا وعرًا وموحشًا. يجد المسلمون السابقون في العصر الحالي وسائل التواصل الاجتماعي التي تساعدهم وترشدهم، لا يزال الطريقُ وعرًا مظلمًا، لكنه على الأقل لم يعد موحشًا مليئًا بالوحدة.

من الغريب الآن أن نقرأ عن مدى شيوع مقولة المسلمين السابقين: "اعتقدتُ أني كنت الوحيد [على هذا الطريق]". لقد اعتقدتُ فعلًا أني الوحيدة أيضًا، ذلك لكن هنالك ملايين الآخرين الذين اعتقدوا ويعتقدون مثلي أنهم الوحيدون.

الإسلام يعزلك بهذه الطريقة. هذا مثل سرب سمك يسير كله في اتجاه واحد، وإذا خرجت عن المسار تُنبَذ وتُعتبَر مختلفًا. يخبرونك بكل الطرق أنك مكسور وأنك يتلبسك الشيطان وأنهم في حاجة إلى إرشادك وإصلاح أمورك أو إنقاذك. إنه عارٌ. فتشعر أنك منبوذ. كيف لك أن تفكر حتى في مشاركة أفكارك القذرة مع أي أحد غيرك؟

كل هذا جزء من المنهج الخبيث الماكر للمحافظة على السيطرة على الأُمة. كيف تسيطر على الأفراد؟ حَوِّلْهم الى روبوتات دون عقول. تلاعب بعقولهم منذ طفولتهم لكي يؤمنوا حقًّا بأنه لا يوجد إلا طريق واحد. ذلك ما يخبرونهم به يوميًّا منذ الوقت الذي يبدؤون فيه في القدرة على فهم الكلام.

سرعان ما صرت محاطة بسرب السمك هذا بعدما حطت طائرتي في قطر. في الواقع، لقد كان ذلك منذ أول محاضرة تعارف. أتتني امرأة محجبة متحمسة للغاية مسرعَة نحوي بينما كنت أخرج من الحمام، وسألتني:

"اسمك ياسمين! هل أنتِ عربية؟"

رددت عليها: "نوعا ما. أمي مصرية". كان علي أن أقول لا فقط.

"أوه. أهلًا وسهلًا. أنا مصرية أيضًا".

وفجأة صرت محاطة بسرب من النساء المتحجبات من حولي. حاولت تجاوزهن بدفعهن برفق لكي أغسل يدَيَّ.

جاوبتُها قائلةً: "أهلًا بيكي!". وشعرتُ فورًا أني غبية.

"أوه. تتكلمين العربية! هل عشتِ في مصر قط؟ أين عشت؟ هل أنتِ من القاهرة؟ كم أشعر بالإثارة للقائك. نجتمع معًا للرقص الشرقي كل يوم جمعة. هل تودين القدوم؟ هل تحبين عمرو دياب؟ هل تعرفينه؟"

كنت حقًّا أحس باختناق وأنا أحاول المرور من مكان المناديل الورقية إلى باب الخروج. كانت هؤلاء النساء يحاولن فقط أن يَكُنَّ لطيفات، لكني شعرت بأنهن مقتحِمات فضوليات، وارتعبتُ.

لم أرد أن يعرف الناس أني كنت مسلمة. كنت أعيش في بلد تحكمها الشريعة وعقوبة الردة هي الموت[١]. ليس هناك استثناءات في ذلك. هذا أخطر ما في الإسلام في العصر الحالي: الشريعة.

لا توجد أي دول دينية ثيوقراطية في العالم اليوم ما عدا الدول التي تحكمها الشريعة الإسلامية، والتي تتضمن بالطبع السبعة وخمسون دولة الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي. هذا مرعب. طالما تتبع هذه الدول الشرائع الإسلامية فلن تتقدم أبدًا وتتجاوز شرائع القرن السابع الميلادي الهمجية الميسوجينية (الذكورية المعادية للنساء) والمعادية للحريات والهوموفوبية المعادية للمثليين. يحق للناس أن يؤمنوا بكل الآباء الذين في السماء والخرافات طالما هم يختارون أن يؤمنوا به، لكنْ لا يحق لهم أنْ يفرضوا عقائد وتعاليم أصدقائهم الخياليين على غيرهم. هذا على الأقل لا يحدث في الديمقراطيات الحديثة.

ولكوني وُلِدْتُ في دولة علمانية ليبرالية ديمقراطية فإني لم أكن أعرف ما الذي وضعت نفسي فيه. وهذا كان في صالحي. فلو أدركت على نحو كامل مدى الخطر الذي وضعت نفسي وابنتي فيه لما ذهبت قط.

لا توجد قوانين علمانية أو مبدأ حرية دينية يحميني هنا. وفقًا لحكم الشريعة، إذا تركت الإسلام فسوف تُقطَع رأسُكَ. نهاية القصة بلا نقاش.

وبينما أحاول ألا أصاب بنوبة هلع وتسارع تنفس، وأهرب من هناك بدون الرد على أيٍّ من أسئلتهن، دخلت زميلة. كانت تعمل في قسم الموارد البشرية. كان اسمها جينيفر وكنت للتو سمعتها تتكلم في محاضرة التعارف الأولى. لم أكن أعرف شيئا عنها لكن رؤيتها سمحت لي بأن أتنفس الصعداء مجدَّدًا. مددت يدي نحوها غريزيًّا، مثلما تفعل لو كنت تغرق في حمام سباحة وترى ظلًّا فوقكَ.
"هل أنت بخير؟" سألتني وهي تأخذ بيدي.
"لا. لا أحس أنني بخير. أعتقد أنني أحتاج بعض الماء"
"أوه". تفرق سرب النساء وتركوني أمر.

[١] بمراجعة المعلومة فما تقوله السيدة/ ياسمين صحيح شكليًّا، حيث ينص القانون القطري في قانون العقوبات على عقوبة الردة في مادته الأولى: "تسري أحكام الشريعة الإسلامية في شأن الجرائم الآتية إذا كان المتهم أو المجني عليه مسلمًا: جرائم الحدود المتعلقة بالسرقة والحرابة والزنا والقذف وشرب الخمر والردة". لكن هذه القوانين في دول كقطر والأردن والعراق أيام صدام حسين تكاد تكون عمليًّا حبرًا على ورق، لأنها ليست دولًا تُطبَّق فيها حرفيًّا الشريعة الإسلامية كما في السعودية وأفغانستان في فترة حكم طالبان والقاعدة. لا يوجد في الحقيقة عقوبة إسلامية مثلًا في قطر على السرقة أو العلاقة الجنسية الحرة أو القذف أو شرب الخمر في حدود علمي وقد عشت بها فترةً في طفولتي في أكثر فتراتها انغلاقًا وعدمَ انفتاحٍ في حكم الأمير خليفة، تبدو هذه موادًّا لترضية بعض أفكار الشعب القطري التقليدي فقط أو حتى سلاحًا مشهَرًا احتياطيًّا وتهديدًا ضد تصرفات مثل محاولات الثورة أو الانقلاب العسكري بتهمة إسلامية مقولبة جاهزة كالحرابة، لكن لا يُتصوَّر أن دولة كقطر أو الكويت ستمارس صلب بعض الأشخاص بعد قطع أطرافهم من خلاف أو جلد الناس أو قتلهم لأجل عقائدهم. في دول كهذه يكاد يكون الخوف مقتصرًا على تصرفات الأفراد لأن أغلبيتهم الساحقة متدينون تقليديون سلفيون. أيضًا لم تدرك المؤلفة الطبيعة الغالبة في عموم الدول العربية، وجود جنسية غربية أو أجنبية غير عربية من دولة متقدمة لك يعطيك حصانةً بدرجة كبيرة من تعرض الدولة وحكومتها وشرطتها لك بأي طريقة حتى تحت دعوى مخالفتك لقيم وأخلاقيات وعقائد تلك الدولة، فهم يحسبون ألف حساب للأجنبي لأن التعرض له سيسبب مشاكل وأزمات دبلوماسية كبيرة، فيهتمون باضطهاد وسجن وتعذيب وإخفاء وربما حتى قتل مواطنيهم هم إن عارضوا الحكم والسياسة أو تركوا الأفكار الدينية التقليدية.

وبينما اصطحبتني زميلتي إلى صنبور ماء الشرب، أخذت تتحدث بهدوء عن حرارة الصحراء وكيف أنها تصل أحيانًا إلى ٥٠ درجة مئوية وأن علي أن أحرص على شرب الماء الكثير من الماء. قاطعتها لأخبرَها بأن الحقيقة هي أني كنت منزعجة بسبب النساء في الحمام.

"ما الذي فعلنه ليجعَلْنَكِ منزعجةً ؟"

"لا أعرف"

ما الذي كان يمكنني قوله؟ لم أرد وضع أولئك النساء في مشكلة فقط لأنهن كن ودودات، لكني في نفس الوقت شعرت بالحاجة إلى إعادة ضبط أموري. لم أرِدْ أن يعرفن أني نصف مصرية. لم أرد أن يعتقدن أني واحدة منهن. لم أرد أن أقع في متاعب. كنت خائفة للغاية من أن حقيقة خلفيتي قد تنكشف لا إراديًا. لم أستطع أن أكون معهن. غمغمت على نحو غير واضح، غيرَ قائلةٍ شيئًا، و في النهاية تجاوزت زميلتي الأمر.

"حسنًا. سوف أخاطبهن"

قلت لها: "لقد كن فقط ودودات فقط. لا أريد أن يقعن في مشكلة".

"لا، لا بأس. أنا أتفهم الأمر"

لكن كيف لها أن تفهم؟ لابد أنها ظنت أني مجنونة.

بعد ذلك حرصت على ألَّا أكشف أنني أفهم العربية أبدًا، وألا أنطق أي كلمة عربية أبدًا. كما لم أفصح قط عن أني نصف مصرية إلا إذا كنَّ زميلات كنديات بالتأكيد. وحتى معهن كنت حذرة في مقدار المعلومات التي أفصح بها.

لحسن الحظ أنه مقارنة بالدول العربية، فإن هوس الهوية غير موجود تقريبًا في كندا متعددة الثقافات. أغلب الكنديين لا يكترثون في الحقيقة بمعرفة أي شيء عن ماضيك [فالواحد أو الواحدة منهم قد تسألك فقط]:

"من أي مكان في كندا أنتِ؟"

"ڤانكوڤر".

"حسنًا، عظيم".

انتهى الحوار.

أما لو كان المخاطب عربيًّا لقضى عشرين دقيقة في محادثة لاستخراج كل شيء عن خلفيتي الإثنية والدينية والجغرافية لكي يضمن أن يصنفني بكل الأفكار والتصورات والافتراضات النمطية ذات العلاقة. كنت معتادة على هذه الحياة المنتهكة للخصوصية الشمولية المحاصِرة التي تجعلك كَسَمَكِ الزينة في الحوض الزجاجي الشفاف. أذكر ذلك منذ أن كنتُ في مصر. شعرتُ فورًا بنفور كالغثيان من أعود للحياة على هذا النحوِ مرةً أخرى[1]. ليس كل العالم لديه نظام طبقات اجتماعية دينية هندوسي، لكنه قد يكون كذلك.[2]

---

[1] كمصري وعربي ملحد، يمكنني القول فعلًا مع كل الحب للمصريين الذي أنتمي لهم، أن غالبية شعبي المصري _وعلى الأرجح كل الشعوب العربية كذلك_ لا يُطاق من جهة تقليدية الأفكار والشمولية الاجتماعية وانعدام ومصادرة الحريات والتطفل في حياة كل فرد في المجتمع- لؤي عشري.

[2] تقصد أنها لا تدري إن كانت كل دول العالم العربي والإسلامي لها نفس الأوضاع، لكن يُحتمَل لمن ليس له اطلاع عميق على أوضاع كلِّ واحدةٍ منها، أن تكون كلها بنفس الأوضاع تمامًا. ولعل الفروق في درجات الحرية الاجتماعية قليلة بسيطة بين تلك الدول كلها، أما الحرية السياسية في التعبير والممارسة فهي معدومة فيها كلها في العموم.

إذن فقد حدث الكثير وفي وقت قصير بسرعة. فبدأت عملًا جديدًا في بلد جديد (قطر) وصرت أعيش في بيت جديد. بدأت ابنتي تذهب الى مدرسة جديدة. وبالإضافة إلى كل هذا كنت أمر بإجراءات الطلاق. في إحدى المرات بينما أخرج البقالة من الأكياس انهرت لرؤيتي علبة مربى.

كانت ابنتي تفضل ساندويتشات المربى بزبدة الفول السوداني التي يعدها واين على ساندويتشاتي لأنه كان دائمًا يحسن وضع المقادير.

بعدما بكيت على الأرض وبين ذراعي علبة مربى وباب الثلاجة مفتوح على مصراعيه نهضت ونفضت ملابسي وواصلت رص البقالة. لا وقت لدي للبكاء على الماضي. لا وقت للتعامل مع هذا. علي أن أواصل المسير. هكذا تعاملت مع كل المآسي في حياتي وهكذا تعلمت. وهكذا كنت أعيش بالضبط إلى أن قررت أن أجلس وأكتب هذا الكتاب.

توقف كل شيء فجأة عندما فجرت سيارة مفخخة مسرحًا محليًا. كان ذلك المسرح مخصصًا للأجانب فقط، وكان مليئًا بالبريطانيين والأمريكيين والأستراليين والكنديين. كانت لدي تذاكر للذهاب الى عرض تلك الليلة لكنني لم أذهب لأن ابنتي مرضت.

توفي المصري الذي صدم السيارة في المبنى على الفور. استطاع كل من كانوا في المسرح الهربَ عندما سمعوا دوي الاصطدام الهائل. حالما خرجوا كلهم، عاد مدير المسرح إلى الداخل للتأكد من أن الجميع قد غادروا وعندئذ انفرجت القنبلة. لم ينجُ المدير.

كان وقع ذلك اليوم علي مثل وقع أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

فكرت جديًّا في أن أجمع أغراضي وأعود إلى بلدي. لكن أعود إلى أين؟ لم أعد أنا وواين متزوجين. لا يمكنني العودة للعيش مع أمي. على الأقل لدي بيت وعمل هنا. كان علي أن أنجح. قررت أن أمنح الأمر فرصة ثانية متمنيةً ألا أندم على ذلك. إذا حدث أي شيء آخر فسأستقل أول طائرة إلى كندا.

تطور لدي تشنج عصبي (غمز لا إرادي) في عيني اليمنى ولم تتوقف إلا بعد ستة شهور. وما عدا ذلك و تلك المرة في الجامعة التي شلت فيها ذراعي قبل امتحان، ونوبات الهلع التي كانت تصيبني من وقت إلى آخر، استطعت تفادي أي أعراض جسدية لتوتري. أرعبني ذلك التشنج لكنني تجاهلته ومضَيْتُ قُدُمًا.

لم تحدث أي هجمات إرهابية أخرى فبدأت أسترخي وأستمتع بحياتي الجديدة. كانت فرصة جديدة غريبة لكي أنسى كل الماضي وأبدأ حياتي من جديد. لم يكن يعرفني أي أحد في قطر ولا عرف أحدٌ أيَّ شيءٍ عني. كنت قادرة على إعادة صنع نفسي على النحو الذي أريده. بحلول ذلك الوقت، كنت قد تمكنت من تفكيك ذاتي المسلمة بالكامل. ومن ثَمَّ كان الوقت قد حان الوقت الآن لإعادة بناء نفسي من جديد. إنها فرصة نادرًا ما يحصل عليها الناس، وهي فرصة استغلَلتُها إلى أقصى حدٍّ.

صرت آنذاك أخيرًا قادرة على أن أكون نسوية حقيقية وليس نسوية مسلمة مرتبكة ومبرِّرة ومدافعة عن أخطاء تعاليم الإسلام باستمرار. لم يعد علي أن أختلق أعذارًا لتبرير إعطاءِ اللهِ المزعومِ المرأةَ نصفَ ميراثِ الرجل أو سبب اعتبار المحاكم الشرعية شهادة المرأة بقيمة نصف شهادة الرجل[1] أو سبب قول محمد أن المرأة ناقصة عقل. صرت قادرة على التنديد باطمئنان بكل الميسوجينية (العنصرية والكراهية ضد النساء) دون أن أشعر بالخوف من أني قد أعاقب في حياة أخرى. صرت قادرة على أن أقول بفخرٍ لنفسي ولابنتي أننا ذواتا قيمة، وأننا لسنا في مرتبة ثانية بالنسبة إلى أي أحد.

للأسف كنت في بلد كان فيه المجتمع في خلاف تام في كل شيء مع موقفي النسوي الجديد غير المدافع عن عيوب الدين. كنت أرى بحرًا من النساء في زي أسود لا تميزهن من بعضهن البعض، كلهن مكفَّنات بالأسود وممحيات الشخصية. إنه مكان لم تجد النسوية فيه بعد موطئ قدم لها بعد. لا أحد_ حتى النساء_ كان مستعدًا للتفكير بأن النساء مساويات في المجتمع للرجال لأن ذلك يناقض دينهن الذي يتمسكن به بقوة. برؤيتي أولئك النساء وتفاعلي مع الطالبات فهمت أن ذلك موطن الداء. علمت أن النساء اللواتي يذبلن تحت الأزياء الخانقة كن متعطشات للحرية والاستقلال، على الأقل بعضهن كن كذلك. إنها الطبيعة البشرية. كن قادرات على الكذب على أنفسهن فقط كثيرًا. يمكن أن يستمر التنافر المعرفي والكذب على الذات إلى مدىً بعيدٍ، ثم تواجه مرحلةً يتقاطع فيها الواقع مع خيالك. إذا كانت النساء ملكات في الإسلام وإذا كان محمد أول نسوي، فلم لم يكن بوسعي تطليق زوجي العنيف؟ يسمح له الدين بضربي واغتصابي ولا يسمح لي بتطليقه. سوف تعرف النساء المسلمات الواقعات في المصيدة يومًا ما سبب أَسْرِهِنَّ. تمنيتُ لهنَّ جميعًا أن يحصُلْنَ على حريتهن وسعادتهن كما فعلتُ. أثقُ أنهن سوف يتمردنَ وينهضْنَ في النهاية، أتمنى فقط أن أحيا إلى أنْ أَشْهَدَ هذا.

بقدر ما أردت أن أتواصل مع أولئك النساء وأن أساعدهن فقد كنت مشغولة بثورتي واضطراب حياتي الخاصين بي. لم تكن حياتي سهلة. لكوني كنت أعيش في دولة دينية، فقد كنت متوترة دائمًا لأني لا أعرف ما الذي قد يحدث. كنت واعية جدًّا بأني لم أكن في وطني وبأني كنت في بلدهم. ويمكنهم طردي في لحظةٍ بلا إشعارٍ لأصغر تصرف أو خطوة خاطئة أرتكبها. كان هذا مخيفًا مرهقًا للأعصاب خاصةً لأنَّ لديَّ طفلةً. لم أتحرر من كل الضغط الذي كنت أعيشه لا إلا بعد سنتين من عوتي إلى الأراضي الكندية، ولم أكن أدرك حتى أني لا أزال مصابةً بذلك الضغط.

كان كل شيء في قطر مفروضًا بالإملاءات بدءًا بمكانك في التراتبية العرقية: العرب القطريون في القمة، يتلوهم الغربيون (الأمريكيون والكنديون والأستراليون والبريطانيون)، ثم الخليجيون، ثم العرب الآخرون (اللبنانيون والمصريون والسوريون إلخ...) ثم الفلبينيون، وأخيرًا في القاع الأشخاص الذين من جنوب آسيا (الهنود والباكستانيون والبنغاليون). يملون عليك ما تلبسه، وخاصةً بالنسبة للنساء، وكذلك ما تأكله وتشربه وأين تذهب وأين تعيش. لديك مكان محدَّد في ذلك المجتمع. وإذا أردتَ أنْ تعيشَ في قطر فعليكَ أن تعرف موقعك في المجتمع وتلزَمَهُ.

---

[1] معظم الدول الإسلامية اليوم على حد علمي لا تعمل بمبدإ أن شهادة المرأة بنصف قيمة شهادة الرجل، بل لا تعمل الأغلبية الساحقة بتشريعات الإسلام، لكن يظل للإسلام أثر سام سلبي على القوانين نصف المدنية الشائهة المتخذة لطابع ديني لا تخطؤه عين الفاحص، ناهيك عن أن تطبيق السلطات التنفيذية كالشرطة يأتي دينيًّا سلفيًّا أغلب الأحيان وضاربًا عرضَ الحائط بأي قانون شبه مدني عربي، وأحيانًا تتسم القوانين في الدول العربية بنوع من انفصام الشخصية، مثلًا في مصر صناعة وبيع وشراء الخمور فعل قانوني غير مجرَّم، ثم يمسكك شرطي لأنك دخت قليلًا من الخمر رغم أنك لا تقود سيارةً ولا عربدت أو ضايقتَ أحدًا، بتهمة قانونية هي السكر والعربدة!

كرهت ذلك البلدَ وأحببته أيضًا. أحببت الصداقات المقربة، وأحببت تضاؤل قروضي الطلابية، وأحببت قدرتي على السفر وأني صرت متشجعة لتجربة أشياء جديدة. كما أني صرت متشجعةً على أن أسمح لابنتي بأن تجرب أشياء جديدة. كانت أم صديقتها المفضلة غريبة ودائمًا تجرب أشياء جديدة. عندما كانت الفتاتان في سن السابعة فقط، تحالفت ضدي في عصابة مع طفلاتنا، لتقنعني بأن أترك بناتنا يركبن قطار الملاهي. لم أكن خائفة فحسب من قطار الملاهي، بل وكنت أيضا خائفة من كونها في بلدٍ نامٍ به معايير السلامة منخفضة أو منعدمة. رضخت في النهاية لكني شعرت بالسقم. قضيت كل الوقت الذي كانت فيه البنات راكباتٍ في قطار الملاهي باكيةً بلا تحكمٍ إلى أن عادت لي ابنتي بين ذراعي. في نفس ذلك الصيف ذهبت نفس تلك البنات _بناتها_ للقفز من الأماكن المرتفعة بالحبال المطاطية في تايلاند. كنت أُدْفَعُ حقًا خارج منطقة راحتي وشعوري بالأمان.

كانت السنة الأولى صعبة حقًّا، لكن كانت أفضل الأوقات عندما أتت تيفاني لزيارتي.

"كأن هذا المكان قد بناه الدكتُر/ سوس. لا شيء منطقي هنا وكل شيء غريب للغاية" قالت تيفاني هذا كأول انطباع لها عن الدوحة.

وجدتها تبكي ذات يوم وهي تشاهد التلفزيون.

"ما المشكلة؟"

صاحت: "انظري، أشجار!".

كان العيش في صحراء قطر الجرداء بالنسبة الى شخص من الساحل الغربي لكندا أشبه بالعيش على سطح القمر.

سألتني في يوم آخر: "ما هذا؟"

"ماذا؟ أين؟"

"هل تلك حيتان؟"

ثم سمعته.

"اللللله"

فهمت أنها تتحدث عن صوت النحيب الطويل المسحوب الأخنف الخاص بالأذان. وبما أنني كنت أسمعه خمسَ مراتٍ في اليوم فقد اعتدت على تجاهله، لكنه كان صوتًا غريبًا بالنسبة إلى تيفاني.

يقولون أن عليك أن تتظاهر بالأمر الى أن يصير حقيقة. حسنًا، لقد تظاهرت بالأمر. كنت أستاذة جامعية وذكية وواثقة. كنت امرأة قوية. كنت المرأة الوحيدة القوية بما فيه الكفاية لكي أكون أمًّا عزباء في مثل هذا المجتمع الميسوجيني الذكوري المعادي للنساء. صرت المرأة التي أردتُ أن أكونَها. صرت إياها على نحو جيد حتى أدركت في مرحلة أني لم أعد أتظاهر. لقد صرت فعلًا ما أردتُ أنْ أصير. أدركت هذا لأول مرةعندما علق عميد الكلية بعد متباعته صفي:

"أنت واثقة من نفسك. ولكل الحق في هذا. أنت أستاذة ممتازة"

"واثقة؟"

لم آبه بإطرائه على قدرتي التعليمية، لأن هذه كانت المرة الأولى التي يصفني فيها أي أحد بأنني واثقة من نفسي. هل انتهيت من التظاهر؟ هل صرت فعلًا واثقة من نفسي؟

"لا أشعر بالثقة في نفسي على الإطلاق. لكنْ شكرًا".

تطلب حصولي على الثقة في النفس حوالي عام ولم يكن بالعمل السهل. لكنْ قد يسَّرَه بالتأكيد كوني واحدة من قلة قليلة للغاية من النساء العازبات في بلد يعج بالرجال العازبين. كان معظم الرجال منحرفين مقززين آتين من دول يُعْتَبَرُ فيها النظر بنظرات شهوانية شبِقة إلى النساء أمرًا مقبولًا تمامًا. ظننت الرجالَ في مصر سيئين الى أن اكتشفت أن الرجال من شبه القارة الهندية وجنوب آسيا أسوأ بكثير. لكنهم على الأقل حافظوا على مسافتهم مني. ما كان أيٌّ منهم ليتجرأ على الحديث إلي[1]، فتفاديت النظر في أعينهم فقط وحافظت على مسافتي.

أما العرب [القطريون والخليجيون] فكان لهم شأنٌ آخر. فهم يعتقدون أن كل النساء مهتمات بهم لأنهم أثرياء. كانوا يُصْدَمون عندما عندما يكتشفون العكس. حتى أن امرأة أجنبية مثلي سألتني ذات مرة:

"لكنك محظوظة جدًّا! لديك كل ما يريدونه! أنت امرأة أحلامهم المثالية. لديك الشعر المناسب ولون البشرة المناسب والوجه المناسب. تستطيعين الحصول على أي شيخ تريدين."

"من المؤسف أنني لا أهتم بأي شيخ."

"يا للخسارة. لو كنت مكانك لما فوَّتُ الفرصة "

هذه الآنسة الصغيرة غير الواعية بالأمور لا علم لها بالذي كانت تضع نفسها فيه. كل ما كانت تراه هو رمز الدولار. لكنني علمتُ الثمن الحقيقي الذي ستدفعه.

للأمانة لم أكن مهتمة بإيجاد رجل. بل ساعدني كوني عازبةً على العمل بجِدٍّ. وكان الرجال المغتربون الأجانب مساعدين لي جدًّا في تعزيز شعوري بذاتي وكبريائي. لم أشعر أنني جميلة للغاية ومرغوب فيَّ مثلما شعرت تلك الأيام. كان عاملًا للشفاء جدًّا أن أحظى بذلك النوع من الاهتمام لأواجه كل سلبية الماضي. كان أوسم الفتيان في المدينة يتجمعون من حولي ويتنافسون للحصول على اهتمامي! كان ذلك تغيُّرًا سرياليًّا لكنْ مرحبًا بهِ.

في السنة الأولى لي في قطر، دخلت في علاقة عاطفية مع زميل لي في العمل. بحلول نهاية تلك السنة كنت قد تحولت إلى امرأة مختلفة عن المرأة التي انجذب إليها في البداية. لم أعد تلك المرأة المتوترة المتزعزعة غير الواثقة في نفسها التي كانت تعيد بناء حياتها ببطئ. صرت آنذاك المرأة التي أردت أن أكون: امرأة قدوة لابنتها. كنت في البداية متقبلة لنوبات عصبيته، لكن رفضت ذلك بعدئذٍ. صرت أعرف أنني أستحق أفضل من هذا.

[1] بسبب النظام الطبقي الاجتماعي واختلاف اللغة، وليس كل الهنود غير متعلمين رديئي الحال بسيطي الأعمال، فمتعلمو الهنود يعملون في وظائف مرموقة مثلهم كالجنسيات الأخرى، وهي هنا تتحدث عن الطبقة الهندية والجنوبي آسيوية الفقيرة التي يغلب عليها رداءة الأخلاق، ولا نقول أن كل فقير هندي ذو أخلاق رديئة بطبيعة الحال.

الحب

ابتدأت سنتي الثانية بطريقة مختلفة جدًّا. صرتُ واثقةً من نفسي ومطمئنةً شاعرة بالأمان في هويتي الجديدة. صرت مستقرة تمامًا في هوية المرأة التي لطالما أردت أن أكون. صرت مستعدة لمواجهة العالم. أردت أخيرًا أن أتقبل الحياة وأستمتع بها كامرأة عزباء. أردت أن أكون مثل آلي ماكبيل أو إحدى نساء سلسلة أفلام "الجنس والمدينة" سكس آند ذا سيتي.

لم يطل الأمر بعد بداية السنة حتى التقيت على نحو غير متوقع بحب حياتي.

لم أرد أن أحبه. لم أرد أن أحب أحدًا. رفضت تودداته مرارًا وتكرارًا لأنني لم أرد أن يخرِّبَ رجلٌ حياتي الرائعة كامرأة عزباء. لكني كنت في نفس الوقت خائفة من أنني لو لم أعلم إلى أين ستصل تلك العلاقة فقد أندم لبقية حياتي. لم أتخيل أنني سألتقي أبدًا شخصًا مثله مجدَّدًا. علمتُ أن هنالك شيئًا مختلفًا فيه. كان هنالك بيننا انجذاب لا تفسير له لم أستطعِ إنكاره، رغم أني حاولتُ.

كل مرة صدَدْتُه كان يقول لي بكل لطفٍ أنه يفضل أن نظل صديقين على ألا أكون في حياته على الإطلاق. كان دائمًا يعرف بالضبط ما الذي يجب عليه قوله وفعله. وليس لدي فكرة كيف كان يفعل ذلك. كنت أجد أسباباً للاعتقاد بأن علاقتنا لن تنجح، وما إن أراه مجدَّدًا حتى يمحو كل الأسباب أيًّا ما كانت، حتى وإن لم أقل له شيئًا. كانَ يَعْلَم بالغريزة.

كان بيننا صلة فورية لا يمكن إنكارها. ومهما كنت أبتعد عنه وأصده لم يكن ليسخر مني قط. تجاهل عصبيتي وتقلبي واستمر في إدهاشي. لقد تجاوز كل الحواجز والعقبات دون جهد. كنت قد اعتدتُ للغاية على أن أكون عقلانية وواقعية ومتجاهلة قلبي ومشاعري، فقد كانت تلك الطريق الوحيدة التي أستطيع النجاة بها. لكنه كان يجعلني أريد الإصغاء إلى قلبي. احتجت إلى المرور بعلاج لكي أتعلم الثقة بأحدٍ مرةً أخرى. وفي النهاية فتحت له الباب. تخليت عن كل مخاوفي وقلقي ومشاكل عدم ثقتي في الآخرين وتركت نفسي أقع في الحب.

كانت هذه أول مرة في حياتي أعيش فيها علاقة حب. المرة الأولى التي عرفت فيها شعور أن تُحِبَّ وتُحَبَّ على نحوٍ حقيقيٍّ. تطلب مني الأمر وقتاً لكي أتعرف على هذا الشعور الغريب المجتاح لي؛ وهو السعادة. انحلَّ الضيق الذي كان في صدري، وهدأ شعوري بالغضب. كنت فوق السحب أعيش حلما سحريا أكثر مما كان يمكن لي أن أتخيل.

ثم جرحني. بالنسبة لمرتبِطيْنِ عاديَّيْنِ ربما كان أسهل عليهما تجاوز تلك الأمور، لكني لم أكن امرأة عادية. لم أكن قد مررت بأي ألم ومعاناة وتعب عاطفي، وكانت تلك أول مرة في حياتي أؤمن فيها بأن لدي الفرصة لأعيش أمرًا مختلفًا. كنت قد وثقت فيه وصدقته. واعتقدت حقًّا أني أستحق كل هذا الحب والإعجاب. لكن الآن أخذت شياطيني الداخلية تتحداني. [فصرت أقول لنفسي:] كم أنا غبية لكي أكون بهذه السذاجة. ما كان علي أن أسمح لنفسي بأن أكون ضعيفة. وبالطبع _مثلما هو متوقَّع من كل شخص في حياتي_ جرحني.

يقال أن المتضادات تتجاذب وهذا صحيح منطبق بالتأكيد على حالتنا. كان يعيش حياة ساحرة. لم يكن يعرف معنى المعاناة والكفاح. كان التوتر بالنسبة له مصطلحًا غامضًا لم يجربه ولم يكن لديه فكرة عن ماهية الشعور به. بينما بالمقابل لم أكن أعرف ماهية شعور الحياة بدون توتر. في السنوات العشر التي سبقت لقاءنا كان يقضي وقته في السفر عبر أنحاء أورُبا دون أي مشاغل، في تناقض صارخ مع الكيفية التي عشتُ بها آخر عشر سنوات من حياتي قبل معرفته.

كنا من عالمين مختلفين تمامًا. لو لم نلتق في الشرق الأوسط لما كنا قد التقينا في كندا أبدًا. كنا من ساحلين متقابلين في البلد وبيننا آلاف الأميال. كنا متباعدين ليس فقط جغرافيًّا بل أيضًا بكل الطرق الممكنة. كنا مثل الين واليانج.

لكن يوجد شيء في القوى المتضادة يخلق علاقة تعايش. كان انعدام توتره الترياق المناسب لحياتي التي لم يكن بها إلا التوتر. كانت طريقة عيشه اللحظة دون أي هم العلاج السليم لقلقي المتواصل حيال المستقبل.

علمني أن أنفق الكثير من المال على الطعام الشهي (لكن كله سينتهي إلى المرحاض. يا له من تبذير). علمني أن أسافر (لكن ماذا إذا حدث طارئ ونحن بعيدان عن البلد؟). كنت شخصية تفزع وتخاف بسهولة، بينما كان هو مطمئنًا متأكدًا جدًّا من أننا لن نتعرض لكوارث. وأردت تصديقه.

ولذلك حاربتُ لأجل علاقتنا. لا أعتقد أنه سيقدِّر أبدًا كم حاربت لأجلنا. لا يمكنه أن يعرف أبدًا كم الجهد الذي بذلتُهُ لكي أقدر على أن أثق به مجدَّدًا، وكم كان ذلك صعبًا بالنسبة لي.

والحقيقة هي أني حتى بعد سنوات من علاقتنا وحتى بعد زواجنا وإنجابنا طفلةً وعودتنا إلى كندا كنت ما زلتُ لم أثق به على النحو التام. كان هنالك دائمًا جزء من قلبي أمنعه منه. قطعة ظلت قوية في حالة احتجت الانفصالَ. كنت دائمًا أراقب حالتي المالية وأحرص على حساب ما سوف أحتاجه للاستمرار في الحياة معتمدةً على نفسي لو احتجتُ طردَهُ من حياتي. لن يُغْدَر بي مجدًّدا. لن أُخْدَعَ مجدَّدًا.

لم أتجاوز هذا حقًّا إلا عندما جرحته بالمقابل بطريقة طفولية وخطيرة جدًّا. أنا سعيدة للغاية لأنه حارب لأجل علاقتنا آنذاك. انقلبت الأمور وأثبت لي أنه مخلص لي وملتزم بإخلاص بزواجنا وعائلتنا. كان ذلك آخر اختباراته وقد نجح فيه نجاحًا باهرًا!

عدنا إلى لاس فيغاس حيث كنا قد تزوجنا، من أجل ذكرى زواجنا العاشر، لتجديد عهود الزواج، لكن هذه المرة شغَّلَنا ألڤيس. أخيرًا أستطيع القول باقتناع أني تخليت عن تلك القطعة الصغيرة المتبقية من قلبي التي كنت أوفرها كاحتياطٍ للأمان. لم أعد أحسب باستمرار مصاريفنا لأحرص على أنه يوجد ما يكفي من المال لكي أهرب أنا وبنتايَ في لحظةٍ. أخيرا لم أعد أحتفظ بقدمٍ في الداخل وقدمٍ في الخارج[1]. أخيرًا شعرت بالأمان بما يكفي لكي أدخل البيت وأغلق الباب ورائي دون خوف. لم أظن قط أني سأصل إلى ذلك. لم أكن أعتبر ذلك حتى هدفًا واقعيًّا. لأني لم أعتقد أنه يمكن الحصول عليه، واعتقدتُ أن التصرف بتلك الطريقة [بمنحِهِ الثقةَ التامةَ] سيكون تصرفًا طائشًا.

[1] ترجمة بديلة: لم أعُدْ أقدِّم رجلًا وأؤخِّر الأخرى.

وأنا أستذكر الأمر، أعتقد أني كانت قد غمرتني السعادة والحب حتى نسيت أن الحياة ليست كقصص الأطفال. انتقلت من الأقصى الى الأقصى. لم تعد حياتي قصة رعب لكنها ليست قصة أطفال أيضًا. تعلمت أن حياتي ملاذ آمن مريح بين الاثنين.

أنا أحبه فعلًا ولم أظن قط أني يمكن أن أشعر بهذا النوع من الحب لإنسان آخر لم أنجبه. قلبه كبير، وهو بطبيعته على نحو تلقائي كل شيء أحتاجه، حتى عندما لا يعلم هو سبب ذلك. إنه جائزتي على نجاتي من كل صدمات ماضِيَّ ومثابرتي. إنه الضوء لي في آخر النفق المظلم.

أعتقد أن ما جعلني أتماسك في مروري بتقلبات الحياة بمرها وحلوها كان صوت تيفاني. لقد أحبتني كثيرًا، وكنت أثق في حكمها أكثر من حكمي. بعد سنة من زواجنا خضعت تيفاني لبعض الاختبارات الروتينية لكنها لم تغادر المستشفى حيةً قط. كان لديها عيب خلقي في قلبها بسبب وصف أحد مشتقات الثاليدوميد[1] لأمِّها عندما كانت حاملًا بها. كان قلب تيفاني أشبه بآلة مجمعة من قطع غير متوافقة، وكان طبيب القلب الخاص بها وحده فقط يعرف كيفية تركيبه وكيفية عمله. لم يكن طبيبها موجودًا عندما خضعت تيفاني للفحص بالتصوير المقطعي الكمبيوتري. فحقنوها بصبغ لكي يستطيع الأطباء رؤية كيفية انتقاله عبر شرايينها. حدثت تعقيدات في أثناء التصوير المقطعي الكمبيوتري بالأشعة وقد مرت العديد من المرات بذلك من قبل، لكن في هذه المرة لم يكن طبيبها موجودًا.

القول بأن وفاتها دمرتني سيكون تهوينًا من الأمر. شعرتُ حقًّا أنه لم تعد لي صلة بهذا الكوكب. كانت تيفاني الإنسانة الوحيدة التي ظلت معي منذ ماضِيَّ حتى تحولي إلى المرأة التي صرتُ عليها الآن. فقدنا الاتصال لبضع سنوات عندما كنت متزوجة من عصام لكنني وجدتها مجددًا بأسرع وقت استطعته بعد هروبي. كانت الشاهد الوحيد على حياتي، هل لا أزال موجودة حتى بدونها؟ توفيت تيفاني في نفس شهر عيد ميلادها، في نوفمبر. ولذلك صرت أغرق في اكتئاب مظلم سنويًّا فيما بين عيد الهالوين وعيد الميلاد (الكريسماس). من المؤسف أن عيدي ميلاد ابنتَيَّ كليهما في تلك الفترة. علي أن أضغط على نفسي لكي أنظم الحفلات وأختار الملابس وأشتري الهدايا وأضع الزينات، بينما تكون الفكرة الوحيدة التي تريحُني هي فكرة إنهاء حياتي. إنها الفكرة الوحيدة التي تبدو صحيحةً، إنها منطقية. لكني أذكِّر نفسي دائمًا أن علي أن أكافح هذا الدافع حتى الربيع فقط. لكن هذا متعب وأخشى أني في إحدى تلك الشتاءات المُظلِمة لن يكون لدي الطاقة للمقاومة أكثر.

لكنني أكافح في الحياة كما كنت أفعل دائمًا. عندما لا تكون الحياة مظلمة تكون مجيدة. أنا ممتنة لأجل كل يوم مشمس وكل نَفَسٍ أتنفسه. أنا ممتنة للغاية لأجل زوجي وبنتَيَّ.

---

[1] في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين، أدى استخدام الثاليدومايد في النساء الحوامل في ٤٦ دولة إلى أكبر كارثة طبية من صنع الإنسان على الإطلا، مما أدى إلى ولادة أكثر من ١٢٠٠٠ طفل مع مجموعة من التشوهات الشديدة، مثل تَفَقُّمُ الأطراف، وآلاف حالات الإجهاض. قدمت الثاليدومايد في عام ١٩٥٦ وسوقته بقوة شركة الأدوية الألمانية Chemie Grünenthal تحت الاسم التجاري Contergan كدواء للقلق ومشاكل النوم والتوتر وغثيان الصباح. وقُدِّمَ كمسكن ودواء لغثيان الصباح دون اختباره على النساء الحوامل. في حين اعتُبِر في البداية آمنًا ي أثناء الحمل، ولكن الشركة المنتجة كانت مخطئة فقد وُلِدَ آلاف الأطفال بلا أقدام أو أيدٍ. تسبب الدواء بتشوهات خلقية لكثير من الأطفال المولودين في خمسينيات ومطلع ستينيات القرن العشرين. وفي كثير من الحالات الوخيمة وُلِدَ أطفال بدون أيدٍ أو أرجل. كما كانت هناك ولادات أخرى بأيد أو أرجل شبيهة بالزعانف وهي حالة تعرف باسم فقمية الأطراف. واشتملت التشوهات الأخرى فقد الأذنين أو تشوهها أو شذوذ في تكون الحبل الشوكي أو القلب أو بعض الأعضاء الأخرى. بحلول عام ١٩٥٧ م، انتشر استخدام عقار الثاليدوميد في ألمانيا وكندا واليابان وغيرها من الدول. فقد وصفه الأطباء كعلاج مسكّن ومهدّئ، ولعلاج النساء الحوامل من غثيان الصباح. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد منعت إدارة الغذاء والدواء استخدام هذا الدواء ودخوله الأولي فلم يُبَع في أسواقها. وفي عام ١٩٦٠ م، هال الأطباء الأعداد المتزايدة من الأطفال المولودين بتشوهات خلقية، وثبت للباحثين مسؤولية الثاليدوميد عن هذه التشوهات. وأيقن العلماء حتمية ظهور هذه التشوهات حتى لو تعاطت السيدة الحامل هذا العقار مرة واحدة في شهور الحمل الأولى وحُظِرَ استخدام هذا العقار عام ١٩٦٢م. يمنع الثاليدوميد نمو الأوعية الدموية الجديدة بجسم الإنسان مما يسبب التشوهات الخلقية. فالأوعية الدموية الجديدة مهمة لنمو أطراف الأجنة.

لدينا ابنتنا الصغرى التي أنجبناها ذكية ومراعية وظريفة رائعة ومذهلة في كل شيء. إنها تشفي جروحي كما تفعل أختها. لديها الفرصة لكي تكبر في بيت مستقر ومحب. لديها أخت كبرى رائعة تحبها. إنها ناجحة في كل شيء وأي شيء، بدءًا من كرة القدم ومرورًا بالبيانو ورقص الهيب هوب وتعلم اللغات. لديها كل الفرص التي يمكن أن يرغب بها طفل وهي لا تضيع أيًّا منها. أنا مستعدة لفعل أي شيء لحماية حياتها الخالية من التأذِّي. إنها كل ما لدينا القدرة على أن نكوُنَهُ إذا لم يدمرنا الكبار الذين في حيواتنا خلال فترة طفولتنا.

لن يقابل زوجي ولا ابنتي الصغرى أمي أبدًا. لم أتواصل معها أي تواصل منذ ٢٠٠٤. في البداية كان ألمي شديدًا للغاية إلى درجة أنه كان سرعان ما يهيمن عليه غضبي ويصير يكاد لا يتمايز عنه، وصارا مرتبطين معًا على نحو معقد. لكن لا يستطيع أحد أن يعيش هكذاإلى الأبد. لا أشعر بشيءٍ الآن. لقد تطلب الأمر مني وقتًا طويلًا على نحوٍ هائلٍ، لكنني في النهاية _بأمانة وصدق_ لم أعد أكترث ما الذي يحدث لها. لم أعد أريد تقبلها منذ وقت طويل، لكن بعد ذلك ظللتُ مع هذا الاحتياج الساخط الغاضب إلى اعتذارها لي وتحملها المسؤولية عن كل الألم الذي سببته لي.
أنا ممتنة لأني أستطيع أن أقول أنني تجاوزت كل ذلك أخيرًا. لم أعد أريد أو أحتاج أي شيء منها.
و لأن أمي تحكم العائلة فلم تعد لدي أي صلة مع إخوتي أو أفراد العائلة الآخرين أيضًا. جمعني لقاء قصير بأخي بعد عشر سنوات عندما اكتشف مثلي أن أمي مليئة بالكراهية ومتلاعبة بنا، اكتشف هو ذلك بعد عشر سنوات من اكتشافي ذلك. لكن بسبب كل السنوات التي تباعدنا فيها وكل الصدمات والغضب والضغينة فإن تواصلنا كان قصيرًا ولم يَدُم.

أنا أسارع الآن إلى قطع كل العلاقات المؤذية السامة. لم أعد أضيع الوقت في الغفران والمحاولة مرارًا وتكرارًا مثلما كنت أفعل سابقًا. و لذلك عندما اتهمتني أختي بالكذب بخصوص تحرش "زوج" أمنا السابق بي، قطعت صلتي بها. إنها متشددة وغارقة في الثقب الأسود لتعاليم الإسلام على أي حال إلى درجة أن عالمينا صارا أبعد حتى عن أن يكونا في كونين متجاورين. كلٌّ من ابنتيها (إحداهن أكبر سنًا من ابنتي بقليلٍ، والأخرى أصغر منها) متزوجتان، أما ابنها فيدرس في إحدى أفضل جامعات كندا، وبذلك تستمر تلك الحلقة المألوفة المتكررة بلا انقطاع أو عقَبَات.

لدي خال واحد أتحدث اليه بين الفترة والأخرى. لقد اعتنى بي عندما اضطرت أمي الى العودة الى العمل منذ فترة طفولتي الأولى حتى سن السنتين من عمري. ولذلك لدينا صلة خاصة. يدعوني جيسي ولا أدري لماذا لكنني أحب ذلك اللقب وأحبه هو. هو عائلتي الموسعة الوحيدة منذ سنة ٢٠٠٤. ليس لي اتصال بأي أحد آخر.

ثم ذكر خالي ذات مرة أن لدي قريبة (أبوها أخ غير شقيق لأمي) منفصلة منبوذة من العائلة لأنها تزوجت يهوديًا. اتصلت بها فورًا وأخبرتُها أني أنا أيضًا مرفوضة من العائلة وغير متوافقة معها في العائلة وأني آمَل أن ألتقيَ بها. تجاوبت معي فوريًّا وسرعان ما أتت لزيارتي. كان رائعًا أن ألتقِيَ مسلمةً سابقةً أخرى من العائلة. لا تكفي الكلمات لتعبر عن سعادتي وشعوري بأني محظوظة بأن تكون لدي قريبة أخرى في حياتي تحبني وتفهمني على نحو كامل. وأنا سعيدة أيضًا أنه صارت لبنتَيَّ عمةٌ.

أنا حزينة لأنني لم أولد في عائلة محبة، لكني لست الوحيدة بالتأكيد التي عانت ذلك. ينشأ الكثير من الأشخاص بين والدين سيئين، لكنهم يصيرون ناسًا ناجحين جدًّا. أنا لست حزينة بنفس مقدار حزن مسلمين سابقين أعرفهم أحبوا

آباءَهم ونشؤوا في بيوت سعيدة مليئة بالحب. أن ينبذك أبوك (و/ أو أمك و/ أو أقاربك) لأنك تركت دينك بينما كنتِ قبل ذلك ابنته المفضلة لابد أن هذا مؤلم أكثر بكثير لهم. كان أبي بالكاد يعرفني. لكن أن تتخلى عنك أمك التي كنت تحترمينها، الأم التي كانت تعانقك كلما آلمتك الحياة فلابد أن ذلك مؤلم أكثر بكثير. رغم أن هذا أدى إلى وحدة رهيبة لا تُتَصوَّر وقطعًا مخيفًا للعلاقات، فقد كان أقل الخيارات إيلامًا لي. كنت مستعدة لدفع الثمن من أجل فرصة لحياة أفضل لي و_على نحو أكثر أهمية_ لبنْتَيَّ.

أنا حزينة لأني ليست لدي صور لابنتي وهي طفلة رضيعة. كان والدها يحرم التصوير وتطلب الأمر مني بضع سنوات بعد هروبي منه لكي أستطيع شراء كامِرة. لكن وجه ابنتي الغالية منقوش في ذهني. لقد قضيتُ ساعاتٍ كثيرةً أتفرس في وجهها بينما كنتُ أعِدُها بأنها ستحظى بحياة أفضل وأنها ستعرف طعم السعادة والحرية.

أنا حزينة لأنَّ بنتَيَّ لن تعرفا أي أحد من الجانب المصري من عائلتهن. لا يعني ذلك لهن شيئًا. الحديث عن مصر بالنسبة إليهن كالحديث عن اليونان أو الصين، كلها بلاد بعيدة.

لا تتكلم أيٌّ من ابْنَتَيَّ العربية ولا تفهمانِها.

لن تخاف أي منهما من أن يحرقهن شخص غير مرئي في السماء لأنهما لا يركعانِ له خمس مرات في اليوم.

لن تعرف أي منهما شعور الخجل من جسديهما أو شعريهما.

لن تُرْغَمَ أيٌّ منهما على فعل أي شيء لا يريحهن أو لإرضاء الخيال المليء بالتغطرس والغرور والانتقام لراعي غنمٍ من القرن السابع.

لن تضطر أي منهما أبدًا للتغلب على ذكريات العنف في الطفولة، سواء أكان نفسيًّا أو جسديًّا أو جنسيًّا.

لقد استطعتُ حمايةَ بنتَيَّ وأنا ممتنة لذلك. لقد نجحت في مهمة حياتي. لقد كسرت الخرسانة التي كانت تدفنُنِي، وأوقفت الحلقة. سوف يموت معي كل الإخضاع والإذلال وتلقين التعاليم والخرافات الدينية.

لقد كنتُ الجسر والجيل الأول ومثل هودور في مسلسل "لعبة العروش" ممسِكةً الباب لكي تمر ابنتايَ إلى حياة حرة. لن يمرا بأي تجربة سيئة مماثلة لما مررتُ به في حياتي التي عشتها. هذه الحياة غريبة عنهما كما هي غريبة عن البعض منكم. ولذلك أنا سعيدة. أنا قصة نجاح. لقد ثابرت ورفضت الاستسلام.

المقاومة

كانت كتابة هذا الكتاب رحلة شاقة لكن مثمرة. كانت شاقة لأسباب واضحة؛ لا أظن أني بكيت قط في كل حياتي بقدر ما بكيت في أثناء كتابتي هذا الكتاب. اضطررت للعودة إلى غياهب ذكريات مظلمة كانت مدفونةً بعمقٍ. رفعت الأغطية وسمحت لكل الوحوش بالخروج من تحت الفراش. كل هذه التجارب التي لم أحكِها لأصدقائي أو زوجي، ولم أسمح لنفسي حتى بالاعتراف بها، لقد كتبتها ليقرأها العالم كله.

كانت الكتابة علاجًا مفيدًا ومطهِّرًا للذات كما لكَ أن تتوقع للتخلص من كل تلك الشياطين. فحالما يشع عليها النور لا تعود مخيفةً بعد الآن. كان لدي أستاذ كتابة قال لنا ذاتَ مرةٍ أننا نبتلع ريقنا دائمًا لا إراديًّا طوال الوقت، وأننا لو بصقناه على مكاتبنا فلن نلعقه ونبتلعه ثانية أبدًا. طريقة فظة للتعبير عن الأمر، لكنها توصِّل الفكرة. ما إنْ تُخْرِج شيئًا حتى لا يعود كما كان من قبل. والأهم أنه لا يبقى داخلك بعد ذلك.

وقد كانت كتابته مفيدةً مجديةً لي لأنه جعلني أتعرف على الكثير من الأشخاص الرائعين عن طريق الإنترنت. أتمنى لو استطعتُ أن أجمعكم جميعًا في عناق ضخم. مكَّنَني النشر في مدونتي على تمبلر وصحفتي فيسبوك وتويتر الخاصين بي سمح من التواصل مع الكثير من الأشخاص الرائعين المهذبين المحبين. حقًّا لم أتمكن من القيام بهذا إلا بفضل تشجيعكم ودعمكم. فكلما وصلتني رسالة، سواء من أحد أصدقائي القدامى من المدرسة الثانوية، أو من مسلمات سابقات مستخفيات تركن الإسلام سرًا في السعودية، أو طفل أحد زملائي في العمل، كان هذا لي كجرعة من الأكسُجين أعطتني الطاقة لأواصل الكفاح.

كانت هنالك الكثير من الأوقات التي كنت لم أعد أطيق فيها فكرة الجلوس للكتابة، ودخول غياهب الظلام كما صرت أسمي الأمر. لكن عندئذ كنت أجد رسالة نابعة من القلب في أحد صناديق بريدي من شخص وجد نفسه في كتاباتي أو أراد التعبير عن امتنانه وتقديره. ولذلك استمرَرْتُ. أردت أن أكون شجاعة لأجلكم جميعًا. سمعتكم تشجعونني من كل أنحاء العالم. من فرنسا وآيسلندا وإيطاليا وبولندا ومصر وإيران وباكستان وغيرها من الدول ومن حديقتي الخلفية في أمريكا وكندا. تشجيعكم عَنَى لي الكثير، ولا يزال كذلك. أعلم أني ما كنت لأفعل هذا دون مساعدتكم.

أعلم أنها قصتي الخاصة، لكنها ليست قصة فريدة. فمنذ أن خرجت إلى العلن تلقيت وابلًا من الرسائل من نساء ورجال وجدوا أنفسهم في قصتي. حاولتُ قصارى جهدي أن أدعم كل شخص منهم. لقد علمتُ أنه لم يكن لديهم أي أحد في حياتهم يستطيعون الوثوق به، لكنهم وثقوا بي، وكان ذلك شرفًا ومسؤولية أخذتُهما على محمل الجد.

لقد أخذتها على محمل الجد للغاية إلى درجة أنها كادت تقتلني إرهاقًا. لم أذق طعم الراحة ولم أكن مهنية. لم يكن لدي سبيل للفصل بين ذاتي والقصص التي كنت أسمعها. شعرتُ كأن كلًا من هؤلاء الأشخاص أبنائي، بينما أخذ أطفالي الطبيعيون يدفعون إلى أولوية ثانوية. تلقيت ذات مرة في وسط مباراة كرة قدم تلعب فيها ابنتي اتصالًا من الصومال وشعرتُ أنَّ علي الرد عليه. وعلمتُ أنه من فتاة كانت خائفة من أن أباها قد أخبر مجموعة إرهابية محلية (الشباب)

بأنها تركت الإسلام. كانوا سيخيرونها بين التوبة في ثلاثة أيام وإلا يقتلوها. أكيد أن هذا كان أهم من مشاهدة ابنتي تسجل بعض الأهداف.

لكن في النهاية تضررت حياتي وانهرت. ضربني كل ذلك كطن من حجارة القرميد على رأسي. صرت لا أستطيع العمل بدون نوبات هلع مستمرة مرهقة كانت دائما مختبئة في أركان وجداني. أخبرت زوجي أنني أشعر بنفسي كورقة تعصف بها عاصفة مطرية وتحاول تفادي قطرات المطر. علمتُ أن شيئًا جوهريًّا يجب أن يتغير.

حاولت العثور على متخصص أستطيع أن أحيل إليه كل هؤلاء الأشخاص. متخصص يستطيع تفهم مأزق هؤلاء المسلمين السابقين العالقين في بلدان ذات غالبية مسلمة، حيث عقوبة ترك الدين هي الإعدام من الدولة[١]. كنت قد زرت العديد من المعالجين النفسيين الذين نصحوني نصائح مثل "تحدثي إلى أمك" أو "ربما تستطيعين حل المشكلة". وهي نصيحة بسيطة على نحو مضحك ما كانت لِتَصْلُحَ على الإطلاق في ذلك السياق. فلو تحدث هؤلاء الأشخاص إلى أمهاتهم فقد يُقتَلُونَ. وفي أثناء بحثي وقعت على جيمي بانچاش، وهو مسلم سابق من أصل باكستاني يعيش في بريطانيا نبذته عائلته لأنه مثليٌّ. كان متخصصًا في التدريب على الحياة[٢] وكان يدرس دراسات عليا في الجامعة للحصول على الماجستير في علم النفس الإرشادي. كان هو ضالتي المنشودة. وسرعان ما أنشأت "قلوب حرة، عقول حرة" (Free Hearts Free Minds, FHFM) وبدأت أرسل لهم العملاء. كان هذا هو الحل المثالي. صار بإمكاني أن أجد المساعدة المهنية للناس الذين يتصلون بي. إننا نعطي الأولوية للنساء اللاتي في السعودية وأفراد مجتمع الميم، لكننا نساعد العدد الأقصى من الأشخاص الذي نقدر عليه. إذا زرت موقعنا على الإنترنت فسيمكنك أن تقرأ شهادات من بعض الأشخاص الذين ساعدناهم. من الرائع أن أكون عضوة في تلك المنظمة. إننا نديرها بالتبرعات فقط، وكل قرش يذهب إلى مساعدة الناس وإنقاذ حيواتهم. فرجاء زوروا موقعنا على الإنترنت واقرؤوا أكثر عنه ونأمل أن تتبرعوا إذا أمكن www.freeheartsfreeminds.com

بالاضافة الى عملي الممتع في "قلوب حرة عقول حرة" FHFM، فإني أجد مكافأةً يوميةً تتمثل في النساء اللاتي يستعملن هاشتاغ (وسم) منعتقة من الحجاب #FreeFromHijab. إحدى النساء اللاتي أتواصل معهن بالرسائل على نحو شخصي خاص (لأنها لم تتوافق مع معايير منظمة "قلوب حرة عقول حرة" لأنها في كندا وليست في بلد ذي غالبية مسلمة) كانت تعاني كثيرًا مع مسألة الايمان. فقررت في يوم لا للحجاب (أو يوم خلع الحجاب #NoHijabDay) أنْ تخلع حجابها على الكامِرة لأول مرة. انتشر الڤيديو الخاص بها كالنار في الهشيم، لقد قالت بيانًا عن تحرير المرأة بالعربية والإنچليزية والفرنسية ثم خلعت حجابها، وينتهي الڤيديو بابتسامتها المشرقة. حصل الڤيديو على الكثير من الانتباه لدرجة أن تشجيع الجمهور الغفير لها شجعها على ترك زوجها المعنِّف لها أيضًا. لقد بدأت حريتها بنزع الحجاب لكن تلك كانت الخطوة الأولى فقط. هي الآن حرة تمامًا في جسدها وفي عقلها. هذه قوة وسائل التواصل

[١] بعض الدول الإسلامية فيها قانون لحد الردة وتنفذه، وأخرى يوجد فيها لكنه حبر على ورق تقريبًا لعل منها الأردن، ودول ليس فيها قانون مماثل كمصر لكن يظل في دولة لا قانون كتلك أن يقتلك غوغاء الناس في هجمة أو يقتلك إرهابي أو إرهابيون أو حتى يقتلك أمن الدولة أو الأمن الوطني مباشرة في معتقل أو تموت نتيجة ظروف الاعتقال غير الآدمية، واعتقال المفكر الحر في دول كمصر مسألة تخضع لهوى السلطة، وتُوازَن مع حاجة السلطة للحفاظ على المفكرين الأحرار الملحدين قدر الإمكان ما لم يحرض الشعبُ الحكومةَ على الشخص منهم كثيرًا، لحاجة الحكومة للمفكرين الأحرار لمواجهة وطأة وشدة تأثير انتشار أفكار التخلف والجماعات المتطرفة.

[٢] التدريب على الحياة (life coach): عملية مساعدة الناس على تحديد وتحقيق الأهداف الشخصية من خلال تطوير السلوك والمهارات التي تؤدي إلى التحكم في حياتنا بطريقة إيجابية. يتناول هذا النوع من التدريب قضايا عامه مثل التوازن بين العمل والحياة والتغييرات المهنية.

الاجتماعي. يعتقد الناس أن الضغط على أيقونة الإعجاب أو المشاركة لا يؤدي إلى شيء لكنه في الواقع قد يغير حيوات بعض الناس تمامًا. إنِّي أرى هذا يحدث كل يوم.

أرى نساء في السعودية ومصر وإيران والجزائر واليمن والسودان ودول أخرى ذات غالبية مسلمة يتقوين بتشجيع الجماهير لهن عبر الإنترنت على المطالبة باستقلالهن. أرى نساء يغطين وجوههن ثم يظهرن شعورهن وهن لا يزلن يغطين وجوههن ثم في النهاية يظهرن كل ذواتهن الجميلة بفخر. إنه لشرف كبير أن أكون جزءًا من هذا. عندما درَّسْتُ في حضانة أطفال في مصر شعرت بمردود معنوي كبير مكافأتي أن كل كلمة إنچليزية على الأرجح سوف يقرؤها هؤلاء الأطفال في المستقبل ستكون بسبب تعليمي إياها لهم. أنا أحصل على نفس هذا الشعور من خلال عملي في مساعدة هؤلاء النساء الآن. أن أشارك في تشجيع النساء على تحرير أنفسهن والعيش بحرية هو أفضل استغلال ممكنة لي من حياتي.

الأمل

"لقد اقترب اليوم الذي سوف يعترف فيه العالم بأسره أن المرأة مساوية للرجل"
سوزان. ب. أنتوني

قالت سوزان ب. أنتوني هذه الكلمات منذ ١٣٥ سنة. للأسف لم يأت بعد اليوم الذي توقعت قدومه.

منذ ١٣٥ سنة في أمريكا كانت النساء يُعْتَبَرْنَ ملكية آبائهن ثم أزواجهن. كانوا يُمْلُوْنَ عليهنَّ ما يلبَسْنَهُ وكذلك الأعمال التي يُمكِن لهنَّ عملها والرجال الذين سيتزوجنَهُنَّ. خلال القرن الماضي كافحت النساء من أجل تحرير أنفسهن من خلال الموجة الأولى فالموجة الثانية ثم الثالثة والآن الموجة النسوية الرابعة المعاصرة. لكن رغم روعة كل هذه الموجات فهي بالكاد تحدث صدىً خارج العالم الغربي.

ورغم أن النساء الغربيات يُعْتَرَفُ بمساواتهن للرجال، ففي العديد من أنحاء العالم لا تزال النساء المطالبات بحق الاقتراع للنساء _واللاتي هن نظيرات لسوزان ب. أنتوني_ يُحَارِبْنَ بقوة من أجل الحصول على مساواتِهِنَّ.

يوجد فارق وانقطاع كبير بين النسويات في العالم الغربي والنسويات في الدول ذات الغالبية المسلمة. لنشأتي كأول جيل كندي في عائلة مسلمة أصولية متشددة فقد جعلني هذا أقضي الكثير من الوقت عالقة بين هذين العالمين.

علموني في المنزل أني منذ أن يصير عمري ٩ سنوات علي أن ألبس الحجاب لحماية نفسي من الرجال الذين يريدون التحرش بي. بينما تعلمت من مجتمعي أن هذا يسمى لوم الضحية.

علموني في البيت أن البنات الصالحات الطاهرات يلبسن الحجاب وأن البنات القذرات المنحلات المُحتقَرات لا يلبسنه. بينما تعلمتُ من مجتمعي أن هذا يسمى الوصم بالعهر (أو الوصم بعار الفسق)[١].

[١] عار الفسق هو ممارسة الانتقاد للأشخاص، وخاصة النساء والفتيات، الذين يُنظر إليهم على أنهم ينتهكون توقعات السلوك والمظهر فيما يتعلق بالقضايا المتعلقة بالجنس. يستخدم المصطلح في إطار تيار تمكين النساء والفتيات والرجال من إدارة حياتهم الجنسية. يمكن استخدامه أيضًا للإشارة إلى الرجال المثليين، الذين قد يواجهون رفضًا للسلوكيات الجنسية التي تعتبر منحلة في بعض المجتمعات. نادرًا ما يتعرض الرجال المغايرون جنسيًا (الطبيعيون) لعار الفسق. تتضمن أمثلة عار الفسق الانتقاد أو المعاقبة على: انتهاك سياسات نظام اللباس من خلال ارتداء الملابس بطرق يُنظر إليها على أنها مثيرة جنسيًا، وطلب الوصول إلى وسائل تحديد النسل، وممارسة الجنس قبل الزواج أو خارج نطاق الزواج أو الاختلاطية الجنسية. يمكن أن يشمل أيضًا إلقاء اللوم على الضحية بسبب تعرضها للاغتصاب أو الاعتداء الجنسي. يتضمن عار الفسق انتقاد النساء أو أذيتهن نفسيا اجتماعيا أو جسديا أو قتلهن لمخالفتهن قواعد السلوك الجنسي المقبولة، أي لومهن على السلوك أو الملابس أو الرغبات أو الأفعال الجنسية التي تخالف معايير المجتمع. يمكن اعتبار عار الفسق شكلًا من أشكال العقاب الاجتماعي وهو جانب من جوانب التمييز على أساس الجنس، فضلًا عن استخدامه في المنافسة الجنسية بين الإناث في بعض المجتمعات الأصولية. يلقي موضوع عار الفسق الضوء على القضايا الاجتماعية المرتبطة بالمعايير المزدوجة بين الرجال والنساء، لأن عار الفسق عادة ما يكون تجاه الفتيات والنساء، ولا يتعرض الفتيان والرجال عادةً له.

عندما صار لي حرية الاختيار بين هذين العالمين، قررت انتزاع حريتي. كاد هذا القرار يكلفني حياتي وحياة ابنتي. لكنها كانت مخاطرة قبلت بها ليس فقط لأجلي، بل وعلى وجه الخصوص لأجل ابنتي.

عندما كنت طفلة قرأت عن بطلات التاريخ المطالبات بمنحِ النساءِ حقَّ التصويت. واجهت تلك الأُقلية من النساء المحاربات من أجل الحرية السجن وخاطرن بحيواتهن، بل وحتى ضَحَّيْنَ برضا بحيواتهن لجلب الانتباه إلى معاناتهن. كانت تلك النساء منبوذات من المجتمع وكن يزعزعن أركان الوضع القائم. كن خطرًا على النظام. ليس الرجال فقط وجدوهنَّ تهديدًا فقط لأن قضيتهن تقاوم وتضادُّ مباشرةً المجتمع الذكوري المهيمَن عليه من الرجال، بل وكانت بعض النساء يعتبرهن تهديدًا أيضًا. كانت هؤلاء النساء بطلاتي. لم أرد أي شيء أكثر من أن أكون شجاعة مثلما كُنَّ.

والآن وأنا امرأة بالغة أعمل يوميًّا مع نساء يطالبن مثلهن بالحق في الانتخاب من شتى أنحاء العالم. ومثلي، رأت هؤلاء النساء العالمَيْنَ واخترن المخاطرة بحياتهن من أجل العيش كنساءٍ حرائرَ. منهُنَّ نساء في ايران يُجْلَدْنَ ويُسْجَنَّ لرفضِهِنَّ لبس قطعة قماش على رؤوسهن تفرضها الحكومة الدينية الحاكمة بالشريعة الإسلامية. ومنهن نساء من السعودية يُعَذَّبْنَ في السجون لمطالبتِهِنَّ بالحق في قيادة السيارة و/ أو السفر بدون الحصول على إذنِ مَحْرَمٍ رجلٍ. ومنهن فتيات صغيرات في أفغانستان يُطلَق الرصاص عليهن في رؤوسِهِنَّ لأنَّهُنَّ يُرِدْنَ الذهاب إلى المدرسة. ومنهن فتيات صغيرات في السودان يحرقن أنفسهن لأنهن لا يُرِدْنَ أن يُزَوَّجْنَ قسرًا. ومنهن شابات في مصر يكافحن للاحتفاظ بأجسادِهِنَّ كما وُلِدْنَ بها دون أنْ تُشَوَّهَ بالأمواس أو المباضع [في جريمة ختان الإناث].

لا أحتاج العودة إلى كتاب تاريخ لإيجاد نساء خاطرن بحياتهن لمحاربة مجتمعات تضع النساء في مرتبة مواطنات من الدرجة الثانية. فأنا أتفاعل معهن يوميًّا. لكن للأسف أغلب النسويات الغربيات المعروفات لا يَقِفْنَ إلى جانب هؤلاء النساء الباسلات[١] المكافحات من أجل الحرية.

تخاف العديد من النسويات في العالم الغربي من أنهن بدعمهن لأخواتهن في الكفاح فقد يسيء البعض تفسير ذلك على أنه تعصُّبٌ إِثْنِيٌّ ثقافيٌّ أو عنصريةٌ. والأسوأ من تجاهلهن فقط، أن الشركات الغربية تدعم أحيانًا نفس الأشياء التي تكافح ضدها هؤلاء النساء الشجاعات. في العدد المخصص لملابس السباحة من مجلة سبورتس إلسترايتد أو الرياضات المصوَّرة (Sports Illustrated) لسنة ٢٠١٩ تظهر صور للبوركيني (زي سباحة النساء الإسلامي). وظهر على غلاف مجلة مسيرة النساء (Women's March) صورة امرأة متحجبة.

ما كانت النسويات في أمريكا لِيَقْبَلْنَ أبدًا وضع شركة نايكي لشعارها على الملابس الداخلية المورمونية، لكنهن يدعمن وضعه على الملابس المحتشمة التي تفرضها ديانة أخرى. كيف يمكن أن نحارب الذكورية في الغرب وفي نفس الوقت ندعم الذكورية الاسلامية؟! أرجو أن يكون هذا الكتاب قد دحض بعض الأساطير وسوء الفهم الذي يقود إلى مثل هذه الانفصامات النفاقية الخطيرة. يحاول بعض الأشخاص في البلدان ذات الغالبية المسلمة أن يطوروا ثقافتهم تماما كما فعلت الثقافة الغربية ذلك من قَبْلُ. لقد تمكنتم من إلغاء الرق وتمكنتم من الكفاح من أجل مساواة المرأة. لا نريد إلا فعل نفس الشيء. لِمَ عندما نحاول التقدم يصبح الأمر سيئًا فجأةً؟ نُوصَف بالإسلاموفوبيين لنقدِنَا الشريعةَ والدفع نحو التغيير. لم علينا الاحتفاظ بثقافاتنا الميسوجينية الهوموفوبية (العنصرية ضد النساء والمعادية للمثليين وسائر مجتمع

[١] الباسلات: الشجاعات

الميم)؟ الثقافات ليست مقدسة بل هي ديناميكية. جُعِلَتْ الثقافات لتواكب تقدم الانسان. هذا ليس بالأمر السيء. لم يكن شيئًا سيئًا بالنسبة إليكم وهو ليس شيئًا سيئًا بالنسبة إلينا نحن أيضًا.

ما كان الفصل العنصري (الأبارتايد) لِيُلْغَى في جمهورية جنوب أفريقيا لولا ضغوطات المجتمع الدولي، وما كان جدار برلين ليسقط وما كانت العبودية لتلغى. إن أعظم إنجازات البشرية لا تتحقق إلا إذا ساعَدَ الأقوياء من يحتاجون العون. لقد نجوت من الظلام وزحفت نحو النور. و الآن وأنا هنا أشعر بنفسي مُلْزَمَةً بمد يد المساعدة للنساء الأخريات لكي يحققن حريتهن. أود المساعدة في تحويل تلك الترددات الضعيفة من النسوية إلى موجات تتردد عبر شتى أنحاء العالم.

لقد حُمِيَ العالم المسلم من النقد لوقت طويل. كيف سيحدث التقدم إذا اعتُبِرَ النقدُ تعصبًا؟ انه لمن المثير للسخرية أن نفس الرجل الذي قال أن نقد الإسلام مقزز وعنصري لم يجد مشكلةً في عمل فيلم يسخر من المسيحية. لماذا لم يكن ذلك أيضا مقززًا وعنصريًّا؟ لماذا يكون هذا الموقف الذليل حكرًا لصالح دين "الناس البنيين الهمج"؟ أليس هذا تطرف الاحتقار والتوقعات المقلَّلة؟ ألا يحق للمسلمين أن يمروا بالتنوير والإصلاح مثلما فعل مسيحيو العالم الغربي؟ ألم يحدث ذلك بسبب الأشخاص الذين انتقدوا الكنيسة؟ ألم يؤدِّ ذلك النقد في النهاية إلى الفصل بين الكنيسة و الدولة؟ كيف سيحدث ذلك في العالم المسلم بينما هنالك أناس بهذا الموقف الذكوري يمنعون التقدم عن المسلمين؟ ألا يستطيعون أنْ يَرَوْا أن بن أفليك هو المقزز والعنصري في الحقيقة؟ ألا يرون أنه هو الذي استخدم معايير مختلفة باختلاف إثنية الناس؟

أرجو أن أكون قد وصَّلْتُ رسالتي. أرجو أن يبدأ الناس في تقييم بعضهم البعض والتعامل مع بعضهم البعض بناء على الأفكار وليس على الهويات. أرجو ألا يركع الناس لإثنية الأبوين عندما يتلقون بنتًا صغيرة تضربُها عائلتها. أرجو أن يدركوا أن كل البنات الصغيرات يُصَبْنَ بالكدمات مهما كانت إثْنِيَّتِهِنَّ. أرجو أن يفهموا أن تبرير الضرب باسم إثنية والديها سوف يحكم عليها بحياة مليئة بالعذاب الجسدي والنفسي الذي سيبقى معها إلى أن تموت، مهما كان لون بشرتها. أرجو أن يختاروا حماية الطفل بدلًا من حماية ثقافة أو دين جمادان ليسا إنسانًا شخصًا ولا يستحقان الحماية. لا يمكن للحقوق الدينية أن تُبطِلَ حقوق الإنسان. أرجو أن يفهموا أن فعلهم هذا ليس فقط مقززًا وعنصريًّا بل هو أيضا غير إنساني.

أرجو أن تعبر عن أفكارك الحقيقية عندما تكون في مكان عملك أو على إحدى صفحات الفيسبوك وألا تخضع للصمت خشيةَ التنمر والهجوم عليك. قوانين الزندقة في الدول الاسلامية ترغم الناس على الصمت. إذا اخترنا نحن أيضًا الصمت بسبب قوانين زندقة نفرضها على أنفسنا، فمن الذي سيتكلم؟ إنها مسؤوليتنا وواجبنا وشرف لنا أن نقول ما نفكر فيه. لقد قُتِلَ الكثير من الأشخاص لكي يكون لك ولي الحق في التعبير عن رأيك. فيالها من إهانة لذكراهم لو ضيَّعْنا هذه الهدية التي قدموها لنا.

أرجو أن تختار أيضًا أن تختار التكلم دفاعًا عن النساء، كل النساء. شهدت خلال حياتي الأمور تتغير نحو الأفضل بالنسبة للنساء على نحوٍ يوميٍّ تقريبًا. لم يكن تغييرا فجائيًّا نتَجَ عن حملات إحراق حمالات الصدر أو غيرها من المظاهرات، بل كان تغييراً بطيئا بينما كنا نكافح للحصول على الاعتراف بأن النساء مساويات للرجال في المجتمع.

لقد شهِدْتُ تغيرات جذرية تحدث في الإعلام، حيثُ أخذَتْ الأفلام والإعلانات والفيديوهات الموسيقية (الفيديوكْلِبَّات) تتفادى الصور النمطية الميسوجينية وتَسمح للنساء بلعب أدوار عميقة وكبيرة. شاهدت شيريل ساندبرج تصل الى القمة بكتابها Lean in (تقدمي إلى الأمام؛ المرأة والعمل وإرادة القيادة[١]). لقد تعلمت منها ومن أوبرا وينفري ومن ميشيل أوباما و من بيونسيه ومن عدد لا يُحصى من النساء الأخريات المشهورات اللاتي هن قدوة يحتذى بها بالنسبة للشابات في أمريكا الشمالية. وكما قالت جينا ديفِس في برنامجها الوثائقي "ميس ريبريزِنتيشن": "لا يمكنك أن تكوني ما لا ترينه". لكنني أرى العديد من النساء اللاتي أعتبرهن بطلاتٍ.

أعتقد أن الكثير من النساء الشابات من الجيل التالي لجيلي يَرَوْنَهُنَّ بطلاتٍ أيضًا. ويردن أن ينضممن مثلي إلى الكفاح. هن أيضا يُرِدْنَ أن يَكُنَّ قدوةً وإلهامًا وأن يواصلن تعبيد الطريق الذي بدأته النساء الشجاعات قبلنا. لكنهن عكس النساء قبلنا اللاتي كان عليهن إزالة أشجار عمرها ألف سنة لإنشاء طريق جديد واضعاتٍ حجرَ رصفٍ تلو الآخَرِ، فهؤلاء الشابات قد وُلِدْنَ في عالم توجد فيه جرافات (بلدوزرات) تحت تصرفهن لتدعمهن في جهودهن. لقد فزنا جوهريًّا هاهنا بالمعركة. لم نحتج لإقناع أحد بالحاجة إلى طريق نحو المساواة لأن الجميع كانوا مقتنعين في العالم الغربي.

لكن هؤلاء الشابات في العالم الغربي يُردن بناء طرق أيضًا. و بما أن أغلب الطرق قد مُهِّدَتْ بالفعل، فقد بذلت تلك الشابات المفعمات بالحيوية جهودهن في اتجاهات أخرى. لقد بدأن النقاش حول ما اذا يجب عليهن تسمية أنفسهن womxn[٢]، وما إذا كانت تهيئة مكيف الهواء في العمل ميسوجينية متحيزة جنسيًّا! و كيفية مكافحة ظاهرة فتح الرجال لأرجلهم في الأماكن العامة[٣]. فعندما لم يجدن مشاكل قانونية تحتاج إلى التغلب عليها وحلها، اخترَعْنَ اختراع مشاكل لكي يرضين رغبتهن بحلها.

لو علمت أولئك الشابات فقط أن هنالك طريقة للسفر عبر الزمن والتضامن مع البطلات اللاتي صنعن التاريخ اللاتي خاطرن بحياتهن للكفاح من أجل الحرية. هنالك طريقة تمكنهن من استخدام طاقتهن في دعم النساء اللاتي يردن أن يعاملن كمساويات للرجال في مجتمعاتهن. هنالك طريقة تمكِّنُهن من دعم البنات اللاتي يرغبن في الذهاب إلى المدرسة فقط بدون الخوف من أن يتلقَّيْنَ رصاصةً في الرأس. هنالك طريقة تمكِّنهن من دعم البنات اللاتي لا يردن أن يُزَوَّجْنَ في سن الطفولة. كل هذه المشاكل وغيرها الكثير تقبع أمام أعيننا. نحن لا نحتاج آلة الزمن الخيالية ديلوريان للعودة قرونًا إلى الوراء لإيجاد هؤلاء النساء، إذْ هُنَّ موجوداتٌ اليومَ. إنهن النساء اللاتي يُعتَقَلْنَ ويُخْفَيْنَ لأنهن يتجرأن على

[١] تتوفر له ترجمة عربية بالعنوان العربي المذكور، من ترجمة وتحقيق: محمد السيد، الدار العربية للعلوم ناشرون

[٢] womxn: لفظ بديل لـ woman/ womenr لتجنب اللفظ الأخير المرتبط بحسب آراء بعض النسويات بالتمييز الجنسي، ومعنى womxn شخص أو إنسان امرأة أو أنثى/ أنوثية، وشبيه به لفظ womyn وهو تهجئة مختلفة لكلمة women لنفس السبب.

[٣] المانسبريدينج manspreading: الجلوس بساقين متباعدتين في وسائل النقل العامة؛ بحيث يحتل الشخص أكثر من المساحة المخصصة لراكب واحد. لاحظت أن كثيرًا من الرجال يجلسون بهذه الطريقة على نحو تلقائي في محيط وطني مصر في المواصلات والعزائم في البيوت والمناسبات الأسرية وربما حتى في الجلسات الرسمية الحكومية وأماكن العمل، وربما تبدو جلسة سخيفة، لكنها حرية شخصية ما لم تكن في مواصلة عامة لا أماكن فسيحة فيها، ورأيت صورًا على جوجل لناشطة تسكب ازجاجة ماء بين رجلي من يكون فاتحًا رجليه من الرجال في المترو، والمشكلة أنها فعلت ذلك دون مبرر في مترو به عدة أماكن فارغة بحيث يمكن للشخص الجلوس كما شاء فعلًا لعدم ضيق المكان. يبدو هذا سلوكًا ومطالبةً متطرفةً، طالما نطالب بحرية جسد المرأة ورفض أفكار زي وسلوك الحشمة الديني، فمن حق الرجال كذلك حرية السلوكيات الشخصية ومنها طريقة الجلوس ما لم تكن مواصلة مزدحمة، ولعل آخر ما قالته المؤلفة في هذه الفقرة عن اختراع النسويات الغربيات لمشاكل لحلها لعدم وجود مشاكل كبيرة في حقوق المرأة في الغرب في عصرنا يدل على رؤيتها أن تلك الأمور مبالَغ فيها ومتطرفة وهو نفس رأيي. بدأت المناقشة العامة حول طريقة الجلوس هذه في عام ٢٠١٣ في حملة مكافحة التحرش الجنسي في موقع التواصل الاجتماعي تمبلر؛ وظهر المصطلح بعد عام. وبحسب ويكيبيديا: استعملت الحركات النسوية المصطلح واعتبرت المانسبريدينج أحد أشكال التحرش الجنسي، ومن جهة أخرى رأى الكثير من الناس أن المانسبريدينج اعتداء على مساحة الغير يمكن أن يمارسه كلا الجنسين، ونُشِرَتْ الكثير من الصور لنساء يشغلن مساحة مفرطة بطريقة جلوسهن فاتحاتٍ رجليهن كتعبيرٍ عن انتقاد طريقة جلوس بعض الرجال بهذه الطريقة. وقد أُضيفَ المصطلح في قاموس أكسفورد الإنجليزي في أغسطس ٢٠١٥ - المترجم.

خلع الحجاب في إيران. إنهن النساء اللاتي يُعتَقَلْنَ ويُخْفَيْنَ لأنهن يتجرأن على قيادة السيارة في السعودية. إنهن النساء اللاتي يُعتَقَلْنَ أو يُقْتَلْنَ في باكستان والعراق لأنهن يُظْهِرْنَ وجوهَّهُنَّ وشعورَهنَّ (يظهرن بدون الحجاب) على وسائل التواصل الاجتماعي. توجد هؤلاء النساء الباسلات في عالمنا ولا يُرِدْن أكثر من دعم النسويات لهن في الغرب.

تخيلوا لو كانت سوزان ب. أنتوني وبقية المطالِبات بحق التصويت على قيد الحياة اليوم، لكنك بدلًا من أن تساعدهن في كفاحهن من أجر التحرر تقرر تجاهلهن لأنك تخاف أن دعمك لهن قد يساء تفسيره على أنه تعصب أو عنصرية؟ فما بالك بالأسوإ إذا اخترت أن تدعم الناس الذين يريدون إبقاء هؤلاء النساء الباسلات خاضعاتٍ تحت السيطرة؟ للأسف، هذا ما يحدث بالضبط في العصر الحالي. هذا بالضبط ما تفعله اليوم الكثير من الشركات الغربية الكبرى ومجموعات نسوية غربية. فبدلًا من الاحتفاء بهؤلاء الشجاعات المحاربات من أجل الحرية اللواتي لا يردن إلا حريتهن الشخصية، يحتفي الغرب بذات الشي الذي تحارب النساءُ ضده[1].

تلبس باربي الآن التي كانت ذات يوم منارةً ورمزًا للأنوثة والنسوية حجابًا لكي لا تغري الرجال على اغتصابها. ويبيع ماركس وسبنسر _أحد أكبر متاجر بريطانيا_ وأيضًا بَنانا رِيبَبْلِك الحجاب. يدعم الغرب الحر _الذي كانت هؤلاء الفتيات والنساء الشجاعات ينظرن إليه على أنه شعلة ضوء وأمل_ قامعي وظالمي النساء، ويحاربون ضد تقدمهن وتحررهن في نهاية الأمر نتيجةً لذلك. تَحْرِقُ النساءُ في السعودية النقابَ. بينما تربط النساء في إيران الأحجبة بالعُصِيِّ ويلوحن بها في صمت وتحدٍ في الشوارع بينما يُعْتَقَلْنَ بالعشرات. بينما في الغرب تضع نايكي شعارها على الحجاب.

نحن نقبل وندعم طواعيةً إخضاع أخواتنا في الشرق، رغم أننا ما كنا لنقبل ذلك أبدًا لأنفسنا أو أخواتنا في الغرب. نحن نطالب هنا بأن تكون النساء قادراتٍ على "تحرير حلمة الثدي"، بينما ندعم من يطالبون في الشرق بأن تغطي النساء رؤوسَهُنَّ.

من المحزن مشاهدة هذا الانفصام. تبحث الشابات هنا عن معركة، بينما تحتاج الشابات هناك أمسَّ الحاجةِ محارباتٍ يقفن معهن. من المفترض أن يكن أفضل رفيقات داعمات. لو قررت النساء فقط أن يدعمن بعضهم البعض عبر حدود الدول لما بقيت الذكورية. لا تستطيع الذكورية التواجد دون مشاركة فعلية من النساء. يفضل الرجال زوجة مختونة لكن الأمهات هن اللواتي يأخذن بناتهن لكي تبتر نساء أخريات بُظُورَهُنَّ ويشوهن أعضاءهن التناسلية. نحن نمسك ببناتنا ذوات الخمس سنوات وهن يصرخن ونسمح لامرأة باستعمال مشرط للتقطيع من أعضائهن التناسلية لأن رجالًا يفضلون جعل النساء كذلك. علينا أن ننهض ونقول لا. يجب على النساء أن يقفن من أجل بناتهن. علينا أن نقاتل الذكورية معًا بدلًا من مقاتلة بعضنا البعض. يجب أن تقف الأخوات مع بعضهن البعض. ويجب على الجارات أن يقفن مع بعضهن البعض.

لا يوجد خيار للنساء في الدول المسلمة إلا الكفاح أو الهروب أو الخضوع. وفي العادة يخترن الخضوع. كلمة اختيار ليست هي الكلمة الصحيحة هنا في هذا السياق. النساء يَقْبَلْنَ ولا يَخْتَرْنَ، إنهن يَخْضَعْنَ. في عالم أنت فيه سمكة

[1] إنه موقف غريب من الغرب، ناهيك عن خضوع معظم الغرب للضغط الإسلامي السلفي والمتشدد في أموركثيرة، واستضافة الغرب للاجئين إسلاميين بعضهم شديدو التطرف لدرجة التحريض على الغرب أو قيادة جماعات متطرفة أو حتى تنفيذ عمليات تفجيرية وإرهابية بأنفسهم أحيانًا. لا أقول أن كل المعارضين الإسلاميين متطرفون إرهابيون فتوجد نماذج مشرفة مشرقة معقولة بدرجة لا بأس بها كأحمد بحيري وأسماء أخرى كبيرة إسلامية أو متعاطفة مع الإسلاميين وشبه إسلامية، لكن الأكثر هو النموذج السلفي المتطرف- المترجم.

سلمون وحيدة تسبح ضد تيار جارف يجب أن نتفهم أنه لا خيار لك إلا الخضوع. تقبلين بالحياة التي رُسِمَتْ لكِ وتتزوجين الرجل الذي اختير لك وتنجبين له أطفاله. ثم تموتين على أمل أنه بعد موتك تتركين جهنم إلى الجنة[١].

يوجد أيضًا خيار غير شائع و هو الهرب. توجد قصص كثيرة حول نساء هَرَبْنَ من عائلاتهن أو أزواجهن وحاولن البقاء على قيد الحياة معتمِداتٍ على أنفسهنَّ في دول أخرى ليس لديهن فيها دعم من عائلة أو مجتمع أو أصدقاء أو موارد. انه خيار صعب. والأسوأ هو أن بعض النساء _مثل دينا علي_ لم ينجوُنَ. فقد حاولت دينا سنة ٢٠١٧ الهروب من عائلتها في السعودية لكن في أثناء توقفها في مطار مانيلا مُنِعَتْ من ركوب رحلتها الى أستراليا. أخبرت بقية المسافرات أنها خائفة على حياتها وأن أباها قادم لاستلامها وأنه سوف يقتلها. كتبت على تويتر وتوسلت إلى العالم لكي ينقذها لكننا لم نحرك ساكنًا. قُيِّدَتْ دينا من يديها وقدميها بأشرطة لاصقة غليظة وأُرْغِمَت على ركوب طائرة عائدة إلى السعودية، وقال شهود عيان كانوا على الطائرة أنها كانت تبكي وتطلب المساعدة وإنقاذها بعدما حُمِلَتْ بالإكراه إلى الطائرة. لم يسمع أحد عنها شيئا منذ ذلك الوقت[٢].

وختامًا الخيار الأخطر وهو الكفاح والمقاومة. النساء اللاتي يعشن في مجتمعات القمع ويقاوِمْنَ تُسْكِتُهُنَّ عائلاتُهُنَّ أو حكومات الدول الإسلامية وأجهزتها الأمنية القمعية. إحدى الحالات الكثيرة الشهيرة هي حالة لُجَيْن الهذلول[٣]. درست لجين في نفس الجامعة التي درست فيها في كندا. بعد تخرجها صارت إحدى أعتى المناديات بحقوق النساء في السعودية. فازت بالعديد من جوائز المساعي الإنسانية لجهودها وكفاحها الذي لا يكل ولا يمل من أجل حق النساء في السعودية في قيادة السيارة وفي أن يعُامَلْنَ كمواطنات مساويات للرجال ومن أجل إلغاء قوانين الولاية التي تجعل من النساء سجيناتٍ خاضعاتٍ تابعاتٍ باستمرارٍ، وكأنهن يعشن في سجن في الهواء الطلق. وفقًا لقوانين الفصل والعزل العنصري الجنسي هذه، لا يمكن للمرأة عمل أبسط الأشياء دون إذن وتصريح وصيها أو ولِيِّها الرجل، يجب أن تحصل على إذنه قبل أن تفتح لنفسها حسابًا بنكيًّا، أو تسافرَ، وفي بعض الحالات حتى لكي تتمكن من الحصول على العلاج الطبي! وقد سَجَنَتْ دولةُ المملكةِ العربيةِ السعوديةِ لجين هي والعشرات من النساء الناشطات بسبب نشاطهن.

[١] من السياق نفهم أن المؤلفة تشبه حياة المسلمات بجهنم، التي يحلمن بمغادرتها بعد الموت إلى الجنة التي يعتقدن بها وفقًا لعقائد الإسلام.

[2] https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AF%D9%8A%D9%86%D8%A7_%D8%B9%D9%84%D9%8A
https://en.wikipedia.org/wiki/Dina_Ali_Lasloom

[٣] لجين بنت هذلول بن عبد الله الهذلول (٣١ يوليو ١٩٨٩) هي ناشطة حقوقية نسوية سعودية، نشطت ضد حظر قيادة المرأة للسيارات ونظام ولاية الرجل في السعودية، درست الأدب الفرنسي في جامعة كولومبيا البريطانية. سُجِنَت لجين لمدة ٣٣ شهرًا منذ اعتقالها حتى الإفراج عنها. صُنّفت ثالث أقوى امرأة في العالم العربي لعام ٢٠١٥ حسب مجلة أريبيان بزنس.أوقفت لجين الهذلول وأُطلق سراحها في عدة مناسبات سابقة بسبب تحديها ومخالفتها لقوانين السعودية التي كانت تحظر قيادة المرأة في الدولة حينها، وكان اعتقالها الأخير في ١٨ مايو ٢٠١٨، إذ أعلنت رئاسة أمن الدولة السعودية القبض على سبعة أشخاص لم تُحدّد أسمائهم، وجاء في بيانها الذي نُشر على وكالة الأنباء السعودية (واس) أن الرئاسة «رصدت نشاطاً منسقاً لمجموعة من الأشخاص قاموا من خلاله بعمل منظم للتجاوز على الثوابت الدينية والوطنية»، و«التواصل المشبوه مع جهات خارجية فيما يدعم أنشطتهم»، و«تجنيد أشخاص يعملون بمواقع حكومية حساسة» و«تقديم الدعم المالي للعناصر المعادية في الخارج بهدف النيل من أمن واستقرار المملكة»، في اليوم التالي، نشرت صحيفة سبق خبرًا بأسماء الموقوفين ومن ضمنهم لجين الهذلول. خلّف اعتقال لجين ردود فعل في الأوساط الدوليّة وكذلك من قِبل عديد من المنظمات والجمعيات الحُقوقيّة منها هيومن رايتس ووتش التي قالت أن «على السلطات السعودية إطلاق سراح النشطاء فورا أو اتهامهم بتهم جنائية محددة»، ومنظمة العفو الدولية التي ذكرت أن هذه الاعتقالات جاءت «بسبب أنشطتهن السلمية في مجال حقوق الإنسان». فيما أكد وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل بن فرحان أن الناشطة المحتجزة لجين الهذلول متهمة بـ"تقديم معلومات سرية لدول غير صديقة". بدأت محاكمة لجين الهذلول في مارس ٢٠١٩، وفي ٢٨ ديسمبر ٢٠٢٠، قضت المحكمة الجزائية المتخصصة في الرياض، الحكم بعقوبة السجن بحق الهذلول لمدة ٥ سنوات و٨ أشهر من تاريخ إيقافها، مع وقف تنفيذ عامان و١٠ أشهر من العقوبة المقررة وذلك حسب نظام مكافحة جرائم الإرهاب وتمويله الذي تعمل المحكمة الجزائية المتخصصة على أساسه. في ١٠ فبراير ٢٠٢١، أعلنت أسرة لجين الهذلول عن إطلاق سراحها. في ٢٠ نوفمبر ٢٠١٨ نشرت كل من منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش أخبارا تُفيد بتعرض الحقوقيات في سجون السعودية إلى التعذيب بما في ذلك التحرش الجنسي. في الثامن عشر من ديسمبر نشرت صحيفة وول ستريت جورنال مقالًا ذكرت فيه إنّ سعود القحطاني المستشار السابق في الديوان الملكي السعودي، أشرف على التحقيق مع الناشطة المُعتقلة لجين الهذلول كما ذكرت ذات الصحيفة أنّ هذه الأخيرة قد تعرضت لأكثر صنوف التعذيب قسوة بل إنّ القحطاني قد هدّد باغتصابها وقتلها وإلقائها في مجاري الصرف الصحي. وهو ما أكدته شقيقتها علياء الهذلول في مقال لها نشر في ١٣ يناير ٢٠١٩ في صحيفة نيويورك تايمز. في المُقابل نفت الحكومة السعودية الاتهامات باعتبارها مجرد «خيالات جامحة» وأنكرت قيام المسؤولين الأمنيين بتعذيب الناشطين الذين طالبوا بحق المرأة بقيادة السيارة، ولم يرد ممثلو الحكومة على مطالب من صحيفة الوول ستريت للتعليق على ما ورد في التقرير. وفي أغسطس ٢٠١٩، قالت أسرة لجين الهذلول إنها رفضت عرضا بالإفراج عنها مقابل بيان مصور بالفيديو تنفي فيه تعرضها للتعذيب أثناء احتجازها. وذكر شقيقها، وليد الهذلول، في تغريدة على تويتر أنها وافقت في البداية على توقيع وثيقة تنفي فيها تعرضها للتعذيب والتحرش، كما التزمت أسرتها الصمت على أمل حل القضية في سرية، إلا أن القضية تعقدت حين طلب منها أمن الدولة تسجيل النفي في فيديو. لم تعلق الرياض على تلك التقارير.

ورغم كل كفاح النساء في العالم المسلم فلن ننجح إلا إذا اتحدنا كلنا. يجب على النساء في الشرق العمل معًا. أما بالنسبة الى النساء في الغرب فأترجاكن أن تمددن أيديكن إلى النساء في الشرق وتساعدوهن على طريق الوصول إلى المساواة معكنَّ. يا كل من يؤمن بالحرية والمساواة، أرجوكم ادعموا المكافحات من أجل الحرية في الدول ذات الغالبية المسلمة. إنهن يَحْتَجْنَ إليكم.

عرفان بالجميل

أود أولًا وفي المقام الأول شكر زوجي على دعمه لي خلال رحلتي المؤلمة نفسيًّا في كتابة هذا الكتاب. شكرًا لأنك سرت معي وأنا في حالة اضطراب جامودي[١] إلى الشاطئ لكي أشاهد الأمواج حتى أحسست نفسي أعود إلى جسدي مجددا. شكرا لأنك ساعدتني على استعادة مزاجي الطبيعي كل مرة عبر مسايرتي كلما رغبت في أكل الكعك أو الدجاج المقلي. كم أنا سعيدة لأنني وجدتك. أنا أكثر النساء حظا في العالم.

وأشكر بنتَيِّ اللتَيْنِ تحملتا نوبات بكائي العشوائية وحاجتي المفاجأة لتدوين ذكرى كل فترة على هاتفي لأنها قد داهمتني بغتة. شكرًا لكما لتحملكما إياي وأنا أحكي ذكرياتي على غرار: "أوه، أتعتقدين أن هذا سيء؟ لم أحْظَ بأي عيد ميلاد في صغري". شكرا لأنكما أكثر البنات روعة ومحبة ومراعاة وعناية وإدهاشًا يمكن لأمٍّ أن تحصل عليهنَّ.

كما أريد أن أوجِّهَ الشكرَ الخاص لسام هارِسْ على تشجيعه لي على نشر هذا الكتاب بعدما كنت قد فقدت كل رغبة في نشره. لقد كان وابل رسائل الرفض والكراهية المتواصل الذي أغرقني يجعلني أرغب في الاستسلام. لكن لطف سام وصبره ودعمه المتواصل غير من رأيي. لم تكونوا لتقرؤوا هذا الكتاب لولاه.

أشكر إيان هرسي عليّ على تمهيد الطريق لنا كلنا وعلى الإلهام الذي تقدمه من خلال شجاعتها وقوتها وتهذيبها ولطفها. دون مثالك على الشجاعة ما كنت أبدًا لأجد الشجاعة لأشق طريقي من الصفر مثلك. شكرًا لأنك أنرت الطريق لي وللملايين مثلي. شكرا لكل المسلمين السابقين الآخرين الذين كانت لهم الشجاعة الكافية لإظهار وجوههم والتكلم علنًا. شكرا لأنكم ألهمتم الآخرين لكي يعيشوا حياة حقيقية خالية من الزيف ولأنكم شاطرتموهم المغامرة. كلما خرج عدد أكبر منا إلى العلن، صرنا كلنا في أمان أكثر. أنتم أبطالي.

شكرًا كريستوفر هيتشنز وأعتقد أنك كنت لتكون فخورًا بي. أنا أتخذك مثلًا في قول الحقيقة مهما كان البعض يجدها مسيئة من وجهة نظرهم. شكرًا ريتشارد دوكينز لأنك أحد أولئك الشجعان الذين لا يتراجعون أو يُحْجِمون عن نقد الإسلام وينتقدونه بنفس الطريقة التي ينتقدون ويدرِسون بها أي دين أو أيديولوجيا أخرى رغم كل ردود الفعل العنيفة. شكرا ديڤ روبين لاستضافتِكِ إيايَ في برنامجك وجعلي أنسى قليلًا التوتر الذي كاد يجعلني أفقد وعيي! شكرًا ماجد نواز وطارق فتاح وإمام توحيدي وإسراء نعماني وراحيل رضا وكل المسلمين الآخرين الذين تكلموا علنًا دعمًا للمسلمين السابقين وكل الأقليات المنبوذة المضطهَدة تحت حكم الشريعة. أنا أتشرف للغاية بمعرفتكم جميعًا.

و الأهم من الكل شكرًا بن أفليك. لأنه لو لم يشن ذلك الهجوم الخارج عن المقبول على برنامج بيل مار لما فكرت على الأرجح في أن أصبح ناشطة. فبعد مشاهدته يهذي دون تناسق أمام سام هارِسْ شعرت بنفس شعور شخصية إيلين في

[١] شذوذ الحركة أو الجامود هو متلازمة سلوكية عصبية نفسية معقدة تتميز بحركات غير طبيعية، اللاحركية، سلوكيات غير طبيعية وانسحاب. قد يكون بدء الجامود حادًّا أو غير ملحوظ والأعراض قد تخف أو تتضاءل أو تتغير خلال النوب. هناك عدة أنواع فرعية للجامود مثل الجامود اللاحركي، الجامود الانفعالي، الجامود الخبيث، الهوس الذهاني والسلوكيات المتعمدة لإيذاء النفس في التوحد.على الرغم من ارتباط الجامود التاريخي بالفصام (الفصام الجامودي) لكنه غالبًا ما يشاهد في الاضطراب المزاجي. من المعروف حاليًا أن أعراض الجامود غير محددة ويمكن أن تُشاهد في العديد من الاضطرابات النفسية والعصبية والطبية الأخرى. الجامود ليس تشخيصًا طبيًا بحد ذاته (على الرغم من معارضة بعض الخبراء) بل يُستخدم المصطلح لوصف سمة للاضطراب المستبطن.

تلك الحلقة من سينفيلد حيث كان الجميع يأكل الأطعمة الإصبعية الشكل بما في ذلك الشوكولاتة بالسكين والشوكة. فقامت وصرخت: "هل جننتم جميعًا؟"

لقد كان ذلك الشعور هو ما دفعني إلى هذا العالم من النشاط دفعًا. كيف لي أن أجلس دون حِراك وأنا محاطة بأشخاص يتصرفون بسخافة وعلى نحوٍ منافٍ للعقل؟ أردت أن أقول لهم أنه ليس سام الذي كان مقززًا وعنصريًّا بل بن أفليك. فهو الذي كان يعامل الناس بطرق مختلفة بناءً على إثنيتهم. وذلك هو التعريف الحقيقي للعنصرية.

ترث النساء والمفكرون الأحرار في المجتمعات المسلمة التقليدية عبئًا مضاعفًا. فاذا أرادوا العيش في العالم الحديث فعليهم ليس فقط مواجهة الثيوقراطيين (المتعصبين دينيًا) في منازلهم ومدارسهم، بل وأيضًا الكثيرَ من الليبراليين العلمانيين بعدم مبالاتهم وبنفاقهم وتقواهم الزائفة وهلوساتهم بخصوص العنصرية الذين يضيفون حجابًا آخر على معاناتهم. تقبل ياسمين محمد في كتابها السافرة هذا التحدي بكل ما في العالم من شجاعة مكذبة الفكرة الخطيرة القائة بأن نقد الإسلام ضرب من ضروب التعصب. فلتلهمك شجاعتها وحكمتها"

سام هارِسْ، مؤلف كتاب نهاية المعتقد

منذ الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، والعالم الغربي منشغل بالإسلام ودوره في الإرهاب. إلا أن النقاش العام حول دين الإسلام مستقطَب في جهتين، أحدهما يمتدحه باعتبارِهِ دينَ السلامِ، بينما يدعي الطرف الآخر أن كل المسلمين إرهابيون. تعتقد ياسمين محمد الناشطة في حقوق الإنسان أن كلا الطرفين خاطئان على نحو شديد.

في كتابها وقصة حياتها "سافرة كيف يمكن الليبراليون الغربيون الأصولية والتشدد الإسلامي"، تتحدث ياسمين بالحقيقة التي مرت بها كامرأةٍ وُلِدَتْ في العالم الغربي لكنها رُبِّيَتْ في بيتٍ إسلاميٍّ متشدد. ورغم كونها أول جيل كندي من أسرتها، فقد عاشت فترة كبيرة من طفولتها كأنها تعيش في غير وطنِها كندا، ورغم أنها ذهبت إلى مدارس إسلامية وألبسوها الحجاب منذ سن التاسعة، فإن ياسمين لم تتواءم أبدًا مع أسرتها المسلمة أيضًا. ولكون ياسمين عاشت بين العالمين الغربي والإسلامي بهذه الطريقة، فهي قادرة إلى حد كبير على أن تراهما كليهما بطريقة موضوعية من الخارج، وفي نفس الوقت قريبة من كلا العالمين لكي تراهما بأمانة وصدق.

ولكون مذكرات ياسمين أشبه بمزيج من قصة أيان هرسي عليّ في كتابها وقصتها "كافرة"، ورواية "حكاية الأمَة" للكاتبة الكندية مارجريت آتوود، فإنها تُطْلِعُ القراءَ على عالمٍ أغلب الغربيين غير مُطَّلِعين عليه. تهدف ياسمين كأستاذة جامعية لأكثرَ من خمسة عشر سنة أن تكشف عن الحقيقة. هل تشويه وبتر الأعضاء التناسلية للإناث (الختان) ممارسة إسلامية أم ثقافية؟ هل الحجاب بالإجبار أم هو اختيار؟ هل تمثل داعش الإسلام "الحقيقي" أم انحرافًا متطرفًا؟ ولماذا هناك تضارب كبير للغاية في المعلومات؟ وكمعظم المجتمعات المنعزلة فإن العالم الإسلام لديه "خطاب متطرف" و"خطاب معتدل" وغالبًا ما يتحدث بالأول مع أفراده وفي مجتمعاته، بينما يخاطب بالأخير الغرب والدول غير الإسلامية. فمن المستحيل على المشاهد المتابع أن يحصل على إجابة صحيحة دون اطلاع ودراسة.

وبدون إخبار الناس مباشرةً بما عليهم أن يعتقدوا به، فإن كتاب أو مذكرات "سافرة" يترك الخطابة ويرشد الباحثين عن الحقيقة مارًّا بهم من خلال ومتجاوزًا روايات وتقارير الإعلام، والصوابية السياسية، والأكاذيب الفجة، ويشجِّع القراءَ على الوصول إلى استنتاجاتهم الخاصة بهم.



ناشطة حقوق الإنسان الكندية ياسمين محمد المناصرة لحقوق النساء اللاتي يعشنَ في الدول ذات الأغلبية المسلمة، واللاتي يكافحن ضد التشدد الديني الذي يعشن وسطَه. ياسمين هي أيضًا مؤسسة "قلوب حرة عقول حرة"، وهي مؤسسة تقدم الدعمَ النفسيَّ للمسلمين السابقين الذين يعيشون في الدول ذات الغالبية الإسلامية، حيث هناك عقوبة قانونية تفرضها كثير من تلك الدول على ترك الإسلام بالقتل، أو يؤدي ترك الإسلام في بعضها الآخر إلى خطر القتل على يد الأفراد الآخرين في المجتمع أو الجماعات. إنها تعيش اليومَ مع ابنتيها في كندا، اللتين تُطلِقان شعرهما الرائع ينساب بلا حجاب، ومع زوجها المحبِّ المساندِ لها الذي لم يكن لديه أي فكرة عن قصة حياتها عندما تزوجها منذ أكثر من عقدٍ من الزمان. إن كتابها وقصة حياتها "سافرة كيف يمكن الليبراليون الغربيون الأصولية والتشدد الإسلامي" هو أول كتاب لها. يمكنك التحدث مع ياسمين عن طريق موقع الإنترنت www.YasmineMohammed.com